الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الرقم التسلسلي : .....

رقم التسجيل :14 / 04/ DL

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتور في العلوم

شعبة: الأدب العربي تخصص: الأدب العربي

البنية الأسلوبية للوظيفة الحوارية في القصة القرآنية من خلال سورة الكهف

من إعداد: حوفاف لويزة **إشراف:** عباس بن يحيى

تاريخ المناقشة : ...../ ...../ .....

أمام لجنة المناقشة المكونة من السادة:

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة العلمية	المؤسسة	الصفة
1	هشام مداقين	أستاذ محاضر (أ)	جامعة المسيلة	رئيسا
2	عباس بن يحيى	أستاذ	جامعة المسيلة	مشرفا ومقررا
3	نورة قطوش	أستاذ محاضر (أ)	جامعة المسيلة	ممتحنة
4	بوعلام رزيق	أستاذ	جامعة برج بوعريريج	ممتحنا
5	البشير عزوزي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة برج بوعريريج	ممتحنا
6	إدريس حمروش	أستاذ	المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة	ممتحنا

السنة الجامعية : 2023-2024

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

شكر وعرفان

الحمد لله العلي القدير على فضله العظيم وخيره الكثير
أشكره وأحمده حمدا لا حدّ له ولا عدّ على توفيقه في إنجاز هذا العمل
ليكون ثمرة علم طيبة، آمل أن تُكلّل بالسّداد والنجاح.
ثم أتقدّم بالشكر الجزيل وكلّ عبارات التقدير للأستاذ الدكتور "**عباس بن يحيى**" المؤطر والموجّه الذي أشرف على البحث وتابع إنجازه بمختلف مراحله مذ كان فكرة إلى أن خرج إلى النور بعون الله وفضل إرشاداته ومرافقته الحكيمة، فبارك الله فيكم أستاذي الكريم وجعلكم مَعينا لا ينضب.
كما أشكر أعضاء لجنة المناقشة الأفاضل كلّ باسمه لصبرهم وقراءتهم هذه الأطروحة لتقييمها وتقويمها.

الطالبة: حوفاف لويزة

مقدمة

كان القرآن الكريم ولا يزال نصا معجزا بألفاظه ومعانيه، وكل ما يحتويه كونه خطابا إلهيا احتل أعلى مراتب الفصاحة لدى العرب عند نزوله–رغم فصاحتهم–فسلب الألباب بعذوبة أصواته، وإحكام سبك عباراته، وسحر بيانه؛ فهو نص متكامل شغل الدّارسين قديما وحديثا، فاعتبروه ظاهرة أدبية فنية تستحق الدراسة والاهتمام.

ومن جماليات هذا النص المقدّس ثراؤه بمتون قصصية عديدة، تروي أخبار الأوّلين من الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين، فكانت بذلك القصة القرآنية جزءًا مهمًّا من القرآن الكريم، فهي ذات جاذبيّة وتأثير عميق في النفوس أخلاقيا وفنّيا، لتميّزها بطابع سرديّ منسجم قائم على عدّة عناصر فنية معروفة في البنية السردية أبرزها: الحوار.

من المعطيات السّابقة تبلورت لدينا فكرة هذا البحث الموسوم بـ: "**البنية الأسلوبية للوظيفة الحوارية في القصة القرآنية من خلال سورة الكهف**"، حيث نتّخذ الحوار في القصة القرآنية محورا للدراسة، لنبين تشكّله اللّغوي، ودوره الوظيفي في كل قصة، ونسعى إلى إبراز مكوناته وبنياته الصوتية، وتراكيبه النحوية، وأهم الظواهر البلاغية والخصائص الأسلوبية التي ميّزته في ثنايا قصص سورة الكهف، بوصفه محرّكا مهمّا وأساسا من أسس سير أحداثها، مضفيا نوعا من الحيوية على شخوصها وعلى جوها العام.

– وعليه حاولنا من خلال هذه الدراسة الإحاطة بمختلف الجوانب الأسلوبية واللّغوية وحتى السياقية والخطابية من خلال استنتاج وتحديد دور المتلقي في تذوق وقراءة النص القرآني القصصي، مرورا بمتخيّله وأفق انتظاره، وصولا إلى الإجابة على الإشكالية البحثية الآتية: فيم تكمن مواطن التفرّد التي تميّز النصوص الحوارية في سورة الكهف؟

وتتفرع عنها مجموعة من الإشكاليات التي تستدعي الإجابة، وتتمثل في النقاط التالية:

– ما هو موقع الوظيفة الحوارية في القصة القرآنية؟ وما مدى تحقيقه لوظيفة الإقناع؟

– فيم تتمثل الظواهر والخصائص الفنية التي تبرز في التحليل الأسلوبي واللغوي والبلاغي للوظيفة الحوارية في سورة الكهف؟

– كيف يمكن تحديد وكشف أسرار الأسلوب القرآني من خلال حوارات سورة الكهف؟ وماهي الآليات الإجراءات المعتمدة في ذلك؟

ومنه سعت هذه الدراسة إلى أن تكون محاولة جدّية لتفكيك وتحليل الوظيفة الحوارية في قصص سورة الكهف من عدّة جوانب، لتكتسي الأهمية المرجوّة، وتكون ذات قيمة على جميع أو معظم المستويات خاصة وقد اجتمعت فيها العديد من آليات وأدوات البحث العلمي.

لذا لم يكن اختيارنا لهذا الموضوع من باب الصدفة، وإنّما كان لعدة دوافع وحوافز أقنعتنا بمواصلة غمار البحث في مجال القرآن الكريم، مع الوعي التام بما يتطلّبه من مجهودات وما يواجهه من عقبات، ومن هذه الحوافز نذكر:

- الشغف بالنص القرآني الكريم والرغبة في معرفة أسراره وجمالياته من خلال الدراسة لا القراءة وحدها.
- الانجذاب نحو السرد القصصي، والإعجاب بالقرآنيّ منه وبتكامل عناصره.
- الرغبة في استثمار الجهد والولع بالبحث في دراسة القصة القرآنية بالذات لثرائها وتعدّد جوانب التحليل فيها.

ونظرا إلى أنّ لكلّ بحث أهدافا فإنّ بحثنا هذا يهدف إلى بعث وتنشيط البحث العلمي في مجال الدراسات القرآنية وإبراز الجوانب الفنية والأدبية في القصة القرآنية، بالإضافة إلى الرغبة في

- العمل على ازدواجية الدراسة والتحليل بين التراث والحداثة لإبراز نقاط التميّز والتفرد في الأسلوب القرآني وخاصة الحوار في سورة الكهف ثم التوصل إلى رصد ودراسة الخصائص الأسلوبية للحوار في قصص سورة الكهف، بعد استثمار ما يلزم من آليات التحليل الأسلوبي في دراسة النصوص الحوارية في سورة الكهف وإبراز عناصر التميز فيها، وصولا إلى الإشارة إلى عمق النص القرآني وثرائه، وعدم القدرة على تحقيق الشمولية في دراسته لإعجازه وأسراره اللامنتهية.

ولنجاح هذا الموضوع وتحقيق أهدافه اتبعنا خطة بحث نراها محكمة، فقد حاولنا بناء محاوره الأساسية في مدخل وأربعة فصول تتدرج تحتها عناصر موزعة حسب الأهمية والأولوية.

آثرنا أن يكون المدخل مفاهيميا، فقد تناول مفهوم الحوار ومنطلقاته بالتفصيل، مع إبراز الفروق بينه وبين الجدل نظرا على تقارب المفهومين. ثم يأتي الفصل الأول بعنوان: **النص القرآني والمدخل الأسلوبي**، تنضوي تحته عدّة عناصر تتدرّج في الدراسة من العام إلى الخاص، فقد عالج العنصر الأول: القرآن الكريم نص معجز، ميزةَ القرآن الكريم المتمثلة في الإعجاز ومختلف الأوجه التي ثبت فيها هذا العنصر.

وحاولنا رصد وجمع مضامين القرآن الكريم في عنوان جزئي تمثل في: مضمون النص القرآني، ثم تطرقنا إلى تحليل الأسلوب والنظم القرآني مع إبراز ما بينهما من فروق، وصولا إلى استنتاج خصائص الأسلوب القرآني، وبما أن موضوع دراستنا الشامل هو القصة القرآنية فقد عرّفنا بها وذكرنا موقعها من دراسات القدماء والمحدثين ثم حدّدنا أغراضها في عنصر مستقل.

بعد هذا العرض العام والنظري تقريبا يأتي الفصل الثاني بعنوان: **الوظيفة الحوارية في سورة الكهف**، ليبدأ معه الجانب التطبيقي من خلال رصد مواضع الحوار القصصي في سورة الكهف، باستقراء

قِصصها الأربع، بعده تناولنا عناصر الحوار القصصي وأشكاله في سورة الكهف، ثم حلّلنا الحوار في قصص سورة الكهف من خلال مؤشّرات نصّيته وكذا تعيين مختلف علاقاته.

أمّا الفصل الثالث فكان التحليلُ الأسلوبي للوظيفة الحوارية موضوعَه ومحوره في شقّه الأول، من خلال مستويات التحليل الأسلوبي الأربعة المعروفة: الصوتي، والصرفي والنحوي والدلالي، وفي شقّه الثاني تناولنا بلاغة الحذف والفراغات النصية ثم الأساليب البلاغية من خبر وإنشاء، مرورا بوظائف اللغة عند رومان جاكوبسون في نظريته التواصلية، ثم الوظيفة الأسلوبية من منظور ميشال ريفاتير والفرق بين دراسته وما جاء في نموذج جاكوبسون، وصولا إلى موقع الحوار في أبحاث ميخائيل باختين بمختلف توجهاته الفكرية وتحليلاته الفلسفية.

ونأتي في الأخير إلى الفصل الرابع الذي يعتبر زبدة البحث وعصارته، فبعد ثلاثة فصول من الدراسة والتحليل والمناقشة نخصّص فصلا لاستنتاج **الخصائص الأسلوبية للحوار القصصي في سورة الكهف**، قسّمناه إلى خصائص سردية كالتصوير والترغيب والترهيب وكذا الحجاج والإقناع، وأخرى تعدّ ظواهر بلاغية امتاز بها الحوار في سورة الكهف، كالالتفات وضرب الأمثال والانزياح والمفارقة.

وفي النهاية –كما هو شأن أيّ بحث–كانت خاتمة تضمّ أهم نتائج الدراسة، مع الحرص على أن تكون دقيقة ومركزة، وشاملة لمعظم الأجوبة المنتظرة على إشكاليات البحث، وقد كانت في نقاط محدّدة وموجزة ومكثّفة.

أما عن المنهج المعتمد في هذه الدراسة، فإن طبيعة الموضوع قد فرضت تضافر عدّة مناهج، فكان المنهج الأسلوبي البنيوي حاضرا، بالإضافة إلى التداولي من خلال بروز دور السياق والانتقاء وفنّ استعمال اللغة، وفي كلّ هذا لا غنًى عن آليات الوصف والتحليل التي رافقت مراحل البحث جميعا.

وحتى نوسع القارئ– أيا كانت صفته– صدقًا وأمانةً فإن هذا العمل لم يخلُ من صعوبات جمّة أثنت القدرة على إنهائه في العديد من المرات، لكن الصبر والإرادة والعزم على تحقيق الإنجاز (الحلم) جعلنا نمضي قدما لجعل كل صعوبة محفّزا ودافعا جديدا لاستكمال الأطروحة ومناقشتها بعون وتوفيق من الله سبحانه وتعالى، ففي المجال العلمي وجدت صعوبة في حصر عناصر الموضوع لأنه متشعّب وبالتالي كان من الصعب الاستقرار على خطة منهجية منذ البداية، بل ظلت تتغير إلى أن تمكنّا من ضبطها والإلمام بها، إلى جانب صعوبة التعامل مع النص القرآني والحذر من مغبّة التأويل الذي قد تنجر عنه نتائج خاطئة أو عكسية، مما تطلب منا التريّث في الكثير من الأحيان خاصة عند الاستنتاج أو إطلاق الأحكام؛ لأن النص القرآني له هيبته وعلى الدارس أو الباحث المحافظة عليها من باب الخوف من الخطإ أو الغفلة عن تفسير أو تأويل بعض الآيات في عيون التفاسير.

وليكتسب البحث قيمة وأمانة علمية لا بدّ له من مصادر ومراجع تثري موضوعه وتساعده على تخطّي الصعوبات المختلفة في التحليل والنقاش والاستنتاج، فتجعله موثوقا وتدعم آراءه ومواقفه التي يقفها إزاء مختلف المسائل، ومنه فقد تصدّينا لهذه الدراسة بمجموعة متنوعة وثرية من المصادر والمراجع منها التراثي ومنها الحداثي، نذكر أهمها: وهو القرآن الكريم وبعض من تفاسيره مثل "الكشاف للزمخشري"، و"مفاتيح الغيب" للرازي، و"تفسير التحرير والتنوير" لمحمد الطاهر بن عاشور، و"في ظلال القرآن" لسيد قطب.

كما نذكر بعض المصادر في إعجاز القرآن كدلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، وإعجاز القرآن للباقلاني، بالإضافة إلى مصادر ومراجع أخرى أهمها: الأسلوبية والأسلوب لعبد السلام المسدي، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه لعبد الكريم الخطيب، الحوار في القرآن قواعده أساليبه معطياته لمحمد حسين فضل الله، وإتقان البرهان في علوم القرآن لفضل حسن عباس، وغيرها من المصادر التي لا يتّسع المكان لذكرها جميعا، فقد اختلفت وتفاوتت من فصل إلى آخر حسب حاجة العناصر ومتطلبات الإشكاليات من المادة العلمية.

ولا يجدر بنا في حضرة القرآن الكريم ودراسته أن ندّعي الوصول إلى أقصى ما أردناه من وراء هذا البحث، وإنما نشهد بأنّا قدّمنا نصيبا من اجتهادنا بعون الله وهدايته، فإن أصبنا فمنه عز وجل أولا، ومن التوجيهات القيّمة للأستاذ المشرف ثانيا، وإن أخطأنا فمن أنفسنا، فالحمد لله حمدا كثيرا على نعمة العلم، والتدرّج فيه، وعلى منّه علينا بهذا الإنجاز الذي نرجو أن يكون ثمرة طيبة تنفع الباحثين وغيرَهم، وتؤهلنا لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي.

كما لا يفوتني أن أشكر الأستاذ المشرف "عباس بن يحيى" شكرا خاصا ومطلقا على جميل تعامله وتعاونه، وعلى دعمه الدائم ودفعه للبحث والباحث ليخطو خطواتٍ حثيثةً نحو الأمام لاستكمال العمل والتميّز فيه، وإصراره على الجدّية والتفاني والإخلاص في البحث وطلب العلم بكل تواضع وتفهّم، فدمتَ قدوةً لنا وذخرا لهذا الوطن وأبنائه، وزادك الله من واسع فضله.

مدخل:

الحوار القرآني: منطلقه وعلاقته بالجدل في القرآن الكريم

توطئة:

يرتبط الحوار بالحياة اليومية للناس، وبالفنون الأدبية المسرحية وخاصّة القصة، فهو من عناصرها الأساسية التي يقوم عليها فعل السرد أو الوصف، لهذا لا يمكن الاستغناء عنه في القصة عموما تحت أي ظرف، وكثيرا ما كان الحوار من علامات ثقافة المرء وحسن تهذيبه، فهو يساهم في التفاهم بين الأطراف وإنهاء جلّ المشكلات الناتجة عن سوء الفهم والتقدير، كما أنه يرافق العملية التعليمية التعلّمية التي صارت تقوم عليه وتعتمده مفتاحا ووسيلة لاستنطاق المتعلم وتحفيزه، وبناء الدرس على أساس الإجابات الناتجة عن العمليات الحوارية المتنوعة فقد «أصبح التّعليم عن طريق الحوار أسلوبا تربويا معتمدًا، ومعناه تعليم الناشئ عن طريق التجاوب معه، بعد تحضير الأسئلة تحضيرًا يجعل كل سؤال يُبنى على الجواب المأخوذ من المتعلم، على نحو يجعل المتعلم يشعر في نفسه بأن النتائج التي توصّل إليها ليست جديدة عليه».[1]

فالحوار التعليمي المبني على الحوار يكون مثمرا وأكثر إشراكا للمتعلم في العملية التعليمية التعلمية، وبهذا «طرائق الحوار التعليمي الذي يرتكز على التواصل المتبادل بين المعلم والمتعلم في شكل أسئلة وأجوبة يدخل فيما يعرف حديثا (بالديداكتيك) وهو الفن الذي يساهم في ترسيخ العلوم».[2]

وفي القرآن الكريم نجد حضورا لافتا ومميزا للحوار، خاصة في القَصص القرآني، وبشكل أخصّ في سورة الكهف المكوّنة من أربع قصص، يظهر فيها الحوار بارزا بما له من أدوار ووظائفَ وعلاقات وسمات لغوية تتعلق ببنائه، ووظيفية تتعلق بتفاعلاته وأثرها في النص القصصي، وأخرى موضوعية.

1-مفهوم الحوار وعلاقته بالجدل:

ورد المفهوم اللّغوي للحوار في مختلف المعاجم العربية ضمن معاني ومشتقات مادة "حَوَر"، ففي لسان العرب نجد معظم المعاني تصّب في معنى الرجوع والجواب، يقول ابن منظور: «وأحار عليه جوابه: ردّه، وأحَرْت له جوابا وما أحار بكلمة، والاسم من المحاورة الحَوير، تقول: سمعت حويرهما وحوارهما. والمحاورة المجاوبة، والتحاور التجاوب، وتقول: كلّمته فما أحار إليّ جوابًا، وما رجع إليّ حويرًا ولا حويرة ولا مَحورة ولا حِوارًا أي ما ردّ جوابًا. واستحاره أي استنطقه».[3]

---

[1] عبد الرحمان النحلاوي، من أساليب التربية الإسلامية: التربية بالحوار، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، 2000م/ 1421 هـ، ص 13.

[2] محمد زهار، البعد التعليمي في المصنفات النحوية الأندلسية إصلاح الخلل أنموذجا، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، العدد: 05، جامعة المسيلة، الجزائر، 2018، ص 125.

[3] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، المجلد 4، ص 218.

والمعنى نفسه نقف عليه في معجم تاج العروس للسيد مرتضى الزبيدي: «يقال كلّمته فما رجع إليّ حَوَارًا وحِوَارًا ومحاورة وحويرًا ومَحُورَةً أي جوابًا... والمحاورة المجاوبة و(مراجعة النطق) والكلام في المخاطبة. وقد حاوره وتحاوروا: تراجعوا الكلام بينهم، وهم يتراوحون ويتحاورون».[1]

أما القاموس المحيط للفيروزابادي فقد أورد المعنى مختصرًا كون «المحاورة والمَحْوَرة والمحورة: الجواب، كالحوير والحَوار ويُكسَرُ، والحيرة والحُوَيرَة، ومراجعة النطق. وتحاوروا: تراجعوا الكلام بينهم».[2]

نلاحظ أن معاني هذا الجذر(حور) جميعا متفقة وتؤدي معنى الجواب والتجاوب والرجوع والرد، فحار بمعنى رجع وأحار عليه كلامه أي ردّه، والحوار بالكسر أو بالفتح (الحاء) هو الجواب والمحاورة والمحورة: التجاوب والمجاوبة.

وقد وردت كلمة الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع: اثنان منهما في سورة الكهف، والثالث في سورة المجادلة. قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾.[3] وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾.[4]

وقال أيضا: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾.[5]

أما المفهوم الاصطلاحي فهو لا يختلف كثيرا عن المفهوم اللّغوي لمصطلح الحوار، لأنه يحمل معنى المجاوبة والاشتراك في الحديث بين شخصين اثنين أو أكثر، والحوار من الركائز الأساسية التي تقوم عليها الفنون الأدبية خاصة منها المسرحية والقصة والرواية، كما أن الحاجة إلى الحوار لا تفارق الحياة والتعامل بين البشر بصفة عامة، فبالحوار يتوصّل المتحاورون إلى حلول ونتائج بحسب المواقف،

---

[1] السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الكريم العزباوى، راجعه: عبد الستار أحمد فراح، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1392هـ/ 1972 م، ج11، ص ص 107، 108.

[2] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط 8، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1426هـ/ 2005م، ص381.

[3] سورة الكهف، الآية: 34.

[4] سورة الكهف، الآية: 37.

[5] سورة المجادلة، الآية: 1.

ويقنع بعضهم بعضا بالأفكار المطروحة، «ولا بد من الحوار لاكتساب العلم وتلقّي المعرفة، ونقل العلوم والخبرات والثقافات، وتلاقح الحضارات من جيل إلى جيل ومن أمّة إلى أمّة».[1]

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى أنه خلق البشر مختلفين في كثير من الجوانب، وهذا الاختلاف يقتضي ضرورة الحوار، فإذا تعدّدت الآراء وتنوّعت الاتجاهات والمشارب وجَبَ اللّجوء إلى الحوار للوصول إلى حلّ يرضي الأطراف جميعا بعد الاقتناع وتبيّن الحَق، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.[2]

ومنه يتلخّص مفهوم الحوار عامة في كونه: "نمط حياة وفلسفة تعامل وطريقة تفاهم".[3]

فدون حوار لا يحسن الإنسان التعبير عن نفسه ولا عرض أفكاره وطريقة تفكيره، فالحوار إذًا يؤدّي إلى الوضوح والقضاء على أسباب التوتر والنزاع.

أمّا في الجانب الفنّي والأدبي الكتابي فالحوار هو «ما يدور من حديث بين الشخصيات في قصة –أو مسرحية–وهو يشكّل جزءًا فنيا هامًا من عناصر القصة، لأنّه يوضّح طبيعة الشخصية التي تفكّر بها ومدى وعيها بالقضية أو المأساة التي تشكّل حياتها المتخيّلة، وإذا كان الإنسان يعرّف بأنه حيوان (ناطق)، فإن النطق ينبغي أن يكون على (منطق). فالبشر –رجالاً ونساءً–في الحياة أو في عمل أدبي، يختلفون في المستوي الفكري والثقافي، لذلك ينبغي أن يتوافق منطق كل شخصية مع ما تنطق به من عبارات، لأنّ العبارة (تعبير) عمّا نفكّر فيه، لهذا يقول بعض الفلاسفة: "حدّثني حتى أراك"».[4]

فاختلاف الحوار في مستواه ولغته وأسلوبه تابع لاختلاف الشخصيات بعضِها عن بعض، وهذا ما يمنح العمل الأدبي بعدًا فنيا صادقا، نظرا إلى تطابق ذلك الحوار الذي يجري بين الشخصيات مع طبيعة تلك الشخصيات مهما كان عمرها أو مستواها الثقافي أو الاجتماعي، مما يبرز نقاط التنوع والفروق بينها ومميزات كل منها.

---

[1] مفرح بن سليمان بن عبد الله القوسي، ضوابط الحوار في الفكر الإسلامي، مركز الملك بن عبد العزيز للحوار الوظيفي، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1429هـ/ 2008 م، ص 19.

[2] سورة المائدة، الآية: 48.

[3] عبد الله الجويسي، أسلوب الحوار القرآن الكريم، خصائصه الإعجازية وأسراره النفسية، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، العدد 02،1427هـ، 2006 م.

[4] طه وادي، دراسة في نقد الرواية، ط3، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1994 م، ص ص 44، 45.

فبفضل الحوار تتبادل الشخصيات مواقفها وتغيّر أحوالها وأشكالها، وتعتمد عليه القصة في خلق الحركة وتلوينها وتنويعها.[1]

فشخصيات القصة تتحرك داخل إطار مكاني معين مرسوم في قالب قصصي وفق نظرة سردية محدّدة، تتطور معها الأفكار والمشاعر وكلّ ما يتعلق بتلك الشخصيات المتحاورة، باستخدام ما يلزم وما يناسب الموقف من عبارات وجمل وأساليب مشكّلة لغة حوارية مميزة، هذه اللّغة «لا ينبغي أن تنقل ما يدور على ألسنة الشخوص، وإنما ينبغي أن تترجم مشاعرهم، وتجسّد أحاسيسهم، وهذا هو المستوى الرفيع في العمل الأدبي، وارتقاء العمل الأدبي لا يقوم على لغة اللسان وإنما يقوم على لغة الجنان».[2]

فالحوار يساعد على توضيح الفكرة وبيانها، لأنّ كلّ طرف من أطراف الحوار يثير الأفكار والجوانب التي يؤمن بها ويدافع عنها، كما يساعد الحوار أيضا على تجسيد المواقف وتصوير المشاهد حتى يجعلها حية تتحرك، فيتفاعل القارئ مع الحدث، يشعر به وينفعل مثلما يشعر أبطال القصة وينفعلون.[3]

وفي عموم الاصطلاح نجد أن الحوار هو «مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين لمعالجة قضية من قضايا الفكر والعلم والمعرفة، بأسلوب متكافئ يغلب عليه طابع الهدوء والبعد عن الخصومة».[4]

من خلال هذا المفهوم يتبين لنا تطرق صاحبه إلى معيار يحدّد مجال هذا الحوار، وذلك في قوله: "يغلب عليه طابع الهدوء والبعد عن الخصومة"؛ لأنّ الحوار بين شخصين أو أكثر إذا لم يكن هادئا وبدت فيه الخصومة لم يعد حوارًا وإنما صار جدلاً أو جدالاً. فما هو الجدل؟ وما الفرق بينه وبين الحوار؟.

ورد لجذر "جدل" الكثير من المعاني في المعاجم والقواميس، منها القاموس المحيط الذي أورد لهذه الكلمة مختلف المعاني المحتملة وفق السياق الذي تقع فيه، والصيغة التي تكون عليها، نقول: «جدَله وجدّله فانجدل وتجدّل: صرعه على الجدالة، وجدَل جُدولا، فهو جَدِلُ ككتفٍ وعَدْلٍ: صَلُبَ. والجدل، محرّكةً: اللّدَدُ في الخصومة والقدرة عليها، جَادله فهو جَدِل ومِجْدَال، كمنبَر ومحراب».[5]

---

[1] ينظر: عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم ويوسف، ط 2، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،1395 هـ/ 1975 م، ص 119.

[2] عبده زايد، من أسرار النظم في القصص النبوي، دار الصابوني، دار الهداية، 1929/3/4، ص ص 54، 55.

[3] ينظر: محمد عبد الله عبده دبور، أسس بناء القصة من القرآن الكريم، دراسة أدبية ونقدية، رسالة مقدمة لنيل درجة العالمية (الدكتوراه) في الأدب والنقد، إشراف: فتحي محمد أبو عيسي، كلية اللغة العربية، قسم الأدب والنقد، جامعة الأزهر، 1417 هـ، 1996 م، ص 211.

[4] مفرح بن سليمان بن عبد الله القوسي، ضوابط الحوار الفكر الإسلامي، ص 13.

[5] الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص 976.

نلمس في هذا المفهوم اللّغوي معنى الصلابة والصرامة والتمسّك بالرأي والموقف أثناء الحديث (الحوار)، بحيث تنشأ خصومة أو خلاف بسبب الاختلاف في الآراء والمواقف والأفكار.

أمّا في الاصطلاح فقد ورد في معجم التعريفات مفهوم الجدل على أنه في الحقيقة خصومة، وهو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجّة أو شبهة، كما يُقصد به تصحيح كلامه، أما الجدال فهو عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها.[1]

ونرى أن الجدل قد يكون إيجابيا أو سلبيا بالنظر إلى هدفه والنتيجة التي يصل إليها المتجادلون من ورائه، والجدل يشبه الحوار في كونه مراجعة وتداول للكلام بين طرفين، لكنّه يختلف عنه «في كون هذا التداول وتلك المراجعة تأخذ طابع القوة والغلبة والخصومة في الجدل، بينما تأخذ طابع الهدوء والبعد عن الخصومة في الحوار».[2]

وإذا كانت كلمة الحوار قد وردت في ثلاثة مواضع فقط في القرآن الكريم –كما ألمحنا سابقا–فإن كلمة الجدل أو الجدال (باختلاف صيغها) «قد جاءت الإشارة إليها في سبعة وعشرين موضعا في القضايا الخاصة والعامة، من دينية تتعلق بقضايا العقيدة والحياة، أو اجتماعية تدخل في أمور المجتمع».[3]

وبهذا يظهر جليّا أن المساحة التي أخذتها كلمة "الجدل" في القرآن الكريم أوسع من المساحة التي نالتها كلمة الحوار، وورودها في هذه المواضع الكثيرة غلب عليه كونها في سياق عدم الرضا عن الجدال وعدم جدواه.[4]

قال الله تعالى: ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾.[5]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝١٠٧﴾.[6]

---

[1] ينظر: علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، ص 67.

[2] مفرح بن سليمان بن عبد الله القوسي، ضوابط الحوار في الفكر الإسلامي، ص 14.

[3] محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، قواعده أساليبه معطياته، ط 5، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1417 هـ/ 1996 م، ص 50.

[4] فراس طركي الأحمد، التصوير البياني في حوار آيات العذاب في القرآن الكريم، مجلة الآداب واللغات، مجلة علمية دولية محكمة، العدد 6، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج، الجزائر، جوان 2017، ص 63.

[5] سورة غافر، الآية: 5.

[6] سورة النساء، الآية: 107.

ونجد الكلمتين معا مجتمعتين في قوله تعالي: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ﴾.[1]

فكلمة تجادلك وردت في موقف استياء المرأة من زوجها وشكواها ضده، أمّا كلمة تحاوركما فواضح أنها تدل على تجاوب هادئ وإيجابي، «فنحن هنا أمام حقيقة وُصفت أوّل الأمر بأنها جدل، ووصفت في الآخر بأنها حوار، وذلك هو الأمر الذي لا غرابة فيه، لقد جاءت المرأة تشكو زوجها، وجاءت منفعلة من الظهار الذي أقسم به عليها، لكنّ هذا الموقف قد تغيّر وهدأت نفسها قليلا بالحديث مع النّبي عليه السلام، واطمأنّت إلى قوله، فتحوّل الجدل إلى حوار».[2]

ويمكن تفسير كثرة ورود كلمة الجدال والجدل مقارنة مع كلمة الحوار في القرآن الكريم بما شهده الإسلام آنذاك من صعوبات، «فقد واجه التحديات الفكرية والتقليدية، التي تعيش في داخل وعي الإنسان وفكره، مما يدخل في حركة التغيير التي يريد الإسلام لها أن تغزو أعماق الإنسان وفكره، لتنقله من ظلمات الشكّ والكفر والضّلال إلى نور الإيمان والتوحيد والهداية».[3]

من أجل هذا كانت مساحة الجدل واسعة في القرآن الكريم سعة التحديات التي واجهت الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم، فكان لا بدّ من ترسيخ العقيدة وتلقين مبادئ القرآن والإسلام، وأسس الحياة الجديدة في ظلّ الدّين الجديد مع إقامة الحجة بقوة الدليل والبرهان.

والنتيجة المهمة والضرورية التي لا بدّ من الإشارة إليها في معرض الحديث عن علاقة الجدل بالحوار مفادها أن كلمة الحوار أوسع مدلولاً من كلمة الجدل، فالجدل يحمل معنى الصراع، أما الحوار فيتّسع معناه للصراع ولغيره، أي للمحادثة بلين أو بقسوة، بهدف إيضاح الفكرة عن طريق السؤال والجواب، مما يجعله مفيدًا لحديثنا وشاملاً،[4] ويجعله أيضا مناسبًا لأن يكون محور بحثنا، مستحقًا الدراسة والتحليل في ضوء النص القرآني العظيم، الذي كان من أبرز مكوناته وأبوابه القصة القرآنية، والتي بدورها تستلزم وجود الحوار: المحرّك الأساس للشخصيات والأحداث، فالحوار أو المحاورة «لم تأت في القرآن عرضا، ولم يستدعها سياق أو غرض معين، وإنّما هي غرض أساسي من أغراض القرآن، وأسلوب محدّد

[1] سورة المجادلة، الآية: 1.

[2] محمد أحمد خلف الله، مفاهيم قرآنية، عالم المعرفة، إشراف: أحمد مشاري العدواني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو 1984 م، ص 120.

[3] محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص ص 50، 51.

[4] ينظر: المصدر نفسه، 52.

من أساليبه التي يهدف بها إلى تحقيق أغراضه الشاملة لكل جوانب الإصلاح عامة، سواء كانت فردية أو جماعية».[1]

وانطلاقا من عنصر الحوار في القرآن يتشكل مصطلح الحوار القرآني، لنحصر الدراسة بكلّ جوانبها الفنية والأسلوبية فيما ورد في القرآن الكريم من محاورات وبالتحديد في القصص القرآنية الموجودة في سورة الكهف، فالله سبحانه وتعالى يستخدم كلاّ من كلمتي الحوار والجدل في الموضع والموقف المناسبين، مبيّنا الفرق بينهما وضرورة الوعي به، ذلك «أنّ الحوار يكون عندما يضطرب الذهن، ويصبح العقل في حيرة من أمر نفسه، وأمر قضية من القضايا أو مسألة من المسائل، ويراد من الحوار أن يخرجه من كل ذلك. وتكون مرادة الكلام في الحوار هينة لينة أو غير قاسية وغير عنيفة، أمّا الجدل فيكون عندما يكون هناك صراع فكري حول قضية من القضايا أو مسألة من المسائل، ويكون الهدف عند كل من المتجادلين هزيمة الآخر فكريا، والانتصار عليه».[2]

وقد استمدّ الجدال معنى الصلابة والصرامة والقوة من الجدالة وهي الأرض الصلبة، لأن الأصل فيه هو محاولة كل طرف إسقاط الآخر عليها (الجدالة). [3]

وتتلخّص علاقة الحوار بالجدل أو الجدال في أن الحوار يتمثل في إدارة الفكرة بين طرفين مختلفين أو أطراف متنازعة، والجدال يتجسّد في إعطاء الحوار قوة العناد للفكرة والإصرار عليها، والتمسك بها مع استناد كل طرف من أطراف الحوار والجدال إلى الحجج والبراهين التي تجعل أساس الفكرة ثابتا ومتينا.[4]

وبهذا يتأسس مفهوم الجدال ويقوم على معنى الغلبة والمغالبة والصراع من أجل الفوز، بينما يقوم معنى الحوار على التفاهم والإقناع والاقتناع في ظروف هادئة بعيدا عن التأزّم والخلاف الفكري.

2_ مفهوم الحوار القرآني ومنطلقه:

سعى الإسلام إلى توحيد العقيدة وخدمة البشرية من خلال بيان الحقائق والدعوة إلى تصديقها، وفي طريقه إلى هذه المساعي اعتمد عدّة أساليب وطرائق يتم بها التأثير على الإنسان، فتتحقق الاستجابة المنشودة، وكان التنوّع من بين أهم المميزات التي طبعت النص القرآني، وجعلته مرنا متجدّدًا مشوّقا خاصة إذا تعلق الأمر بالقصة القرآنية بما فيها من أشخاص وحوار وأحداث... إلخ.

---

[1] عبد الحليم حفني، أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، ط 3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995، ص 29.

[2] محمد أحمد خلف الله، مفاهيم قرآنية، عالم المعرفة، ص 119.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 126.

[4] ينظر: محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص 56.

فلقد «استخدم القرآن الكريم من أجل الوصول إلى عقل الإنسان وشعوره أكثر من أسلوب رسالي لإقناعه بالفكرة الحق التي ترتبط بالله، وبالطريق الحق الذي يصل به إلى الله في أجواء رائعة، تمتزج فيها العقيدة بالإحساس والشعور، كما تنطلق فيه المشاعر الروحية في أجواء فكرية واسعة لئلاّ تعيش العقيدة جفاف الفكر أو يستسلم الفكر لسذاجة العاطفة وكان القص من بين الأساليب التي استخدمها القرآن في هذا السبيل».[1]

والحوار بدوره يعدّ عنصرًا مهما وفعّالا في القصة القرآنية، وبصفة عامة نجد لعنصر الحوار حضورًا واسعًا في القرآن الكريم باعتباره أداة للتعبير عن الرأي ومحاولة التعاطي مع الرأي المخالف، في إطار العلاقة الفكرية والاجتماعية بين الأنا والآخر، كما أنه يحمل ما يكفي من الحجج والبراهين لتحقيق الاقتناع والتأثير في مختلف الأطراف أو الشخصيات، دون أن ننسى دوره في نقل الأحداث والمساهمة في تطويرها وتصويرها، فنحن عندما «نقف بين يدي موقف من تلك المواقف التي أدار فيها القرآن الحوار بين شخصيات الحدث القصصي، نجد المشهد كله حاضرًا مشخّصا يملأ الأسماع والأبصار، بكل خلجة أو خاطرة وقعت فيه».[2]

كل ما سبق هو حديث ممهّد وعام عن الحوار القرآني لكن نحتاج ضبط هذا المصطلح بمفهوم محدّد وشامل. فما هو الحوار القرآني؟ وفيم يتمثّل منطلقه في القرآن الكريم؟.

أ-مفهوم الحوار القرآني:

وَصْف الحوار ها هنا بالقرآني يعني تحديد إطاره ومجاله، وهو دراسة الحوار الوارد في القرآن الكريم بصفة عامة، خاصّة أنه وُظّف بكثرة في النص القرآني بوصفه أسلوبًا مميّزًا وهادفًا واستثنائيا، وقد اتبع الله سبحانه وتعالى «في حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمحاورة، وذلك أسلوب لم يكن معهودًا للعرب، فكان مجيئه في القرآن ابتكارَ أسلوب جديد في البلاغة العربية شديدِ التأثير في نفوس أهل اللسان وهو من إعجاز القرآن؛ إذ لا ينكرون أنه أسلوب بديع ولا يستطيعون الإتيان بمثله إذ لم يعتادوه».[3]

والحوار القرآني هو «كلّ نداء أو خطاب أو سؤال يوجّهه القرآن أو يحكيه موجّها إلى منادى أو مخاطَب أو مخاطبين حول أمر هام، أو يوجّهه النّبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه أو إلى

[1] المصدر السابق، ص299.

[2] عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم ويوسف، ص 124.

[3] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج1، ص66.

المسلمين، بقصد توجيههم أو توجيه اهتمامهم إلى هذا الأمر، أو إلى تحقيق هدف معين أو القيام بسلوك فكري أو اعتقادي أو اجتماعي أو أخلاقي أو تعبّدي».[1]

لقد ركّز هذا التعريف على أهداف الحوار القرآني التي تتلخّص في التوجيه وتعديل السلوك وتصحيح العقيدة، بالإضافة إلى الجوانب الأخلاقية والإيمانية والاجتماعية.

وإذا شئنا حصر المفهوم أكثر سنجد أنفسنا أمام مصطلح "الحوار القصصي القرآني" أي الحوار الوارد في القصة القرآنية فحسب، لأن هناك خطاباتٍ ومحاورات ونداءات وردت في النص القرآني ولكن خارج المضامين القصصّية، وعليه فإن الحوار القصصي القرآني «هو حديث يجري على شكل سؤال وجواب بين شخصيات القصة الذين يقومون بأهمّ أحداثها، أو تتمثل فيهم الأحداث والمفاجآت، أو تجري عليهم المآسي والآلام التي تتميز بها القصة».[2]

فالحوار القصصي القرآني تديره شخصيات القصة، فينقل انفعالاتها وأحاسيسها ويجعل القارئ يتشوق لمعرفة المزيد من الأحداث، ويترقب تطوراتها تصاعديا، وقد يتنبأ بالنهاية أو يتوقّعها.

ب-منطلق الحوار القرآني:

سبق الحديث عن اعتماد الحوار القرآني غالبا على إقامة الحجة وعرض الدليل القوي حتى يحصل التأثير المرغوب، وتتحقق القناعة لدى أحد الأطراف أو أطراف الحوار كلّهم، وحديثنا عن الأدلّة وعملية البرهنة يقودنا إلى اعتماد صاحبها على العقل، لتكون تلك الحجة دامغة ومقنعة بما يكفي، ولا بدّ هنا من استنتاج أن العقل يمثّل منطلقا وهدفا في آن واحد بالنسبة إلى الحوار القرآني، ذلك أنّ «الجدل والحوار إنما يتوجّهان في الحقيقة إلى العقل البشري، الأمر الذي ندرك معه إلى أيّ حدّ كان القرآن الكريم يعتمد على العقل في تكوين الإيمان، ومن هنا جعل القرآن الكريم الكفر آفة عقلية».[3]

فالرسالة المحمدية وجدت في زمن لم تكن فيه للعقل قيمة، حيث عكف الناس على عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، واتّبعوا ما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم، لذلك لم يتقبلوا العقيدة الجديدة التي دعتهم إلى الإيمان والتوحيد، «ذلك أنّ القرآن الكريم يحاور العقل البشري، ويذكر صورا من المحاورات التي

[1] عبد الرحمان النحلاوي، من أساليب التربية الإسلامية: التربية بالحوار، ص14.

[2] المصدر نفسه، ص 35.

[3] محمد أحمد خلف الله، مفاهيم قرآنية، عالم المعرفة، ص 118.

تكشف عن أهم القضايا التي تشغل بال الإنسان عن أهم الغوامض التي لا تصل إليها حواسه أو وسائل بحثه، وهي معرفة الله وحقيقة الكون وأصل الإنسان كيف وجد، وما هي وظيفته في الحياة وما مصيره».[1]

واعتماد الحوار على العقل في القرآن الكريم عامة والقصة القرآنية خاصة، يركّز بشكل لافت على إبراز الحجة والمنطق العقلي، ويتابع هذا الاعتمادَ والتركيزَ على العقل وإقامة الحجة والدليل مهما بلغ من صور الافتراضات التي تتنافى مع أسس القرآن،[2] كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.[3]

فقد افترض الله سبحانه وتعالى وجود آلهة أخرى معه مع أن هذا مستحيل وغير ممكن، وهي طريقة تَبرز في حوارات الله تعالى في كتابه العظيم إذ «ينطلق القرآن في حواره مع الشاردين والمنكرين وأصحاب العقائد والأفكار الزائفة من افتراض أن يكونوا هم أصحاب الحق، وأن يكونوا هم المتمسكين به، وأن تكون البراهين العلمية وموازين المنطق إلى جانبهم، من حيث أنه المنهج الأليق للحوار والأكثر انسجاما مع الندية التي ينبغي أن تتحقق بين الطرفين المتحاورَين».[4]

ونلمس في هذا جانبا من الرفق بالخصم ومراعاته من الناحية النفسية والإشفاق عليه لجهله أو لضعفه، «ففي طور المحاورة نفسها رأينا كيف يرفق القرآن بالخصم ويحميه من الأذى، حتى تنتهي المحاورة ثم تعلن النتيجة».[5]

والرفق بالخصم من باب الاهتمام بالنتيجة والتركيز عليها لا على الأشخاص في حدّ ذاتهم، لأن تلك النتيجة متعلقة بموضوع المحاورة التي لا بدّ أن تنتهي لصالح القرآن الكريم والدين الإسلامي بصفة عامة.

والدين الإسلامي منذ ظهوره عكف على توجيه الخطابات إلى العقول، وأثبت اهتمامه بالعقل الإنساني وتمجيده، كيف لا؟ وهو أداة ميّز بها الله سبحانه وتعالى الإنسان عن بقية المخلوقات، وقد «بدأ الإسلام حركته من موقع الحوار في اتجاهين، يرتبط أحدهما بحركة الدعوة في مواجهة أفكار المعاندين لها، ويرتبط ثانيهما بحركة الدعوة في الحياة، من حيث إفساحها المجال للطريقة العقليّة في التفكير لتأخذ

---

[1] أحمد سليمان البشايرة، مظاهر الإعجاز في الحوار القرآني، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد: 2، العدد: 3، 1427 هـ/ 2006 م، ص 155.

[2] عبد الحليم حفني، أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، ص 30.

[3] سورة الإسراء، الآية: 42.

[4] محمد سعيد رمضان البوطي، أدب الحوار في كتاب الله عز وجل، سلسلة البناء والترشيد، نحو القمة للطباعة والنشر، ص 16.

[5] عبد الحليم حفني، أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، ص 36.

موقعها في الحياة، في مرحلة تاريخية لم يكن فيها للمنهج العقلي في التفكير [مجال][1] للتواجد وكان من أولويّات هذا المنهج أن يطلب الإسلام من الناس الإيمان به على أساس القناعة الذاتية، من خلال ما يقدّمه لهم من أدلة وبراهينَ على الحق في دعوته».[2]

وهذه القناعة الذاتية في نفس كل إنسان مسلم تتحقق على أساس الحجة والبرهان في إطار الحوار الهادئ العميق، هذا ما يريده الإسلام، سواء أ كانت هذه القناعة متعلقة بقضايا العقيدة أم بقضايا الحساب والمسؤولية، وصولا إلى الإجابة على كل سؤال والاهتداء إلى سواء السبيل.[3]

وبهذا تثبت للحوار قيمته وأهميته في الدعوة الإسلامية عموما والقرآن خصوصا، وفي القصة القرآنية بوجه أخصّ، فدون حوار لا تصل الفكرة ولا الرسالة، ولا يتحقّق الهدف منهما وهو الفهم والوضوح والاقتناع أخيرا.

غير أن حديثنا عن العقل بوصفه أساسا قويا يعتمده الحوار ويعود إليه لا ينفي وجود جانب إنساني آخر، لا يقلّ أهمية لأنه يمثّل مكمن التأثر والانفعالات، إنه العاطفة، ونحن لا ننكر مكانتها ولا حقيقة وجود القلب إلى جوار العقل في كيان الإنسان، ولكل منهما دوره وتأثيره الخاص عليه، «ومحصلة الأمر أن الحوار القرآني بما يحويه من جدل وبراهين تحمل الحق واليقين بأسلوب شيّق ممتع مصوّر، يأخذ بمجامع النفس الإدراكية ليمزج في الخطاب بين العقل والعاطفة، فيجمع إلى برد اليقين تفاعل المشاعر والأحاسيس، لتهتزّ النفس وتربو تحت صيّب من نظم الألفاظ القرآنية بما تحمل من انفعالات اليقين والخوف والرجاء والتعجب، فتظهر بإشراق، وتنفث في الحقائق البرهانية العقلية المجرّدة روحا من الجمال والوجدان لتخاطب العقل والقلب معا».[4]

فالقارئ يرى نفسه واحدا من تلك الشخصيات الحوارية، لما في ذلك الحوار من حركة وحيوية وقوة تصوير للمعاني، ودقة تجسيد للحوادث وفنية تمثيل لشخصياتها، والقرآن يقدّم هذا التصوير غالبا بعد إعطاء العقل حقَّه من الاقتناع، ليجمع بذلك بين العقل والعاطفة بصورة منسقة وحكيمة.[5]

---

[1] وردت هذه الكلمة منصوبة بينما هي مرفوعة لأنها وقعت اسما للفعل الناقص "يكنْ".

[2] محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص 62.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 46.

[4] أحمد سليمان البشايرة، مظاهر الإعجاز في الحوار القرآني، ص 166.

[5] ينظر: الحسين جرنو محمود جلو، أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم، رسالة جامعية نال بها درجة الماجستير في التربية بدرجة امتياز، ط 1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دار العلوم الإنسانية، دمشق، سوريا، 1414 هـ/ 1994 م، ص 258.

وليس هذا الاتجاه والتركيز المزدوج على العقل والعاطفة معا إلا لضمان درجة أقوى من التأثير والإقناع وبالتالي الاستجابة. والاقتناع والاستجابة على هذا الأساس يكونان ذاتيين واقعين في نفس الإنسان دون إكراه أو اتّباع طريقة العنف، لأنّ الهدوء يبقى شرطا لأنْ يكون الحوار مثمرا.

لذا فالقرآن الكريم يتحاشى في حواره ونقاشه مع الآخرين سلوك سبيل الإرغام على اتباع ما يقرّره أنه الحق، بل نجده يقف في حواراته عند حدود البيان وإزالة أسباب اللبس التي قد تمزج الحق بالباطل، وقد تخفي معالم الفرق بينهما.[1]

وبهذا يزول اللّبس ويتبيّن الحق ويتجلّى الباطل للأطراف المتحاورة، ويحدث الاقتناع بفضل حوار هادئ وعميق متسلّح بالحجة القوية والدليل القاطع.

[1] محمد سعيد رمضان البوطي، أدب الحوار في كتاب الله عز وجل، ص 12.

الفصل الأول: النص القرآني والمدخل الأسلوبي.

أولا: النص القرآني: إعجازه ومضمونه وخصائص أسلوبه.

1-القرآن الكريم نص معجز.

2-مضمون النص القرآني.

3-نظم وأسلوب النص القرآني.

4-خصائص الأسلوب القرآني.

ثانيا: أسلوبية القصة القرآنية.

1-القصة القرآنية عند القدماء.

2-القصة القرآنية عند المحدثين.

3-أغراض القصة القرآنية وتأثيرها على المتلقي.

أولا: النص القرآني إعجازه ومضمونه وخصائص أسلوبه:

1- القرآن الكريم نص معجز:

خلق الله عباده وكان رحيما بهم، فمنّ عليهم بنِعم لا عدَّ لها، ولعلَّ أعظم نعمة هي نعمة الإسلام، دين الحق الذي جاء به خير الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قائد الأمة وشفيعها، حامل آخر رسالة وأقوى معجزة هي القرآن الكريم، الكتاب المحفوظ من كل تحريف أو تزييف بمشيئة الله تعالى وقدرته، والذي تعلّقت به القلوب وشُدّت إليه العقول على مرّ السنين والقرون، بما فيه من خير وصلاح وسعادة في الدنيا والآخرة، ولِما له من تأثير وسحر وبيان وجمال قولٍ ولفظ ومعنى لم يتحقق في غيره من النصوص، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾. [1]

فالقرآن الكريم «هو كلام الله تعالى المعجز المتعبّد بتلاوته، المنزّل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم باللّغة العربية، المنقول عنه نقلا متواترا، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس. ومعنى أنّ القرآن الكريم معجز أنه لا يستطيع أيّ مخلوق أن يأتي بمثله، والمتعبّد بتلاوته أي أن المسلم يتقرب إلى الله تعالى بتلاوة آياته، ولا تصحّ الصلاة إلا بقراءة ما تيسّر منه، ومعنى أنه منقول نقلا متواترا أي أنّ جمعا من الناس الثقات الذين لا يمكن اجتماعهم على الكذب، نقلوا القرآن الكريم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نقله عنهم جمع كبير مثلهم حتى وصل إلينا». [2]

والقرآن الكريم نص إلهي صادر عن ذات الله تعالى، متفرّد عن كامل صنوف القول البشرية، منزّه عن الخطإ، سليم من كل تحريف أو تزييف أو تدخّل للإنسان فيه بما يشوهه أو ينقص قيمته ومصداقيته، وكان القرآن الكريم «سبب قوة اللغة العربية ورقيها». [3]

وقد اختار الله تعالى اللغة العربية لينزل بها نصّه المعجز المتعالي على كل نص، ولم يكن هذا الاختيار صدفة أو عشوائيا وإنّما عن قصد، لما يمتاز به اللسان العربي من بيان وفصاحة اللفظ، وبلاغة المعنى وجاذبية التركيب، وملاءمة إيقاع الصوت لمعناه.

ومنه فإن «التّعبير القرآني تعبير فنّي مقصود، كلّ لفظة بل كلّ حرف فيه وُضع وضعا فنيا مقصوداً، ولم تراعَ في هذا الوضع الآيةُ وحدها ولا السّورة وحدها بل روعي في هذا التعبير القرآني كلُّه». [4]

---

[1] سورة الحجر، الآية: 9.

[2] خميس كمال الجزرة، محمد وليد حرز الله، نفحات في إعجاز القرآن الكريم البياني، ط1، دار غيدا للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1431 هـ / 2011 م، ص 21.

[3] بن عبد الله واسيني، محاضرات في علوم القرآن، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، السنة الجامعية: 2019/ 2020، ص 13.

[4] فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني، ط4، دار عمار، عمان، الأردن، 1427هـ/ 2006م، ص 10.

فكانت هذه «اللغة الشاعرة بحروفها ومفرداتها وإعرابها، هي أوفر لغات الأرض حظا لينزل بها هذا الكتاب الخالد، والذي أراد الله سبحانه أن يفوق بإعجازه الشعر في وجازته وتأثيره، وفي لحنه وموسيقاه».[1]

فعلى الرغم من ملامسة النص القرآني خصائصَ الشعر إلا أنه ليس بشعر، ومع انتفاء كونه شعرا لا يمكن القول إنه نثر، بل هو نص فريد من نوعه متميز عن غيره من النصوص الشعرية والنثرية لا مجال لمقارنته بها أو مجاراتها له، «فتوجهت أنظار أدباء العرب وشعرائهم إلى هذه اللغة المختارة مبهورين بفصاحتها وبلاغتها وجمالها، وأخذ الإعجابُ بها منهم كلَّ مأخذ، وجعلوا يَرِدون موردها، وينهلون من مَعينها حتى عمّت هذه اللغة القبائل، ونطق بها القاصي والداني، وجرت على كل لسان، وأصبحت بمثابة اللغة الرسمية للعرب قاطبة».[2]

وبهذا مثّلت اللغة العربية أعلى مراتب القوة التعبيرية والكفاءة البلاغية، وشكلت قمة الفصاحة والدقة والتناسق، بما يجعل لها المعايير التي أوقعت عليها اختيار الله تعالى من بين لغات البشر جميعا لينزل بها القرآن الكريم الذي حقّق الإعجاز بكل مستوياته وجوانبه.

نعم، كان القرآن الكريم معجزة الله التي أيّد بها رسوله الصادق الأمين محمداً صلى الله عليه وسلم، فعلى الرغم من أنّ العرب كانوا أصحاب فصاحة وبلاغة، وكانوا أمّة شاعرة عارفة بأساليب العربية وافتنانها، متمرسة في فنون قولها وخاصة الشعر، إلاّ أن القرآن لما نزل «أدهش العرب لمّا سمعوه، وحيّر ألبابهم وعقولهم بسحر بيانه وروعة معانيه ودقة ائتلاف ألفاظه ومبانيه، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر».[3]

لقد بيّن النص القرآني امتلاكه زمامَ اللغة والوحدة العربية التي كانت معقودة بالألسنة يومئذ، وهو لمّا امتلكها استطاع أن يصرفها وأن يحدث منها، فهي بصبغتها العقلية ومعناها النفسي، وهو لا يمكن أن يتمكّن من هذه الوحدة أو يهيمن عليها ويبرع فيها إلاّ إذا كان أقرب منها فيما يحقّق لها قوتها، فها هنا يشعر أهلها بالعجز والضعف والاضطراب بما لا يدع لهم مجالا للشك في حقيقة عجزهم وقصورهم.[4]

فإذا كانوا أقوياء بلغتهم فإن لغة القرآن أقوى، وإذا كانوا بارعين في سبك مفرداتها وإحكام تراكيبها، فمفردات القرآن أكثر تناسقا وتراكيبه أجود وأمتن نظما، وإذا كانت الألفاظ فصيحة والمعاني بليغة فقد جاء

---

[1] عدنان محمد زرزور، علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه، ط1، دار الأعلام، عمان، الأردن، 1426 هـ/ 2005م، ص19.

[2] محمد رواس قلعه جي، لغة القرآن، لغة العرب المختارة، دار النفائس، ص66.

[3] الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق أحمد صقر، ط 3، دار المعارف، مصر، القاهرة، ص 6. (مقدمة المحقق).

[4] ينظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، راجعه واعتنى به: درويش الجودي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت لبنان، 1424 هـ/ 2003 م، ص 139.

القرآن أفصح وأبلغ، وإذا كانت صورهم جميلة متخيّلة، فصور القرآن أجمل، تنقل الواقع متخيّلا أو الغيب واقعا، بأساليب بديعة وإيقاعات رنّانة، ومنه فإنّ الخطاب القرآني «خطاب فريد يقوم على غير المألوف، خرق أفق التوقع لأصحاب البلاغة».[1]

من هنا نخرج إلى قضية إعجاز القرآن الكريم التي احتلّت مساحة واسعة ونالت حظا وافرا من الدراسات القرآنية، وكان نشاط الحديث فيها في الغالب عن أوجهِ إعجاز القرآن الكريم ومسألةِ المعارضة والتحدّي التي كانت بين الكفّار والله سبحانه وتعالى على لسان سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم موحى إليه بوساطة الملك جبريل عليه السلام.

فإعجاز القرآن الكريم هو «إثبات عجز الخلق عن الإتيان بما تحدّاهم به، ولكن هذا ليس مقصودا لذاته، بل المقصود لازمه وهو إظهار أنّ هذا القرآن حقّ، وأنّ الرسول رسول صدق».[2]

فإثبات الإعجاز للقرآن الكريم يقابله إثبات عجز المتحدّين من الكفّار، ولكن ليس هذا التحدي للمتعة أو المنافسة وإنما لدفع شبهة تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، ووصف القرآن الكريم بأوصاف ليست منه في شيء، فقد دفعتهم حيرتهم إلى وصفه بالشعر والسحر والكهانة مع أنهم كانوا على يقين من أنه ليس كذلك، وأنه مختلف تماما عمّا عرفوه من أساليب البشر.[3]

والإعجاز يتحقق للقرآن الكريم من «عدم قدرة الكافرين على معارضته، وقصورهم عن الإتيان بمثله رغم توفّر ملَكتهم البيانية، وقيام الدّاعي على ذلك وهو استمرار تحدّيهم وتقرير عجزهم عن ذلك».[4]

فمعارضة الكفّار للقرآن الكريم فشلت منذ بدايتها وأجهضت محاولاتهم الأولى، لكنهم أصرّوا وأخذهم الكبر دون أن يعترفوا بهزيمتهم، فتوالت هزائمهم اللّغوية والبيانية، وعلا شأن القرآن الكريم أكثر، وطغى سحره على النّفوس، وزاد انجذاب النّاس إليه لما وجدوه فيه من سلاسة وجمال عفوي لا تكلّف فيه، لكنّه مدروس ولا شك من طرف الله سبحانه وتعالى.

وقد أثبت القرآن الكريم لهذه المعارضة عدة مراحل متدرّجة يمكن إيجازها فيما يلي:[5]

---

[1] لعويجي أحمد، بلاغة جمهور الخطاب الديني على وسائل التواصل الاجتماعي، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، العدد: 06، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2019، ص 60.

[2] سامح على ناصر الناخبي، إتحاف الخلان بفوائد من علوم القرآن، التدقيق اللغوي: شروق محمد سلمان، ط1، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي، الإمارات العربية المتحدة، 2009 م، ص279.

[3] ينظر: عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص 52.

[4] صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ط1، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2000 م، ص17.

[5] ينظر: فضل حسن عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ط1، دار الفرقان، عمان، الأردن، 1997 م، ج1، ص111.

أوّلا: تحدّى الله سبحانه وتعالى المشركين أن يأتوا بمثل القرآن من غير تعيين قدر، أي مثله مجتمعا، قال الله تعالى:﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.[1]

ثانيا: لما عجزوا عن الإتيان بمثله أرخى لهم القرآن العنان، وتحدّاهم بالإتيان بعشر سور مثل سوره، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾.[2]

ثالثا: فلما عجزوا ولم يستطيعوا ولم يقووا على مجاراة القرآن خفّف الله تعالى عنهم، وطلب منهم الإتيان بسورة واحدة، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.[3]

رابعا: عجز العرب المشركون عن الإتيان بسورة واحدة، فتحداهم القرآن الكريم للمرة الأخيرة، قال الله تعالى:﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾.[4]

ومثلما ثبت في القرآن الكريم تدرّج الله سبحانه وتعالى في تحدّيه للكافرين، وفي المقابل عدم قدرتهم على مجاراته ولا الإتيان بمثله، ثبت كذلك الجزم بعجزهم التام وانهيارهم الكلّي أمام فصاحة وبلاغة وسحر وبيان هذا النص المعجز، وهم أهل فصاحة وبلاغة وسحر وبيان، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.[5]

ويمكن دراسة هذه المراحل واستنتاج بعض النقاط المتعلقة بمسألة التحدّي، نجملها فيما يلي:[6]

1- إنّ هذه المراحل كلّها جاءت تعلن التحدّي بكل قوة وثقة.

2- إن المراحل الثلاث الأولى كلها مكّية التّنزل.

3- إن مراحل التحدي هذه خوطب بها العرب لأنهم هو المتحدّون.

---

[1] سورة الطور، الآيتان: 33، 34.

[2] سورة هود، الآية: 13.

[3] سورة يونس، الآية: 38.

[4] سورة البقرة، الآية: 23.

[5] سورة الإسراء، الآية: 88.

[6] ينظر: عثمان فوزي علي، مباحث في الإعجاز القرآني، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2014 م/ 1435هـ، ص 51.

غير أنّ الله سبحانه وتعالى في المرحلة الرابعة توجّه بخطابه إلى الناس جميعا عربا وعجما، «وإذا كانت المراحل الثلاث الأولى خالية من كلمة "مِن" فلقد جاءت المرحلة الرابعة مشتملة على هذا الحرف الدال على التبعيض، ومعنى هذا أن المرحلة الأخيرة كان التحدّي فيها للناس جميعا، ولا يعقل أن يتحدّى الناس جميعا بالبيان وحده، إنما هو تحدّ عام عموم المخاطبين به».[1]

وقد كان الله تعالى عادلاً في تحديه للكفار والمكذّبين، ذلك أنه طالبهم بما لهم به علم وهو الجانب البياني؛ أي اللّغة والألفاظ والأساليب، وأراد جلّ وعلا أن يثبت عجزهم عمّا يعلمون وليس العكس، فلو طالبهم مثلا بالإتيان بأخبار غيبية لكان عجزهم أكيدا قبل مخاطبتهم أساسا، ولكنّ المعارضة حصلت في وجه أو جانب برعوا فيه أيّما براعة، فهم الذين عُرفوا بفصاحتهم وبلاغتهم، «حيث أن التحدي كما لا يخفى مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف، ولا تصح المطالبة بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوما للمطالَب، ويبطل بذلك دعوى الإعجاز أيضا، وذلك لأنه لا يُتصوَّر أن يقال: إنّه كان عجزا، حتى يثبت معجوز عنه معلوم، فلا يقوم في عقل عاقل أن يقول لخصم: قد أُعجزك أن تفعل مثل فعلي، وهو لا يشير له إلى وصف يعلمه في فعله ويراه قد وقع عليه».[2]

وقد تحدثّ الباقلاني في هذا الموضوع مفصّلا المقصود من التحدّي، وهو نظم الكلمات وإنشاء الأساليب على منوال ما جاء في القرآن الكريم، بوصفه كلاما مؤلّفا من حروف وكلمات تأليفا متميزا ومختلفا، «وقيل الذي تحدّاهم به: أن يأتوا بمثل الحروف التي هي نظم القرآن منظومة كنظمها، متتابعة كتتابعها، مطردة كاطّرادها، ولم يتحدّهم إلى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذي لا مثل له».[3]

وهذا يكفي للإجابة على التساؤل الذي طرحه عبد القاهر الجرجاني: «أيجوز أن يكون تعالى قد أمر نبيّه صلى الله عليه وسلم بأن يتحدّى العرب إلى أن يعارضوا القرآن بمثله، من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذي إذا أتوا بكلام على ذلك الوصف كانوا قد أتوا بمثله؟».[4]

فلما ثبت إعجاز القرآن الكريم ومنه عجز الكفار والمنكرين، ثبت معه أنه نص إلهي، وأنه كلام الله تعالى؛ تنزيل حكيم سليم لا تشوبه شائبة ولا تعتوره نقيصة، قال الله تعالى:

---

[1] فضل حسن عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ص ص 111، 112.

[2] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، ط 5، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 2004 م، ص ص 385، 386.

[3] الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 260.

[4] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 385.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾، [1] لا يشبهه كلام أيّ بشر، ولا يقوى على الصّمود أمامه أئمة الفصاحة وجهابذة البيان. فما هي أهم مواطن وأوجه إعجاز النص القرآني؟

أول وجه أشرنا إليه ونحن نتحدث عن مسألة المعارضة هو الوجه البياني أو الإعجاز البياني للقرآن الكريم، ويشمل جوانب اللغة والأسلوب وكلّ ما يحيط بهما من بيان وفصاحة وبلاغة، عُرف بها العرب آنذاك، فقد نزل القرآن بلغتهم في عصر شهدت عزّ أصالتها ونقائها، حيث لم تشبها شائبة من عجمة، ولم تختلط بغيرها من الألسن.[2]

ولعلّه من الصّعب الإحاطة بأوجه إعجاز القرآن كلّها، لأنّه كلّ مُتكامل معجز بما فيه جميعا، وبالتالي تكون وجوه الإعجاز كثيرة ومتعدّدة، لكنّ القائلين بهذا التعدّد مجمعون على أنّ أعظمها وأهمّها وأعمّها هو الإعجاز البياني، لأنه موجود في كل آية من آيات القرآن الكريم، ومع هذا يمكن ذكر أهم الوجوه والجوانب الإعجازية في النص القرآني كالإعجاز العلمي، والإعجاز الغيبي والإعجاز التشريعي، والإعجاز العددي والإعجاز النفسي...إلخ.[3]

فأوجه الإعجاز كثيرة ومتعدّدة، وجوانبه متّسعة اتّساع النص القرآني نفسه لكلّ مظاهر الجمال والتكامل اللغوي والأسلوبي والموضوعي والروحي والنفسي والأخلاقي... فبُندار الفارسي لمّا سئل عن موضوع الإعجاز من القرآن قال: «هذه مسألة فيها حيف على المفتي، وذلك أنه شبيه بقولكم موضع الإنسان من الإنسان، فليس للإنسان موضع من الإنسان، بل متى أشرت إلى جملته فقدت حقيقته ودللت على ذاته، كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شيء منه إلاّ وكان ذلك المعنى آية في نفسه ومعجزةً لمُحاوِله، وأهدى لقائله، وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كتابه، فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده، فإذا علمت عجز الخلق عن تحصيل وجوه إعجازه فما فائدة ذكرها؟».[4]

هو إذاً معجز بكلّ ما فيه بحروفه وألفاظه ومعانيه وأساليبه وطرائق نظمه، وتنوّع مضامينه واشتماله على أخبار السابقين من الأمم الغابرة وفوائدها والعبرة منها... إلخ.

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾.[5]

---

[1] سورة الحجر، الآية: 9.

[2] عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص70.

[3] ينظر: خميس كمال الجزرة، محمد وليد حرز الله، نفحات في إعجاز القرآن الكريم البياني، ص ص 26، 27.

[4] جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه وصححه وكتب فهارسه: أحمد شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1988 م/ 1408هـ، المجلد 1، ص ص 10، 11.

[5] سورة النحل، الآية: 89.

وقال تعالى أيضا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾.[1]

فالأديبُ يراه معجزًا، وكذلك شأن أرباب القانون والتشريع، وعلماء الاقتصاد والمربّون وعلماء النفس وعلماء الاجتماع والمصلحون وكل عالم في مجال من مجالات العلم يراه معجزًا.[2]

فمعجزة القرآن الكريم «أكمل المعجزات التي أيّد الله تعالى بها رسله عليهم السلام، كونها مصدّقةً لمنهج أنزله الله تعالى للبشرية جمعاء إلى قيام الساعة، وكونها آخر معجزات الله تعالى المصدّقة لمناهجه التي ينزلها للبشر، وكونها ملتحمة بالمنهج الذي تصدّقه، فتدرّج الرسالات السماوية أحاطت به حكمة الله تعالى وعلمه حتى وصل ذروته في الرسالة الخاتمة التي نزّلها الله تعالى على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم».[3]

والرسالة المحمدية هي الرسالة الخالدة الصامدة لقرون وقرون وإلى نهاية الأرض والحياة عليها وقيام الساعة، فمعجزة القرآن الكريم باقية لبقاء أثرها العظيم على البشرية كلّها، وهي معجزة معنوية فكرية إنسانية تمس كل جوانب الإنسان، وتضمن سعادته في الدنيا والآخرة، بينما «معجزات الرسل السابقين الدالة على صحّة رسالتهم الإلهية وصدقها، كانت أشياء مادية محسوسة خارقة للعادة، يدركها نفر من الناس عاشوا أحداثها رؤية مباشرة ثم تنقضي مع زمانها».[4]

أما القرآن الكريم فهو نص صالح لكل زمان ومكان، معجز في ذاته ويحمل في طياته رسالة فيها خير لا ينقطع للناس أجمعين، ومعجز بما يحتويه من مواعظَ وسحر وتأثير بكلّ ما جاء فيه، قال الله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١﴾.[5]

---

[1] سورة البقرة، الآية: 2.

[2] ينظر: فاضل صالح السمرائي، التعبير القرآني، ص 20.

[3] عدنان الرفاعي، المعجزة الكبرى، معجزة إحدى الكبر، ط1، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2006م، ص18.

[4] عبد الحميد محمد الهاشمي، لمحات نفسية في القرآن الكريم، مكتبة رحاب، الجزائر، ص 21.

[5] سورة العنكبوت، الآيتان: 50، 51.

فماذا يزيد الله تعالى من معجزات وآيات على معجزةٍ كالقرآن الكريم؟؟ الموجّه للناس كافة، فلا يزال معهم آية لا تزول ولا تضمحل كبقية الآيات، وفيها من الرحمة والنعمة ما يوجب الشكر، كما أنها تذكرة للمؤمنين.[1]

ولعلم الله سبحانه وتعالى بتكذيب أقوام الأنبياء والرسل لهم ولرسالاتهم، كان لا بدّ من تأييدهم بمعجزات وآيات تحبط أولئك المكذّبين، وتدفع أذاهم عمّن أرسلهم الله لهدايتهم وإرشادهم وإبانة سبيل الحق ودحض الباطل «وفي حين أن المعجزات السابقة كونية ساحاتها عالم الحس، وتحدث مرة واحدة أو مرات محدودة على أيدي الرسل فقط، وتنتمي إلى عالم الخلق، ولا يشاهدها إلا من كان موجودا حين وقوعها... فإن معجزة القرآن الكريم تتعلق بصفات الله تعالى، ومستمرة في كل زمان ومكان... فعند الرسالة الخاتمة تم تحوّلٌ في ماهية المعجزات التي يؤيّد الله تعالى بها رسله، وذلك بالانتقال من ساحة معجزات عالم الخلق قبل الرسالة الخاتمة حيث كذّب بها الأوّلون، إلى معجزة تنتمي إلى عالم الأمر صالحة لكل زمان ومكان تكفي عن كل المعجزات التي يطلبها البشر».[2]

هذا الإعجاز الإلهي هو ما حقق للقرآن الحياة والخلود والاستمرار، وكذا الحفظ في الصدور جيلا بعد جيل، والتدبر بالعقول واستخراج كنوز مواعظه وإرشاداته التي تهدي إلى كل خير وصلاح، «وتظهر هذه الهداية في أحكام القرآن وقيمه الخُلقية وقواعده التربوية ونُظُمه التشريعية».[3]

نعم، لم يترك الله سبحانه وتعالى صغيرة ولا كبيرة إلا وتحدّث عنها، وجعلها من محاور محكم تنزيله "القرآن الكريم"، فتحدّث عن الإنسان ودستور حياته وسعادته وطريقه إلى الآخرة، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾.[4]

لم يغفل ماضيا أو مستقبلا، ولا غيبا أو حاضرا، هو الكتاب ذو المنهج الكامل المتكامل، جعله الله تعالى من حظ المسلمين، ونزّله بلسان مبين نالت منه اللغة العربية كامل حظها ونصيبها، فليس لها إلا أن ترقى بين اللغات وما ينبغي لها غير ذلك.

---

[1] ينظر: الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيحا، ط 3، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1430 هـ/ 2009 م، ص 821.

[2] عدنان الرفاعي، المعجزة الكبرى، معجزة إحدى الكبر، ص 24.

[3] فضل حسن عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 130.

[4] سورة الإسراء، الآية: 9.

2- مضمون النص القرآني:

أنزل الله تعالى القرآن الكريم على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم، وآثر أن يكون نزوله مفرّقا أو منجما على فترات زمنية مختلفة، امتدت على طول ثلاث وعشرين سنة ليكتمل قبل وفاته في مائة وأربع عشرة سورة، ولابدّ أنّ في هذا حكمةً يعلمها الله سبحانه وتعالى، فيها فائدة للمسلمين ورسولهم الكريم صلوات الله عليه وسلامه، فبنزوله مفرّقا حقق الله التدرج في تربية الناس ومحو عقائد الشرك ومفاسده من النفوس بما يتناسب مع وقوع الحوادث وتجددّ الحاجات، كما أنّ الله سبحانه وتعالى مكّن الرسول صلى الله عليه وسلم من قراءة القرآن الكريم على الناس على فترات، ليسهل عليهم فهمه وحفظه وكذا تدوينه، قال الله تعالى﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.[1] كما أن من حكمة الله تعالى من تنزيل القرآن منجما تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم وطمأنة قلبه باستمرار نزول الوحي عليه، فيستمر في دعوته ويطمئنّ إلى أن الله دائما معه يرافقه ويعينه وينصره،[2] وفي هذا قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.[3]

وقد سبق الحديث عن إعجاز القرآن الكريم، هذا النص المعجز بكل ما فيه من الصوت إلى الكلمة إلى الجملة إلى السورة إلى المعاني والدلالات، إنه نص متكامل تجتمع فيه كل الجوانب الشكلية والمضمونية مبنى ومعنى، فمن علامات وأوجه إعجازه هذا التكامل في حديثه عن كل شيء، فهو يتعرض لجميع الجوانب الإنسانية والحياتية والتشريعية والإيمانية والإرشادية، دون إهمال أو تقصير، سبحانه تنزه عن كل نقيصة، «فالصيغة الإجمالية الكلية التي يظهر فيها النص القرآني في صوغ مبادئه ومعظم أحكامه، وكذلك في نمط خطابه جعلته يبدو بمنزلة كتاب "هداية" و"كتاب بشرى" و"كتاب رحمة للمؤمنين"، وليس من حيث هو كتاب قانوني تعليمي يحتوي على كل صغيرة وكبيرة».[4]

فالظروف والتحّديات التي واجهت النص القرآني آنذاك، وكونه آخر ما نزل من وحي الله سبحانه وتعالى لتربية الناس كافة، وحكمة الله عزّ وجل قبل هذا وذاك جعلته سبحانه وتعالى يرصد في كتابه العزيز كل شيء يتعلق بالإنسان في دنياه وفي آخرته، حتى إننا لو وقفنا نعدّد ما جاء في القرآن من مضامين وموضوعات لن نستوفيها جميعا، أو سيطول بنا الوقوف، «وها هنا يصير الكلّ شيء الذي أُنزل

---

[1] سورة الإسراء، الآية: 106.

[2] ينظر: خميس كمال الجزرة، محمد وليد حرز الله، نفحات في إعجاز القرآن الكريم البياني، ص 23.

[3] سورة الفرقان، الآية: 32.

[4] طيب تيزيني، النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1997م، ج 5، ص 184.

القرآن لتبيانه هو الكلّ شيء الديني الدنيوي أو الحسّي المعنوي».[1] وملخص كلّ هذا يأتي في الآية الكريمة التي يقول فيها جلّ شأنه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.[2]

ولعّل من طرائق وأساليب التبيان التي اتبعها النص القرآني: التمثيل أو ضرب الأمثال لأخذ العبرة، والأهم من هذا أنه قرآن لا خطأ فيه ولا تحريف ولا انحراف عن جادة الصواب أو عن الصراط المستقيم، فكل ما جاء فيه صحيح ثابت أراد به الله تعالى الفلاح لعباده في الدنيا والآخرة، قال جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾[3]

هذا القرآن العربي الفصيح المعجز، الذي نتحدث عن مضمونه ولا يمكن فصله عن لفظه، وهذان معا لا يمكن سحبهما من دائرة الإعجاز القرآني، لأنّ الدارسين قديما وحديثا «لم يستطيعوا فصل الأحكام والقيم والمثل القرآنية عن النظم البليغ المعجز الذي صيغت به».[4] وهذا في حدّ ذاته يمثل وجها من أوجه التكامل في النص القرآني، بحيث لا فصل لمحتواه عن جماليات التعبير فيه.

إنّ حديثنا عن مضمون النص القرآني أو تركيبه يقتضي محاولة الإلمام بكل جوانبه، وهذا يأخذنا إلى تفاصيل وتشعبات نحن في غنى عنها، لذا سنكتفي بالمهم والمفيد، ولعلّ أهم ما نجده في هذا السياق: مسألة تقسيم القرآن الكريم إلى مكي ومدني، وينجرّ عنه تقسيم الموضوعات تبعا لهذا التقسيم أو التصنيف الذي يعدّ علما قائما بنفسه.

والمقصود بالمكّي والمدني «علم يبحث منازل القرآن المكي والمدني، وكلّ ما يتعلق بذلك من ملابسات وأحوال».[5]

وقد أورد السيوطي في كتابه: الإتقان في علوم القرآن ثلاثة آراء حول مصطلحي المكي والمدني مستندا في ذلك إلى ثلاثة معايير هي: معيار الزمان، معيار المكان ومعيار المخاطَب وهي باختصار

---

[1] عباس أمير، الإعجاز القرآني، التبيان التكوّن القراءة، مدخل لنظرية معرفية في نشوء الكون ونظام الكائنات، الكتاب الأول، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص 24.

[2] سورة النحل، الآية: 89.

[3] سورة الزمر 27.28

[4] عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن، ص 79.

[5] عبد الرزاق حسين أحمد، المكي والمدني في القرآن الكريم، دراسة تأصيلية نقدية للسور والآيات من أول القرآن الكريم إلى نهاية سورة الإسراء، ط 1، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1999م /1420هـ، المجلد الأول، ص 41.

كالآتي:[1]

أولا: أن المكيّ ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها، سواء أ نزل بمكة أم بالمدينة، عام الفتح أم عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار.

ثانيا: أن المكيّ ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة وعلى هذا تثبت الواسطة، فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكيّ ولا مدنيّ.

ثالثا: أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة.

فالرأي الأول وهو الأشهر والأرجح يحتكم إلى معيار الزمان أي وقت نزول الوحي قبل الهجرة أو بعدها، والثاني يستند إلى المكان: مكّة والمدينة، ومنه نسبة القرآن إلى مكان نزوله فالمكي نزل بمكة والمدني بالمدينة، أما الرأي الأخير «فيقوم على أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكّة والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة، وحملوا عليه قول من قال: إن ما صُدّر في القرآن بلفظ يا أيها الذين آمنوا فهو مدني وما صُدّر بيا أيها الناس فهو مكي، لأن الغالب على أهل مكة الكفر... وكان الغالب على أهل المدينة الإيمان».[2]

وقد اهتم العلماء والدارسون بمسألة المكي والمدني لما لها من أهمية بالغة في دراسة القرآن نفسه، وتحديد موضوعاته وما ركّز عليه الله سبحانه وتعالى في كل قسم من هذين القسمين: المكي والمدني.

فعلى الدارس وكل مسلم أن يعرف المكي والمدني «ليفرّق بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام وما ندبهم إليه في آخره، وما افترض الله في أوّل الإسلام وما زاد عليه من الفرائض في آخره، فالمدني هو الناسخ للمكي في أكثر القرآن».[3]

عموما وباختصار يمكن تلخيص موضوعات القرآن المكي في العقيدة، بينما تتلخص موضوعات المدني في الشريعة، ذلك أن الإسلام والقرآن عقيدة ونظام، وتشريع وأحكام.[4]

وإذا شئنا التفصيل أكثر وحصر موضوعات القرآن الكريم بشكل عام دون النظر إلى كونه مكّيا أو مدنيا، نجد أن الله سبحانه وتعالى قد ركّز على عدّة محاور رئيسة أهمها:[5]

---

[1] ينظر: جلال الدين السيوطى، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، من إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، المجلد الأول، ص 23.

[2] عدنان محمد زرزور، علوم القرآن وإعجازه، ص 213.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من آي الفرقان، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط 1، مؤسسة الرسالة، 1427 هـ/ 2006 م، ج 1، ص ص 38، 39.

[4] عدنان محمد زرزور، علوم القرآن وإعجازه، ص 215.

[5] عبد الحميد محمد الهاشمي، لمحات نفسية في القرآن الكريم، ص 20،21.

1- الدعوة القوية والمتجّددة للعقيدة الإسلامية، إيمانا بالله ورسله ورسوله الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، وبقية أركان العقيدة أي الإيمان بالملائكة والكتب واليوم الآخر والبعث وما فيه.

2- العبادات باعتبارها مظهرا رئيسا للإيمان، وتتصل مباشرة بالله تعالى مع ما لها من انعكاسات على سلوك الفرد والجماعة.

3- تنظيمات تشريعية لحياة المسلم في مختلف جوانب الحياة، كالبيع والتجارة والميراث والزواج والحدود مما يضمن تنظيم المعاملات والعلاقات بين الناس.

4- قيم أخلاقية ومبادئ سلوكية في حياة الإنسان، مثل الدعوة إلى الإحسان والصبر والرحمة واللين وكظم الغيظ والعفو عن الناس...

5- قصص ومواقف نفسية تربوية لتكون موعظة وعبرة من حياة الأمم السابقة، ودرسا مفاده أن الكفر لا ينفع صاحبه لا في الدنيا ولا في الآخرة.

6- توجيه الإنسان إلى النظر في الكون وما يحتويه وما فيه من مسخرات، وإلى النفس وما فيها من طاقات وصفات، مما يدلّ على قدرة الله تعالى في خلقه، واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له.

وهذه النقطة الأخيرة تكشف لنا الكثير من الجوانب العلمية المثبتة في النص القرآني والتي تشكل وجها من أوجه إعجازه.

وبشيء من التفصيل في مضامين القرآن من ناحية التشريعات سنجد لها عدة جوانب كالعبادات والمعاملات والأحوال الشخصية وكذلك التشريعات المتعلقة بالعقوبات.[1]

على أن الله سبحانه وتعالى لم يهمل جانبا من جوانب الحياة، ولم يترك شيئا من دعائم الخير والسعادة إلا وذكره في كتابه العزيز، اجتماعيا كان أم دينيا أم اقتصاديا أم روحيا وأخلاقيا «ونحن لا نشك في أنّ خلاصة الفضائل الإنسانية، أو مكارم الأخلاق التي جاء بها القرآن الكريم بوصفه كتاب الإنسانية الأخير الذي نزل به الوحي الأمين تمثل منها عند العرب في جزيرتهم فطرة واستعدادا، ما لم تملك مثلَه أمّةٌ من الأمم أو شعب من الشعوب أو قبيلة من القبائل».[2]

كما أن شمولية وسعة الأحكام التشريعية التي وردت في القرآن الكريم دليل قاطع على أنها من عند الله سبحانه وتعالى، فلا يمكن لعقل بشريّ أن يستوعب أو يؤسّس تشريعات وقوانين بتلك الدقة والصلاحية والمصداقية التي جاء بها النص القرآني، ونذكر منها أحكام الميراث أو عدّة الطلاق مثلا، كل شيء وردت فيه إحاطة منقطعة النظير، «والإحاطة بالكلّ إحاطة بالجزء، ولهذا فإن ثبوته لا يعني موته وهلاكه

[1] فضل حسن عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ص 135.

[2] عدنان محمد زرزور، علوم القرآن وإعجازه، ص 22.

بل دوامه وتجدّده من حيث هو الثابت الكائن في صلب الحركة، ولهذا لا بدّ من البدء منه والاهتداء به والعود إليه، فإنه صالح لكل مكان وزمان».[1]

وهكذا يتنوع مضمون النص القرآني، وتتعدّد مركّباته التي تدلّ في حدّ ذاتها على إعجازه، ومن أهم ما ورد فيه وتناوَله الله سبحانه وتعالى بإتقان وصدق عاليين، أنباء الغيب أو الغيبيات «وهي الأخبار التي أوردها القرآن، والمعلومات التي قدّمها والتي تتعلق بأحداث ماضية أو عوالم ومخلوقات غائبة غير منظورة، أو أمور ستحدث فيما بعد، وهذه الأنباء تدل على أن القرآن كلام الله وليس كلام محمد صلى الله عليه وسلم ولا كلام أي مخلوق آخر».[2]

ولا شك في أن هذه الأخبار صادقة لأنها صادرة عن الله سبحانه وتعالى، وكلّ ما جاء في القرآن الكريم صادق ويدلّ على الحقيقة المطلقة، كذلك الأحداث الغيبية وقعت حقا أو هي واقعة أو ستقع وعلمها عند الله وحده، فهو عالم الغيب والشهادة.

فأخبار الماضين من الأمم وقصصهم، وقصص الأنبياء عليهم السلام، ليس لها مصدر إلا الوحي سواء أكانت في سورة أو سور قرآنية أم في حديث نبوي شريف،[3] قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.[4]

وظاهرة الوحي نفسها تعدّ معجزة ودليلا على أن هذا القرآن يصل الرسول صلى الله عليه وسلم بوساطة بينه وبين الله سبحانه وتعالى، ليتحوّل بعد ذلك عليه الصلاة والسلام إلى واسطة بين الله جلّ وعلا وعبادِه، فظاهرة الوحي تمثل مبدأ اتصال عالم الغيب بعالم الشهادة –بحسب المصطلح القرآني عن الطبيعة وما وراء الطبيعة–كما يمثل الوحي مصدر المعرفة الإنسانية عن عالم الغيب، في حين يشكّل العقل والحواس مصدر هذه المعرفة عن عالم الشهادة، مع العلم أن الإيمان بعالم الغيب ليس خارجا عن نطاق القدرة العقلية.[5]

وقد اشتمل القرآن الكريم على الكثير من أخبار الغيب، وما كان من المسلمين إلا أن يصدّقوها، ما داموا صدّقوا رسالة الإسلام وما جاء في القرآن على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

---

[1] عباس أمير، الإعجاز القرآني، التبيان التكون القراءة، مدخل لنظرية معرفية في نشوء الكون ونظام الكائنات، ص 27.

[2] صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ومصدره الرباني، ص 357.

[3] ينظر: عبده زايد، من أسرار النظم في القصص النبوي، دار الصابوني، دار الهداية، 1992، ص 46.

[4] سورة النجم، الآيتان: 3،4.

[5] ينظر: عدنان محمد زرزور، علوم القرآن وإعجازه، ص 72.

فنجد في تلك الغيبيات عبرًا ومواعظ، ودروسًا، وكذا أحداثا تاريخية حقيقية، ومع هذا يمكن تصنيف أنباء الغيب إلى ثلاثة أصناف هي كما يلي:[1]

أ. **غيب الماضي:** ويقصد به إنباء القرآن الكريم عن الماضي وقصص السابقين، مع إيراد معلومات وروايات وتفصيلات تتعلق بهم، وهناك من يسمي هذا النوع من الغيب: الغيب التاريخي أو الإعجاز التاريخي.

ب.غيب الحاضر: ويقصد به أنباء القرآن الكريم عن الموجودات الحاضرة التي لا يراها الإنسان، وبيان تفصيلات متعلقة بحياتها، مثل الملائكة والجن والشيطان، كما يشمل هذا النوع من الغيب صفات الله سبحانه وتعالى، وكشف مؤامرات الكفّار والمنافقين قبل تنفيذهم لها.

ج. غيب المستقبل: هو ما تخبر فيه الآيات القرآنية عن أحداث وأشياء ستحدث في المستقبل، ومن أمثلة هذا اللّون من الغيبيات حديث الله سبحانه وتعالى عن علامات الساعة الصغرى والكبرى، ومشاهد يوم القيامة... إلخ.

ولعّل الدارس وهو يقف عند هذه النقطة: الحديث عن الغيب في النص القرآني، يجد تقاطعا بيّنا واشتراكا واضحًا في المضمون بينه وبين مكوّن آخر من أهم مكونات ومركبات النص القرآني وهو القصة أو القصص القرآني، قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾.[2] وقال أيضا: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾.[3]

فما ورد في قصص القرآن الكريم صادق حادث حقًا ولا مجال لتكذيبه، وهو أحسن القول في مجال القصة، «وبهذا ترى أن القرآن الكريم أطلق لفظ القصص على ما حدث من أخبار الأمم السابقة والقرون الأولى في مجالات الرسالات السماوية، وما كان يقع في محيطها من صراع بين الخير والشر والحق والباطل».[4]

ومن أمثلة ذلك قصص الأنبياء: آدم وإبراهيم وموسى وعيسى ويوسف وصالح وداود وسليمان، وقصص لعباد صالحين كقصة ذي القرنين وقصة أهل الكهف ولقمان.

---

[1] ينظر: خميس كمال الجزرة، محمد وليد حرز الله، نفحات في إعجاز القرآن الكريم البياني، ص ص29، 30.

[2] سورة يوسف، الآية: 3.

[3] سورة آل عمران، الآية: 62.

[4] عثمان فوزي علي، مباحث في الإعجاز القرآني، ص 179.

وبهذا نلمس بوضوح ونلاحظ بجلاء أن القصة في القرآن الكريم قد أخذت حيزًا كبيرًا وبلغت مكانة عالية من الرقي إلى درجة أنه لا يمكن مباراتها أو منافستها.[1]

واعتمادها بكثرة في القرآن الكريم دليل على أهميتها وعناية الله سبحانه وتعالى بها بوصفها وسيلة من وسائل تبليغ الرسالة وحصول الفائدة، وكذا أخذ العبرة والحكمة من محتواها. (ولنا في هذا تفصيل في عنصر خاص بالقصة القرآنية).

وقد اتسع النص القرآني وثرى ليشمل الجانب العلمي، وذلك بتناوله معلومات عن الكون، وأخرى مجالها العلوم المختلفة، لم يكن للإنسان آنذاك قِبل بها، فالنص القرآني «يحوي ويذكر معلومات كثيرة عن طبيعة الكون، والتي لم تكن معروفة للإنسان من قبل، والتي أكدّها بعد ذلك تطور الاكتشافات العلمية الحديثة تباعًا وبطريقة قاطعة».[2]

هذا التوجّه قاد الدارسين مباشرة إلى استنتاج وجه آخر من أوجه الإعجاز القرآني وهو الإعجاز العلمي، فقد ثبت حديث القرآن الكريم وحتى السنّة النبوية عن حقائق علمية أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها أو الوصول إليها بالوسائل البشرية المتاحة في زمن الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

وظهر الإعجاز العلمي في العصر الحديث في ميادين معرفية مختلفة كتلك المتعلّقة بالدّراسات الطبية والنفسية والنباتية والكونية... وغيرها، ففي كل هذه المجالات ظهرت حقائق يقينية طابقت إشارات القرآن إليها منذ ما يقارب خمسة عشر قرنا.[3] قال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾.[4] وقال أيضا: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾.[5]

ولقد شدّت انتباهَ وعقول وتفكير العلماء المسلمين المحدثين الكثيرُ من الآيات القرآنية ذات المضامين العلمية، ففسّروها وعرضوها على غيرهم وقدّموها للمثقفين المسلمين فزادت ثقتهم في الإسلام

---

[1] ينظر: عبد المقصود عسكر، القصص القرآني إقناع وإبداع، ط 1، دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا، جمهورية مصر العربية، 2000، ص 13.

[2] أحمد ديدات، القرآن معجزة المعجزات، ترجمة: علي عثمان، مراجعة: محمود غنيم، مكتبة ديدات، ص 24.

[3] ينظر: سامح علي ناصر الناجي، إتحاف الخلان بفوائد من علوم القرآن، ط1، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، دبي، الإمارات العربية المتحدة، 2009، ص 290.

[4] سورة الذاريات، الآيتان: 20، 21.

[5] سورة فصلت، الآية: 53.

والقرآن، وقدّموها للمثقفين العلمانيين، فقرّبتهم إلى عالم القرآن والالتزام، وقدّموها إلى العلماء الغربيين فدهشوا لما فيها من صدق علمي يتفق مع أحدث الحقائق العلمية المعاصرة، فأحسنوا الظن بالإسلام وانتهى الأمر بعدد منهم إلى اعتناق الإسلام دينا حقًا لهم عن قناعة، ومنهم الدكتور موريس بوكاي.[1]

ومثال ذلك ما ثبت عن مراحل خلق الإنسان، قال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾.[2]

فقد كان لهذه الآيات التي تقسّم مراحل تطور الجنين ردّ فعل قوي من طرف البروفيسور الأمريكي الذي عرف أن هذا الكلام قيل قبل حوالي خمسة عشر قرنا، وقال أنْ ليس هناك إلا ثلاثة احتمالات: **الأول** أن يكون عند محمد ميكروسكوبات ضخمة، تمكّن بها من دراسة هذه الأشياء، وعلم بها ما لم يعلمه الناس فذكر هذا الكلام، و**الثاني** أن تكون وقعت صدفة، و**الثالث** أنه رسول مبعوث من عند الله.[3]

إنّ هذا الموضوع بالذات (الإعجاز العلمي) يعدّ غريبًا على غير المسلم، فيبهره صدق تلك المعلومات الكونية أو العلمية التي نزلت في آيات تعود إلى عدّة قرون حين كانت الحياة بدائية قبلية، لا علم فيها ولا أجهزة كاشفة ولا أشعة... ثم إنّ مثل هذا الموضوع وغيره من الموضوعات التي تكوّن النص القرآني جعل القرآن الكريم نصًّا متنوعًا وثريًا ومشوّقًا، وإجمالا جعله معجزًّا بكل ما فيه مثلما سبقت الإشارة إليه.

كما أن هذا الإعجاز وهذا الثراء والصّدق الإلهي والنبوي في هذه الرسالة الخاتمة، جعل الإسلام مستحِقًا لقيادة العالم كله، كيف لا وهو الدّين العالمي ورسالته رسالة إنسانية خالصة، فظل المسلمون لقرون عدّة قادةً لغيرهم بدينهم وما فيه من قيم ومُثل وأخلاق وعلوم مختلفة، لقد قادوا البشرية بكل ما حمله القرآن من مفاهيم جديدة لم تكن موجودة قبله، فقد «تسلّم الإسلام القيادة بهذا القرآن، وبالتصوّر الجديد الذي جاء به القرآن، وبالشريعة المستمدّة من هذا التصوّر... لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصورًا جديدًا عن الوجود والحياة والقيم والنّظم، كما حقّق لها واقعا اجتماعيا فريدًا، كان يعزّ على خيالها تصوّره مجرّد تصوّر، قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاءً، نعم لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال، والعظمة والارتفاع

[1] ينظر: خميس كمال الجزرة، محمد وليد حرز الله، نفحات في إعجاز القرآن البياني، ص ص 27،28.

[2] سورة نوح، الآيتان: 13، 14

[3] ينظر: يوسف الحاج أحمد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنّة المطهرة، ط 2، مكتبة ابن حجر، دمشق، سوريا، 1424هـ/ 2003 م، ص 95.

والبساطة واليسر والواقعية والإيجابية، والتوازن والتناسق... بحيث لا يخطر للبشرية على بال لولا أن الله أراده لها، وحققه في حياتها وفي ظلال القرآن ومنهج القرآن، وشريعة القرآن».[1]

هذه الشريعة التي شملت كلّ ما يتعلق بحياة الإنسان وما يحيط به، ويضمن له الفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة، فهي شريعة الله المتكاملة التي ارتضاها للمسلمين من العرب وغير العرب، لأنها رسالة شاملة وعامة، بعث بها الرسولَ صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافّةً، و«هي متكاملة مع التصوّر الإسلامي كلّه للوجود الكبير وللوجود الإنساني، ومع ما ينشئه هذا التصوّر من تقوى في الضمير ونظافة في الشعور وضخامة في الاهتمامات ورفعة في الخلق واستقامة في السلوك... وهكذا يبدو التكامل والتناسق بين سنن الله كلها سواء ما نسميه القوانين الطبيعية [أم] ما نسميه القيم الإيمانية، فكلها أطراف من سنّة الله الشاملة لهذا الوجود».[2]

لقد تحدث الله سبحانه وتعالى في نصه القرآني المتفرد عن الإنسان بصفته روحا ومادة، وعن الحقوق والواجبات، وعن أسهم الميراث بدقة، وعن العبادات بفروضها ونوافلها، وعن المعاملات بين الناس أقارب وأباعد، وعن العلم والعمل وعن كلّ شيء، هذه الكلمة "كل شيء" تلخّص لنا كل ما يدخل في تركيب النص القرآني، وتغنينا عن العدّ والإحصاء مخافة إغفال عنصر من عناصره أو جانب من جوانبه.

هذا من ناحية المكوّن الموضوعي أو المضموني، أما إذا ذهبنا إلى الحديث عن المكوّن اللغوي، سنجد النص القرآني يتكوّن من سور والسور من آيات والآيات من جمل لكنها ليست كالجمل، والجمل من كلمات لكنها ليست كالكلمات، والكلمات من حروف وأصوات لكنها دون كل الحروف والأصوات في نظمها وانتظامها، وفي معانيها وبيانها ليتكون عنصر الجمال فيها ومنها معًا.

فقمة جمال النص القرآني تكمن في البنية التكوينية له، وهذه البنية تتألف من الأمور الآتية:[3]

أ. جمال العناصر الأساسية المكوّنة له.

ب. انسجام هذه العناصر الأساسية مع بعضها وعدم تنافرها.

ج. جمال المعنى ونبل المقصد الذي تعبّر عنه هذه التركيبة.

وهذه العناصر كلّها متوفرة في النص القرآني، باعتبار أن الكلمات هي العناصر الأساسية، وباجتماع هذه الكلمات تتألف الجملة القرآنية، وهي جملة في غاية البلاغة، وتجتمع هذه الجمل القرآنية

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن، ط 32، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2003م /1423هـ، المجلد 1، ج 1، ص 16.

[2] المصدر نفسه، ص 17.

[3] محمد رواس قلعة جي، لغة القرآن، لغة العرب المختارة، ص 66.

لتتألف الصورة القرآنية، وهي في غاية الروعة والجمال، وهذه الصور بدورها تجتمع لتؤلّف المشهد القرآني الذي تتحرّك فيه الصور مؤثرةً أخّاذةً بانسيابها أو عنفها حسب ما يتطلبه الموقف.[1]

فمهما بلغ العرب من قوة في تعبيرهم، وبيان في صورهم وبلاغة في معانيهم، فقد وجدوا النص القرآني أقوى وأبين وأبلغ، رغم أنه نزل بلغتهم، فهو أدرى بأسرارها ومواطن الجمال فيها، فوقفوا حائرين مبهورين عاجزين كما ذكرنا سابقًا.

وكان شِعرهم يمثّل أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة وبراعة التركيب والأسلوب، لكنّه لم يشرّع ولم يخطّ لهم منهجًا لحياتهم، ولم يلامس واقعهم الإنساني إلا فيما ندر، عكس القرآن الكريم الذي تناول كل شيء، وتحدّث عن كل كبيرة وصغيرة، ولامس الماضي والحاضر وحتى المستقبل، وكلّ هذا بطريقة راقية وأسلوب عذب مشوّق يأخذ الألباب ويسحر النفوس، ولا يجعل المتلقي إلا هائما متدبّرًا متفكرًا، راغبا في التنقيب عن أسرار جمال هذا الأسلوب.

3-نظم وأسلوب النص القرآني:

لا شكّ في أن القرآن الكريم قد حقق التميز والتفرّد على جميع المستويات والأصعدة، وسبقت الإشارة إلى إعجازه ومواطن هذا الإعجاز، فلم يهمل الله سبحانه وتعالى جانبا من جوانبه، لا من حيث المبنى ولا من حيث المعنى، من حيث الشكل أو المضمون أو الطريقة أو المشهد والصورة التي جسّدها في سوره وآياته الكريمة، إنه الكتاب المعجزة، ولأنه معجزة فقد سحر العرب وغير العرب، ليس بمحتوياته فحسب، بل بأساليبه ونظمه المحكم. فكان أسلوبه مناط التحدي والمعارضة كما هو معلوم، ذلك أن «حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحتها ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن، فجاء نطقه العجيب وأسلوبه الغريب مخالفا لأساليب كلام العرب ومنهاج نظمها ونثرها الذي جاءت عليه، ووقفت عليه مقاطع آياته، وانتهت إليه فواصل كلماته، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له».[2]

ولأنّ الأسلوب كان أول وأقوى ما سحر العرب والمشركين، وأهم ما تصدى به القرآن لهم كان من المهم أيضا أن يُدرس هذا الأسلوب القرآني، لمعرفة مواطن سحره وطريقة تأليفه الإلهية المتميزة، والتي لا يمكن مجاراتها أو تقليدها أو الإتيان بمثلها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن علماء العرب قد تناولوا هذه النقطة دراسةً وتمثيلاً وتحليلا في القديم والحديث، نظرًا إلى أهميتها وتعلقها المباشر بقضية إعجاز القرآن الكريم؛ فقد وجب منذ البداية «أن نبحث

[1] ينظر: المصدر السابق، ص66.

[2] جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج1، ص23.

عن "منبع السحر في القرآن" قبل التشريع المحكم، وقبل النبوءة الغيبية وقبل العلوم الكونية، وقبل أن يصبح وحدة مكتملة تشمل هذا كلّه، فقليل القرآن الذي كان في أيام الدعوة الأولى كان مجرّدًا من هذه الأشياء التي جاءت فيما بعد وكان–مع ذلك– محتويا على هذا النبع الأصيل الذي تذوّقه العرب فقالوا: إن هذا إلا سحر يؤثر».[1]

وغالبا ما نجد في هذا الباب مصطلحين يرِدان بكثرة هما الأسلوب والنظم، مما يستدعي الوقوف عند كلّ منهما قبل الحديث عنهما في القرآن الكريم بصفة خاصة.

فما هو الأسلوب؟ وما المقصود بالنظم؟

كلمة "أسلوب" وردت في معجم لسان العرب بعّدةّ معاني، فهي تطلق على السطر من النخيل وعلى كلّ طريق ممتد، والأسلوب هو الطريق وهو الوِجه والمذهب، يقال: أنتم في أسلوب سوءٍ، وجمع أسلوب هو أساليب، والأسلوب أيضا هو الفنّ، يقال: أخذ فلان في أساليبَ من القول أي أفانين منه...[2]

أما في القاموس المحيط فجاء الأسلوب على أنه «الطريق وعنق الأسد والشموخ في الأنف».[3]

مما سبق يمكن استنتاج المعنى الغالب على هذه المعاني اللّغوية وتحديده بأن الأسلوب يقصد به الطريقة، فنقول أسلوب الكتابة، أو أسلوب الكلام أو حتى أسلوب الحياة والتعامل مع الناس.

وإذا انتقلنا إلى المعنى الاصطلاحي فإننا غالبا نجد علاقة بينه وبين المعنى اللّغوي ولو في جانب أو زاوية معينة، فإذا كان من المعاني التي يخرج إليها لفظ أسلوب في المعجم هو الطريق أو الطريقة، فإنه في الاصطلاح «طريقة في الكتابة وهو استخدام الكاتب لأدوات تعبيرية من أجل غايات أدبية، ويتميز في النتيجة من القواعد التي تحدّد معنى الأشكال وصوابها».[4]

فأسلوب الكاتب ما يتضح ويتشكل من خلال طرق استخدامه للغة مثلا، وتوظيفه لعناصر وأدوات معينة تجعله متميزًا بها عن غيره، ليصبح الأسلوب وهو طريقة الكتابة ترجمة لطريقة التفكير وانعكاسًا لشخصية الكاتب، «وهذا يعني ببساطة أنه يمكن لأفكار الخطاب وجوهره أن تؤخذ من مؤلفها بينما الشكل الذي أعطاه لها فهو له خاصية من خواصه، ولا يمكن أن يتحوّل ولا أن يُهدَم ولا أن يقُلّد».[5]

---

[1] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ط16، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1423 هـ/2002م، ص 18.

[2] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص473.

[3] الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص 98.

[4] بيير جيرو، الأسلوبية، ترجمة: منذر عياشي، ط 2، دار الحاسوب للطباعة، حلب، سوريا، 1994م، ص17.

[5] المصدر نفسه، ص37.

فدارس أدب أيّة لغة في العالم أو قارئه أو الباحث فيه تتكون له القدرة على التمييز بين خطابات كتّاب مختلفين، فإذا سمعت أو قرأت فقرة لأول مرة يمكنك تحديد كاتبها إن كان الجاحظ أو أبا العلاء المعري أو أبا الفرج أو طه حسين أو المسعدي أو ابن خلدون أو غيره.[1]

وكذلك بالنسبة إلى القرآن الكريم، فإذا سمعنا آية لأول مرة سنميّز لا محالة أنها من القرآن الكريم لا من كلام البشر.

وعليه فإن الأساليب مختلفة ومتنوعة ومتعدّدة بتعدّد الأشخاص، بحيث يمكن تحديد عدد من الخصائص الأسلوبية لكل كاتب أو أديب، والأمر نفسه بالنسبة إلى القرآن الكريم، علمًا أن العناصر اللغوية نفسها: أصوات وكلمات وجمل وحروف، غير أن طرائق استخدامها تختلف لتشكل مسارات متعددة شقّها أشخاص مختلفون كلّ بطريقته وعبقريته، «معنى ذلك أن الأسلوب هو فلسفة الذات في الوجود، وإذ هو كذلك فلا يكون إلاّ مغرقًا في الذاتية تمامًا».[2]

وبهذا يصبح الأسلوب أمرًا شخصيا خاصًّا بالمتحدّث أو الكاتب أو الإنسان بصفة عامة، وإذا خصّصنا الحديث عن القرآن الكريم وأسلوبه فهذا يقودنا إلى تحديد العناصر أو الخصائص التي تميَّز بها الخطاب القرآني، وجعلته متفرّدًا مختلفا عن خطابات البشر.

فللقرآن الكريم أساليبه الخاصة والمختلفة في بيان وإيضاح فرائضه من عبادات وأحكام وتعاليم وهدايات، فأحيانا نجد الترغيب والترهيب وأسلوب الحكمة وأساليب متنوعة تكشف أسرار النفس، كما توجد في القرآن الكريم مختلف جوانب حياتنا الواقعية، وله في كل هذا أساليبه في الهداية، كاتخاذه أسلوب الإعلام، وأسلوب معالجة الأمراض الاجتماعية ومكافحة الجريمة... ويبقى للقرآن الكريم أسلوبه المتفرّد في الكشف عن معانيه، هذا الأسلوب المختلف كونه صادر عن ذات الله سبحانه وتعالى.[3]

فالأسلوب طريقة استخدام اللغة، واللغة عبارة عن كلمات وجمل هي عناصرها التي بتآلفها يتشكّل ويتحدّد نظام معين لاستعمالها من أجل تبليغ رسالة ما، وهذا النظام تابع لنظام آخر داخلي معنوي يخص المتحدّث (صاحب الكلام)، «وذلك أن هذه الصّورة اللفظية التي هي أول ما تلقى من الكلام لا يمكن أن تحيى مستقلة، وإنما يرجع الفضل في نظامها اللغوي الظاهر إلى نظام آخر معنوي انتظم وتألف في نفس الكاتب أو المتكلم، فكان بذلك أسلوبا معنويا، ثم تكوّن التأليف اللّفظي على مثاله، وصار ثوبه الذي لبسه

[1] ينظر: عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ط 3، الدار العربية للكتاب، ص ص 60، 61.

[2] المصدر نفسه، ص 66.

[3] ينظر: خميس كمال الجزرة، محمد وليد حرز الله، نفحات في إعجاز القرآن الكريم البياني، ص40.

أو جسمه إذا كان المعنى هو الروح، ومعنى هذا أن الأسلوب معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظا منسقة، وهو يتكوّن في العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجري به القلم».[1]

نفهم مما سبق أن للأسلوب وجهين: أحدهما حسي يتمثل في الجانب اللغوي اللفظي، والآخر معنوي تابع لباطن المتكلم ونفسيته وعواطفه.

وإذا أردنا الحديث عن الأسلوب الأدبي فإن المعنى يتسع ليشمل فنون الكلام المختلفة من قصص وحوار وتشبيه ومجاز وكناية، أو تقرير أو حكم أو أمثال، وبهذا المعنى يكون الأسلوب فنّا أدبيا يتخذه الأديب وسيلة للإقناع والتأثير.[2]

فالأسلوب يعدّ جسرًا إلى مقاصد صاحبه وقناة للعبور إلى مقوّمات شخصيته لا الفنية فحسب، بل الوجودية مطلقا، بالإضافة إلى أن الأسلوب خاصية توهب للإنسان، وقد شبهها كلودال (Paul claudel) بنبرة الصوت التي لا يمكن أن تخلط بأصوات الآخرين.[3]

فما بالكم لو تعلّق الأمر بالقرآن الكريم وأسلوبه وتأثيره على القارئ أو الملتقي، ذلك أننا نرى في أسلوب القرآن الكريم «من اللين والمطاوعة على التقليب والمرونة والتأويل، بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التي تخرج بها طبائع العصور المختلفة، فهو يفسَّر في كلّ عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه واختلاف وتمحيص، وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة، وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل، وأثبتت العلوم الحديثة كثيرًا من حقائقه التي كانت مغيبة».[4]

والسر في كل هذه المرونة في أسلوب القرآن الكريم يكمن في كونه ليس ذا طبع ولا طبيعة إنسانية محدودة من ناحية التفكير العقلي أو التقلبات النفسية والعاطفية، فكانت له الخصوصية التامة والتميز كل التميز من وراء تراكيبه وأساليبه وطرائق صياغة كلماته وعباراته. فلا يمكن لأحد مهما كان «أن يتصوّر أن مؤلفا بشريًا يظلّ مستقرا على تعاليمه وتبشيره لأكثر من عقدين من الزمان، منذ أن كان في الأربعين من عمره، عندما تلقى محمد صلى الله عليه وسلم النداء الأول من السماء، وحتى بلغ الثالثة والستين من

[1] أحمد الشايب، الأسلوب، دراسة بلاغية تعليلية لأصول الأساليب الأدبية، ط8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1411هـ/1991م، ص 40.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص41

[3] ينظر: عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص68.

[4] مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ص 170، 171.

عمره عندما صعدت روحه الطاهرة إلى بارئها أي لمدة [ثلاث] وعشرين سنة والرسول الكريم يطبق الإسلام ويدعو إليه».[1]

ومهما اجتهدنا في تحديد مفهوم دقيق للأسلوب فإنه يبقى من الصعب الإحاطة به لسعته وتشعّب مجالاته وتعّدد جوانبه، غير أنه يمكن رصد بعض الملاحظات على استعمال كلمة "أسلوب" نلخصها فيما يلي:[2]

* الأسلوب كلمة مطاطة، يمكن استعمالها في عدة مواضع عندما نتحدث عن عبارة قصيرة أو عن قطعة كاملة أو عن مجموع شعر الشاعر أو نثر الكاتب، كما يمكن أن تعبر عن الألفاظ وطريقة ترتيبها (وانتظامها في المقطع الكلامي) أو عن المعاني وطريقة سردها (فالأسلوب يعبر عن شكل أو مبنى الكلام وعن روحه في آن واحد).

* الأسلوب كلمة تحمل نوعًا من الدلالة على القيمة الأدبية، فقد تحكم على الأثر بالاستحسان أو ضده، وقد يأتي مصحوبا بأوصاف معينة مثل، أسلوب سهل أو معقد، متين أو ركيك، غريب أو مألوف، رصين أو سلس وممتع أو مشوق.

* الأسلوب كلمة تدل على التميّز، أي أننا حين نتكلم عن أسلوب ما فنحن نقصد تميزه عن غيره من الأساليب، فلما نقول: "فلان له أسلوب" فهذا يعني أن طريقته في الكتابة متميزة عن غيرها من الطرق، بالإضافة إلى استحسان هذه الطريقة، وهنا يصح القول: إن الأسلوب هو الرجل أو هو الإنسان نفسه على حد تعبير العالم الفرنسي: "بوفون".

ونحن إذ نعرض هذا المدخل النظري للأسلوب فذلك لإسقاطه على القرآن الكريم، وبيان المقصود الحقيقي بالأسلوب القرآني والدراسة الأسلوبية للقرآن الكريم، وليس لمجرّد الوقوف على معاني كلمة أسلوب التي نجد أنه من الصعب حصرها في معنى محدّد، لأن هذه المعاني مرتبطة وتنشد الاجتماع من أجل إجمال تعريف أو مفهوم شامل للأسلوب، وهذا ما حاول "أحمد الشايب" الوصول إليه من خلال استنتاج مفهوم جامع يحيط بالجوانب السابقة كلها، مستعينا بأفكار العالم العربي الجليل عبد القاهر الجرجاني، فهو يرى أن الأسلوب «هو طريقة الكتابة أو طريقة الإنشاء أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها، للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير، أو الضرب من النَّظم والطريقة فيه».[3]

---

[1] أحمد ديدات، القرآن معجزة المعجزات، ص 23.

[2] ينظر: شكري محمد عياد، مدخل إلى علم الأسلوب، ط2، مكتبة الجيزة العامة، 1413 هـ/1992م، ص ص 13، 14.

[3] أحمد الشايب، الأسلوب، دارسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، ص44.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مصطلح الأسلوب كثيرا ما يقابل في تراثنا اللغوي العربي مصطلح النظم، وهذا أمر يقودنا إلى الحديث عن جهود وأفكار العالم العربي عبد القاهر الجرجاني الذي جسّدها وشرحها فيما أسماه "النظم" أو ما يعرف "بنظرية النظم".

وقد عرّف عبد القار الجرجاني النظم في كتابه "دلائل الإعجاز" في عدّة مواضع مركزًا على ارتباطه الوثيق بعلم النحو وقوانينه، ذلك أنْ «ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها».[1]

وهذا ما يعبّر عن تعلق النظم بالجانب الإعرابي للغة، فالكلمات تنتظم في جمل لتؤدي كل منها دورها ومعناها حسب ما جعله لها الناظم، وهنا يأتي عنصر الاختيار أي اختيار الكلمات المناسبة في الأماكن المناسبة لتأدية المعاني المطلوبة بالترتيب المناسب والصحيح، و«لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعولا، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرًا عن الآخر، أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للأول أو تأكيدًا له أو بدلا منه، أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون صفة أو حالاً أو تمييزا».[2]

وفي معجم التعريفات ورد تعريف النظم اللغوي على أنه جمع اللؤلؤ في السّلك، أما في الاصطلاح فهو تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل.[3]

لا غنى إذاً للمتكلم عن مراعاة اختيار الكلمات وترتيبها بما يناسب مقاصده التعبيرية والمعاني التي يريد تبليغها، يقول عبد القاهر الجرجاني: «وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهايةٌ لا تجد لها ازديادًا بعدها، ثم اعلم أنْ ليست المزية بواجبة لها في أنفسها ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تَعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض».[4]

ومنه يمكن القول إن النظم يكمن في الجانب اللغوي الشكلي أي نسج وتأليف الكلمات وضمّها إلى بعضها وانتظامها متناسبة المعاني والمواقع الإعرابية.

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص81.

[2] المصدر نفسه، ص55.

[3] ينظر: علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، ص 203.

[4] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 87.

فقد اتضح أن الألفاظ لا فضل لها في نفسها وهي مجرّدة، أو مفردة، إنما الفضيلة في اللفظة أن يلائم معناها معنى اللفظة التي تليها.[1]

والنتيجة أننا لا نعرف خطأ أو صواباً في النظم إلا لأن معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، أو استعمل في غير ما ينبغي له.[2]

ومعلوم أن القرآن الكريم تنزّه عن كل خطإ، وحُفظ من كل تشوه أو تحريف أو تزييف، وثبت له الإعجاز في كل ما جاء به وما جاء فيه من غيبيات وقصص وتشريعات وأسرار علمية، وقد سبقت الإشارة إلى كل هذا لكن «كل ذلك بمعزل عن الذي طولب به العرب وهو أن يستبينوا في نظمه وتنزيله انفكاكه عن نظم البشر وبيانهم من وجه يحسم القضاء بأنه كلام ربّ العالمين».[3]

إن كل حرف وكل كلمة وكل استعمال في القرآن الكريم، ولنقل القرآن جميعا بما يحمله من صفات إعجازية في مبناه ومعناه، في ظاهره وباطنه، يدلّ على أنه صادر عن ذات أقدر من البشر على استيفاء المعاني بما يلزم من الألفاظ مع القوة الكافية في التعبير بما لا يدع مجالا للبس أو عدم الفهم، «وهذه الصيغة الإلهية قائمة في كل كلمة من كلمات القرآن الكريم، وكل كلمة أعطاها الله تعالى وجودها الحقيقي الذاتي، وهذا له الوجود الفعّال وهذا لا يُدرك عند البشر وإنما يرمَزُ له، فالمعاني الإلهية من قدرات غير محسوسة، وهذه الصيغة الإلهية تمثل الطابع الإعجازي».[4]

ولولا امتلاك القرآن الكريم سرّ هذه الفصاحة وإتيانه بما لا قِبل للعرب بردّه، ولا حيلة لهم معه لما استبد بإرادتهم وما غلب على طباعهم، فقد انعقدت قلوبهم عليه وهم يجهدون في نقضها، كما استقاموا لدعوته وهم يبالغون في رفضها، فكانوا يفرّون منه إليه، لما تفوق به من فصاحة وأساليب محكمة.[5]

والنظم القرآني نظم متميز لم يتحقق إتقانه ولا إحكامه لبشر من قبله أو من بعده، ونظم القرآن الكريم «هو ذلكم الترتيب الذي كان لكلمات القرآن في جملها من جهة، واختيار هذه الكلمات من جهة أخرى، ثم ترتيب الجمل والآيات في السورة، وتلك قضية كان يدركها العربي عند نزول القرآن بذوقه وسليقته، أما العرب اليوم فإنما يدركونها بالفكر لا بالفطرة بعد أن تفسر لهم وتبين لهم دقائقها».[6]

---

[1] ينظر: المصدر السابق، ص 46.

[2] ينظر: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: نصر الله حاجي، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1424هـ /2004م، ص165.

[3] صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ص111.

[4] خميس كمال الجزرة، وليد حرز الله، نفحات في إعجاز القرآن الكريم البياني، ص40.

[5] ينظر: مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن وبلاغة النبوية، ص131.

[6] فضل حسن عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ص 112.

ومنه فإن أهم ما يميز القرآن الكريم هو نظمه المخصوص الذي يمثل صورته، أما اللفظ والمعنى فهما عنصراه «وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره، كالقرط والخاتم والسوار فإنه باختلاف صورها اختلفت أسماؤها، لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة والحديد، فإنّ الخاتم المتخذ من الذهب ومن الفضة ومن الحديد يسمّى خاتما وإن كان العنصر مختلفًا».[1]

مفاد الكلام السابق هو أنّ إعجاز القرآن راجع إلى صورته المتميزة والبعيدة عن متناول العرب نظما وترتيبا ونسجًا، وليس إلى عناصره اللغوية المتمثلة في الألفاظ مثلا، فإنها تظل ألفاظًا عربية لكنها اكتسبت قيمة وسحرًا خاصين داخل نص قرآني منظوم بطريقة خاصة، فالعبرة إذًا بالصورة والهيئة لا بالعنصر أو العضو منفردًا. ولنأخذ مثالا لنظم إلهي في منتهى الإحكام والدقة في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾.[2] فإن الإعجاز قد تجلّى في هذه الآية الكريمة، والخصوصية قد تحققت لا من الألفاظ وحدها وإنما من ارتباط بعضها ببعض، وأنها نالت ما نالته من الحسن والشرف بالتقاء إحداها بالأخرى: الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى آخرها.[3]

فقد ميّز الله سبحانه وتعالى وخصّ النص القرآني في لغته وأساليبه ونظمه بعدّة خصائص سنتعرض لها في عنصر خاص لاحقا، وجعله مستعصيا على كلّ مجاراة أو محاكاة أو تقليد، ذلك أنه «سهل سبيله فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلّفة، وجعله قريبا إلى الأفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس، وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول، غير مطمع مع قربه في نفسه، ولا موهم مع دنوه في موقعه أن يُقدر عليه أو يُظفر به».[4]

فلمّا كان خفيفا لطيفا منساقا على الألسن تبادرت إلى بعض العرب محاكاته على النسق نفسه من العبارات والكلمات وحتى بعض البدايات مثلما كان من مسيلمة الكذاب الذي لمس في آيات القرآن الكريم موسيقى كالتي في الشعر، والتي تنبعث من وزنه أو بحوره، فكان من حماقاته: "إنا أعطيناك الجماهر، فصلّ لربك وجاهر"، "والطاحنات طحنا".[5] وفي هذا يقرّ الباقلاني بتفرّد الخطاب القرآني عن غيره مما

[1] جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج1، ص5.

[2] سورة هود، الآية: 44.

[3] ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 45.

[4] الباقلاني، إعجاز القرآن، ص ص 49،50.

[5] ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 287.

عرف البشر وخاصة منهم العرب، فالقرآن الكريم معجز في نظمه وتأليفه ورصفه، وهو نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم ومباين لأساليب خطابهم.[1]

فالنص القرآني ليس بشعر وليس بسحر، ولا هو بسجع كالذي عرفه العرب وتحدّث به فصحاؤهم، وإنما «ترى فيه من البلاغة الجامعة خاصة أضعاف ما أنت واجده لأهل اللغة كلهم من الشعراء والخطباء والكتّاب».[2]

كل هذا متأتّ من طريقة نظم أصوات وحروف وكلمات وعبارات القرآن الكريم في صورة فريدة أبدعها الخالق عز وجل، ليجعل بذلك نظم القرآن نظما ساميا مشرقا بليغًا جامعًا العناصر الأربعة: الألفاظ ومعانيها وإيقاعها وصورها.[3]

هذه العناصر التي تعد أساس التعبير عن الموضوع، وسبيل الوصول إلى الغرض منه، والكلمة بدورها هي أساس النظم في القرآن الكريم حيث نجد «الكلمة القرآنية مقدّرة خير تقدير، معبّرة أصحّ تعبير وأصدقه، فاختيار الكلمة في موضع دون آخر، واختيار الكلمة دون غيرها هو من إعجاز القرآن، ولذا فإن كتاب الله تعالى لا ترادفَ في كلماته، فكلّ كلمة تحمل معنى [خاصا][4] بها لا تسدّ غيرها مسدّها».[5]

فكل كلمة تدل على معنى هو ليس في غيرها، ولا غيرها يمكن أن تعبّر عن معناها، فضلا عن الفصاحة التي تتحقق في كل لفظة من ألفاظ القرآن الكريم، ليتحقق من ورائها جمال وتميز وفصاحة نص القرآن كاملا، وتمام معانيه ورونقه وتعاليه عن سائر صنوف القول مهما بلغت من فضل ومستوى، وإنك لتلمس هذا «وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير وفي غرة جميعه وواسطة عقده، والمنادي على نفسه بتميّزه وتخصصه برونقه وجماله واعتراضه في جنسه ومائه».[6]

فكلام الله سبحانه وتعالى عفوي لا تكلّف ولا تصنع فيه، وكلماته منتقاة متخيّرة المواقع والمعاني، ولأن نظم القرآن محكم إحكاما لا نظير له فإننا نحسب ألفاظه منقادة لمعانيه، ثم بعد التغلغل والقراءة نتوصل إلى أن معانيه هي التي تنقاد لألفاظه، ونظل بين هذا الوجه وذاك حتى نعجز عن التثبت منه،

---

[1] ينظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 53.

[2] مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 205.

[3] ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ص141.

[4] وردت في الكتاب دون نصب في حين وقعت نعتا للمفعول به المنصوب الذي قبلها(معنى).

[5] فضل حسن عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ص 114.

[6] الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 46.

فلا يكون منا إلا أن نردّه إلى الله تعالى خالقِ كل شيء وخالق العرب وفطرة اللغة فيهم، ومخرج ما يُعجز هذه الفطرة من هذه اللغة.[1]

وفي طريقة أداء المعاني القرآنية والتعبير عنها يقول سيد قطب: «إن طريقة الأداء حاسمة في تصوير المعنى، وإنه حيثما اختلفت طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد اختلفت صورتا هذا المعنى في النفس والذهن، وبذلك تربط المعاني وطرق الأداء ربطا لا يجوز الحديث بعده عن المعاني والألفاظ كلّ على انفراد، فلن يبرز المعنى الواحد إلا في صورة واحدة، فإذا تغيرت الصورة تغير المعنى بمقدارها».[2]

ومن المهم في هذا الموضع الإشارة إلى أهمية السياق ودوره في تحديد المعاني، إذ يناسب ما وضع فيه من ألفاظ لتناسب ما وضعت له من معاني، فالسياق هو الذي يحدّد اللفظ المناسب بحروفه وجرْسه وإيقاعه ومعناه، وهو الذي يحدّد اللفظ كذلك مفردا أو جمعا، معرفة أو نكرة، ويفرض التعبير في موضع بلفظ وفي موضع آخر بلفظ آخر، إن الحَكم في كل هذا هو السياق القرآني المعجز.[3]

حيث يلعب السياق دوره في استعمال حرف من حروف الجر مكان الآخر فيبدل بعضها من بعض، مثل الحرف "في" في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾، [4] الذي أدى معنى الحرف "على" لأن الجذوع قد أحاطت فدخلت "في" لأنها للوعاء، أو الظرفية، يقال: فلان في النخل أي أحاط به.[5]

وإذا كان للألفاظ كل هذا الشأن والدور في القرآن الكريم فإن للحرف مكانة لا تقل أهمية عن مكانة الكلمة، ذلك أن الحرف نفسه كلمة تختلف معانيه باختلاف استعمالاته، فقد يحذف أو يذكر أو يوضع حرف مكان آخر، وهو ما يعرف بمسألة تناوب الحروف وما دار حولها من آراء متباينة بخصوص ورودها في القرآن الكريم، والتسليم بفكرة أن لكل حرف معنى خاصا به.[6]

---

[1] ينظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 41.

[2] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 240.

[3] ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ص 132.

[4] سورة طه، الآية: 71.

[5] المبرّد، الكامل، تحقيق: محمد أحمد الدالي، ط 3، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1997، ج 2، ص ص 1000، 1001.

[6] ينظر: فضل حسن عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ص ص 115، 116.

وبرهان هذا أنّ «كون القرآن الكريم قول الله تعالى، وبالتالي صياغة لغوية مطلقة من اللغة الفطرية للمعاني التي يعلمها الله تعالى علما مطلقا يقتضي عدم وجود حرف زائد (أو ناقص) على المعنى الذي تحمله الصورة القرآنية».[1]

فالحرف الواحد من القرآن الكريم معجز من ناحية الموضع الذي يرد فيه لأنه يمسك الكلمة التي جاء فيها، ثم يمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو سرّ إعجاز جمله إعجازا تاما وأبديا لأنه فوق الطبيعة الإنسانية؛ إذ هو يشبه الخلق الحيّ، فالذي يعلم سرّه والذي أنزله هو الذي يعلم سر خلق السماوات والأرض، مع العلم أن جهات النظم ثلاث هي: الحروف والكلمات والجمل.[2]

ثم نجد أن النص القرآني كتلة متكاملة من سبك الألفاظ والجمل، وروعة المعاني وقصدها، دون نسيان ما تنقله جمله وعباراته من شحنات عاطفية تؤثر في النفس وميولها، وتملؤها حسنا وانبهارا بجمال الصور وعذوبة الأصوات.

والآن وبعد كل هذا: «هل عرفت أن نظم القرآن يجمع إلى الجمال عزة وغرابة؟ وهل عرفت أن هذا الجمال كان قوة إلهية حُفظ بها القرآن من الفقد والضياع؟ فاعرف الآن أن هذه الغرابة كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدّي والإعجاز، واعتصم بها من أيدي المعارضين والمبدِّلين، وأن ذلك الجمال ما كان ليكفي وحده في كفّ أيديهم عنه، بل كان أن يغريهم به».[3]

هذا باختصار عن نظم القرآن الكريم الذي يعدّ وجها من وجوه إعجازه، فكل ما يؤلفه معجز بدوره سواء أ كان حرفا أم كلمة أم تركيبا أم آية أم سورة بأكملها، ولعل الحديث في هذا الموضوع يطول بنا كثيرا، لذا نعود إلى نقطة بداية هذا العنصر وهي الأسلوب وصولا إلى النظم، مع إسقاط كليهما على القرآن الكريم، فقد تناولنا الأسلوب القرآني متبوعا بالنظم القرآني أيضا، وقلنا قد يتداخل المصطلحان ويحدث لبس بينهما فيكون الأسلوب هو النظم، «يقول أحد النقاد المعاصرين: إن الصياغة أو الأسلوب أو النظم طبعا بمثابة الجسم للتجربة [الشعرية][4]».[5]

---

[1] عدنان الرفاعي، الحق المطلق، نظرية قرآنية في الروح القرآني، مركز الذكر للدراسات الإسلامية، ص 189.
www. adnan@thekr. net.

[2] ينظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 174.

[3] محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبد الحميد الدخاخني، ط 1، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1417 هـ/ 1997 م، ص 134.

[4] وردت في هذا الموضع: "العشرية"، فرجحنا أن يكون المقصود هو: "الشعرية".

[5] محمد عبد المنعم خفاجي، محمد السعدي فرهود، عبد العزيز شرف، الأسلوبية والبيان العربي، ط 1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، 1412، 1992، ص 42.

ومما توصل إليه عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز أن الجمال ليس في اللفظ ولا في المعنى وإنما هو في نظم الكلام أي الأسلوب.[1]

غير أنه يجدر بنا التفريق بين الأسلوب والنظم ولو من زاوية بسيطة، إذ لا بدّ من وجود فرق بينهما، وذلك لنتحرى الدقة والتحديد بالقدر المناسب والمتاح، ونجد القول الفصل في هذا الموضوع عند حازم القرطاجني حين جعل لكل من الأسلوب والنظم مجاله الخاص، فمجال النظم الأبنية، ومجال الأسلوب المعاني، ويوضح الفكرة في قوله: «الأسلوب هيئة تحصل عن **التأليفات المعنوية**، والنظم هيئة تحصل عن **التأليفات اللفظية**. ولما كان الأسلوب في المعاني بإزاء النظم في الألفاظ، وجب أن يلاحظ فيه من حسن الاطراد والتناسب والتلطف في الانتقال عن جهة إلى جهة والصيرورة من مقصد إلى مقصد، ما يلاحظ في النظم من حسن الاطراد من بعض العبارات إلى بعض، ومراعاة المناسبة ولطف النقلة».[2]

وبهذا جاء الحديث في هذه المحطة من البحث عن القرآن الكريم أسلوبا ونظما، أي مضمونا وشكلا، أو معنى ومبنىً، لأن القرآن الكريم رفيع أسلوبه سامية معانيه، ومحكم بناؤه منتقاة ألفاظه، مع ما له في ذلك من خصائص.

4- خصائص الأسلوب القرآني:

للأسلوب القرآني ما يميّزه عن بقية الأساليب، يكفي أنه أسلوب الله وطريقته في نقل الأخبار وتوجيه المواعظ، وسرد القصص ومخاطبة المؤمنين والمشركين... وفي هذا الموضوع بالذات لا يمكن الجزم بإمكانية الإحاطة بالخصائص كلّها، لأنه أوسع من أن يحاط به، وأبعد من أن يوصف حقَّ وصفه، أو أن يعطى كامل حقه، ثم «إن لهذا الكتاب العظيم لخصائص مشتركة وطريقة موحّدة في التعبير عن جميع الأغراض، سواء كان الغرض تبشيرًا أم تحذيرًا، قصة وقعت أو حدثا سيقع، منطقا للإقناع أو دعوة إلى الإيمان، وصفا للحياة الدنيا أو الأخرى، تمثيلا لمحسوس أو ملموس، إبرازا لظاهر أو لمضمر، بيانًا لخاطر في الضمير أو لمشهد منظور».[3]

لكننا لا ننكر أن العلماء والباحثين اجتهدوا في تحديد الخصائص الأسلوبية للقرآن الكريم، ولقد لفت انتباهنا العالم المفسّر سيد قطب في كتابيه: "في ظلال القرآن" و"التصوير الفني في القرآن"، والعالم

---

[1] ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 47.

[2] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص 364.

[3] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 35.

الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه: "النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن"، بالإضافة إلى بعض الخصائص التركيبية التي أوردتها الباحثة عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ في كتابها: "الإعجاز البياني للقرآن الكريم".

أ-سيد قطب:

تتلخص خصائص أسلوب القرآن الكريم التي أوردها سيد قطب في كتابه: "في ظلال القرآن" في النقاط الآتية، والتي تعدّ ظواهر ينفرد بها النص القرآني عن بقية النصوص:[1]

1- ظاهرة التعبير عن القضايا والمدلولات وبلوغ الأغراض المقصودة بتعبير دقيق ودلالة واسعة لا يمكن أن تتحقق في غير القرآن الكريم، مع جمال الأداء وتناسق عجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو، كل هذا دون إمكانية الاستغناء عن لفظ أو حلول لفظ مكان آخر، إنه أسلوب يجتمع فيه جمال التعبير ودّقته فلا تطغى إحدى الصفتين على الأخرى، وهذا التوازن والرقي في المستوى التعبيري والأسلوبي للقرآن الكريم يعدّ من أسرار إعجازه، بحيث لا تتوفر لبشر مثل هذه الطاقة الخارقة جمالا ومضمونًا وتعبيرًا.

2- ظاهرة تنوّع المدلولات وتناسقها واستيفاء كل مدلول حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء، أو اختلاط بين المدلولات، مع نيل كل قضية وكل حقيقة الحيز الذي يناسبها وتستحقه، فالنص القرآني له القدرة على الاستشهاد بنص واحد في مواضع متعددة ولأغراض مختلفة، لكنه يبدو في كل مرة أصيلا في موضوعه خادما له وللغرض الذي استشهد به من أجله.

3- ظاهرة استحضار المشاهد والتعبير المواجه والالتفاتات المتكررة، بحيث يبدو المشهد حاضرًا حقيقيا، وهذه الخاصية يعجز البشر عن تحقيقها أو تقليدها، لأنها طريقة فريدة غير معهودة لديهم ولم يألفوها في أساليبهم.

ثم يضرب سيد قطب مثالا على هذا الأداء القرآني المتميز بقول الله تعالى:

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ﴾.[2] هذا المشهد يتلوه خطاب في مشهد آخر، يقول فيه جلّ وعلا:

﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ ﴾[3] ثم

[1] ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ص ص 1787، 1788.

[2] سورة يونس، الآية: 90.

[3] سورة يونس، الآية: 91، 92.

يعقّب الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.[1] والأمثلة في هذا الشأن كثيرة ومتعددة مما لا يتسع لإنسان مجاراته أو الإتيان بمثله.

4- نضيف إلى هذه الظواهر أو الخصائص خاصية تتعلق **بشمولية الخطاب القرآني**، فالقرآن الكريم يخاطب الكينونة البشرية بجملتها، فهو لا يخاطب ذهنها المجرّد وحده أو قلبها الشاعر منفردًا ولا حسّها منفصلا، وإنّما يخاطب هذه العناصر الثلاثة جملة أي مجتمعة، ويخاطبها من أقصر طريق متوسّلا بكلّ أجهزة الاستقبال والتلقّي فيها مرة واحدة كلما خاطبها، محقّقا بهذا عمقا في التعبير وتأثيرًا ودقة وشمولا مستحيل التحقق للأساليب البشرية على مرّ العصور والتاريخ.

إن القرآن الكريم بهذه الظواهر والخصائص والجماليات الفنية وغيرها يعود بنا إلى قضية أو حقيقة إعجازه، فهو يثبت على مرّ أربعة عشر قرنا كاملة أنه متفرّد متميز لا يتقاطع مع أساليب أي إنسان، كاتبا أو شاعرا فنانا، مهما بلغ من تحكّم أو تمكن من زمام هذه اللغة الشريفة وأساليبها وتعابيرها وفنون نظمها.

وقد أجاد سيد قطب في عرض الظواهر سابقة الذكر في كتابه "في ظلال القرآن"، غير أنّ له كتابا آخر ذا أهمية عظيمة وقيمة لا يمكن إغفالها، عنوانه: "التصوير الفني في القرآن" خصّصه للبحث في **تقنية تصوير المعنى** على طريقة القرآن الكريم، وقد رأينا أن هذه التقنية أو الظاهرة يمكن عدّها خاصية من خصائص الأسلوب القرآني، يقول سيد قطب: «التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسّة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، عن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجّددة».[2] لهذا ركز سيد قطب على ظاهرة التصوير على أنه القاعدة الأولى في التعبير.[3]

هذه الخاصية أو التقنية (التصوير) تجعل القارئ أو متلقي القرآن الكريم يتصوّر المشاهد والقصص والشخوص ماثلة أمامه تمامًا كأنها حقيقية، والأمثلة لا حصر لها في هذا الموضوع وهي كثيرة نذكر منها: أصحاب الكهف والصورة الدقيقة التي تصلنا عنهم وعن هيئاتهم أثناء نومهم وحتى بعده، وكذلك الصورة الحيةّ لمشاهد الجنة والنار ومن يقطنهما، كل هذا يصلنا بسحرٍ خاصٍ في التعبير معجزٍ لا يتأتى إلا لذات الله سبحانه وتعالى.

---

[1] سورة يونس، من الآية: 92.

[2] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 36.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 86.

ب-محمد عبد الله دراز:

لقد أسهب العلامة محمد عبد الله دراز في رصد وبيان خصائص أسلوب القرآن الكريم، وذلك في كتابه: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، عملنا على تلخيصها في النقاط الآتية:[1]

1- القصد في اللّفظ والوفاء بحق المعنى:

من يريد تحقيق العدل بين اللفظ والمعنى في كلامه ليس له إلا أن يقف منها موقف الزوج بين ضرّتين، لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل إلى إحداهما، فمن يعمد إلى الادّخار في اللفظ وإنفاق ما يراه ضروريا منه فقط، سيجد نفسه قد قصّر في حق المعنى قليلا أو كثيرًا، ذلك أنه قد يجمل دون تفصيل، أو أنه قد يفصّل مع الحذر من الإسراف والإكثار، فيضمّ أجزاء ويحذف ما استطاع من أدوات التمهيد والتشويق ووسائل التقرير والتثبيت...الخ.

ولم يكن بهذا إلا إيجازًا وإلغازًا لم يبلغ صاحبه مراده، ولم يحقق غايته بهذا الاختصار المضر بالمعنى لا النافع، ومن يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره وذكر دقائقه كلها، لا يكتفي بالقليل من اللفظ لتأدية الرسالة المبتغاة، فيجتهد في أن يمدّ في نَفَسه مدًّا، لكنّه لا يلبث أن يباعد بين أطراف كلامه مما يؤخّر وصوله إلى غايته ويضعف إقبال ودافعية المتلقي.

ونجد هذه السمة غالبة على كتابات القدماء من الكتّاب والعلماء والخطباء، لكنهم مهما بلغوا من فصاحة وبلاغة وعلم لم يحقّقوا الوفاء بالمعنى حق وفائه إلا بقدر نسبي معين، حتى إن أبرع الشعراء لا يبلغون مرتبة الإجادة إلا في أبيات محدّدة لا في القصيدة كلها.

أما القرآن الكريم فقد جمع هاتين الغايتين على تمامهما، جمَع قصد اللفظ وشرف المعنى حيث «تجد فيه بيانا قد قدّر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير، يؤدّي لك من كل معنى صورة نقية وافية، (نقية) لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، (وافية) لا يشذّ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه».[2]

فكل جزء من كلام الله تعالى حرفا كان أو كلمةً أو جملةً يوفي بمعناه ويؤديه أحسن أداء، فلو أردنا إبدال كلمة مكان كلمة أخرى أو إسقاطها، ما كان لنا ذلك وما أمكننا لأنها منتقاة بعناية إلهية وحكمة لم تتأت لبشر قط. قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾.[3]

---

[1] ينظر: محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص 138- 148.

[2] المصدر نفسه، ص 141.

[3] سورة هود، الآية: 1.

2-خطاب العامة وخطاب الخاصة:

إذا خاطبت الأذكياء بمثل ما تخاطب به الأغبياء فإنك تنزل بهم إلى مستوى لا يرضونه، ولو خاطبت العامة بمثل ما يخاطَب به الأذكياء لفاق ذلك طاقة عقولهم، لذا لابدّ من مخاطبة كل طائفة بما يناسبها، أما أن تُلقى جملة واحدة إلى العلماء والجهلاء وإلى الأذكياء والأغبياء وإلى الرعية والملوك، ويراها كل منهم مناسبة له مقدّرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته، فهذا مالا يوجد على أتمّه إلا في القرآن الكريم، فالفئات كلّها العامة والخاصة تفهم كلام الله تعالى وتعجب بتعبيره، وتحسّ بمتعته، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.[1]

3-إقناع العقل وإمتاع العاطفة:

يمثل العقل قوة التفكير وتمثّل العاطفةُ قوة الوجدان، وهما قوتان توجدان في النفس الإنسانية التي تحتاجهما معًا، غير أنها تغلّب إحداهما على الأخرى، ويتبين هذا في كلام العلماء والحكماء والأدباء والشعراء، فنجد الفئة الأولى تغلّب العقل على العاطفة، وتحرص على تقديم حقائق العلوم دون الالتفات إلى ما فيها من جفاف وبعد على الطباع، أما الفئة الثانية فهدفها تحريك الشعور واستثارة الوجدان دون أن يكون ما صوّروه حقيقيا أو خياليا، غيّا أو رشدًا، أي لا يمكن أن تتكافأ هاتان القوتان في إنسان واحد، بل نجد هذا الإنسان إما مفكّرًا يميل إلى استخدام عقله فتنقص عاطفته، أو العكس فيضعف تفكيره، أما أن نجدهما معا في أسلوب وكلام واحد، فهذا ما لا يتأتّى لبشر؛ فأن يجتمع هذان الطرفان (العاطفة والعقل) معًا كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقا وأزهارًا وثمارًا، وأن يأتي كلام بالحقائق البرهانية فيخاطب بها العقل، ويأتي بالمتعة الوجدانية فيخاطب بها القلب وأن يمزج الحق والخيال معًا، فهذا يعني أنه كلام الله ربِّ العالمين القادر على كل هذا وغيره، ومن أمثلته: القصص والأخبار، حيث يقدّم الحقيقة والعبرة دون نسيان حظ القلب من تشويق ومتعة وتحذير وتعجيب... الخ.

4-البيان والإجمال:

هذه الخاصية العجيبة لا توجد إلاّ في القرآن الكريم؛ أي كلام البشر لا يمكن أن يجتمع فيه هذان الوصفان معًا دون الوقوع في اللّبس والإبهام والبعد عن الغرض، أما كلام الله سبحانه وتعالى فنجده واضحا خاليا من الغريب، ألفاظه شفافة محكمة، حيث تجد نفسك ترى صورًا وحقائق ماثلة، ولا تسمع كلاما ولغات فحسب، حتى إنّك تفهم الجملة الواحدة على عدّة وجوه كلها صحيحة أو محتملة الصحة، ومثال هذا اتساع مضماره لآراء ومنازع الفرق الإسلامية، واختلاف الآراء العلمية قديما وحديثا، يحتج به

[1] سورة القمر، الآية: 17.

كل فريق لرأيه ويدّعيه لنفسه، لكنه يظلّ فوق الجميع يطلّ على معاركهم حوله كأنه يقول لكلّ منهم: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾[1]

هذه أهم الخصائص التي رصدها العلامة: محمد عبد الله دراز لأسلوب القرآن الكريم، والتي عملنا على تلخيصها، لأنه مال فيها إلى الإسهاب والتفصيل والتمثيل، وفي موقع آخر نجده يتحدث عن خاصية أخرى للقرآن الكريم وهي شكلية (في جانب النظم) تتمثل في:

5- خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره:

وهذا ما يلمسه قارئ القرآن أو سامعه، حيث يحس بذلك الانسجام والتتابع المناسب، وذلك النغم الموسيقي المنبعث من القرآن الكريم دون موسيقى يقول دراز: «ستجد اتساقا وائتلافًا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر، وستجد شيئا آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر، ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتّحد الأوزان فيها بيتا بيتا، وشطرًا شطرا، وتسمع قطعة من الموسيقى فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهبا متقاربًا، فلا يلبث سمعك أن يمجها، وطبعك أن يملّها إذا أعيدت وكرّرت عليك بتوقيع واحد، بينما أنت من القرآن أبدًا في لحن متنوع متجدّد، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل...».[2]

هذا التآلف الموسيقي والتناسق الصوتي هو ما يولّد ذلك الجمال الأخّاذ والإيقاع الواضح الرنّان في لغة القرآن، والذي لا ينكره أحد ممن يقرأ هذا النص المعجز أو يسمعه، ولعلّ هذا الطابع الموسيقي في لغة القرآن هو ما جعل المشركين يتّهمون الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعر والسحّر، وما هو بشاعر ولا بساحر، إنما هي معجزة الله تعالى أشعرتهم بالعجز وسحرت ألبابهم بكل ما فيها من اختلاف وتميز عن كلام وتجارب البشر.

ت-عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ:

ركزت الباحثة عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ في عنصر الأسلوب والتعبير القرآني من كتابها: "الإعجاز البياني للقرآن الكريم" على الجانب التركيبي لا على الخصائص العامة (المضمونية أو الجمالية)، وقد اهتدت إلى اختصاص القرآن الكريم بأربعة أساليب لغوية أو خصائص أسلوبية تمثلت فيما يلي:[3]

---

[1] سورة الإسراء، الآية: 84.

[2] محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص 128 و131.

[3] ينظر بالتفصيل: عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن الكريم، ص 222-264.

- الاستغناء عن الفاعل.
- البدء بواو القسم.
- السجع ورعاية الفاصلة.
- النفي مع القسم.

واعتبرت النقاط سابقة الذكر ظواهر أسلوبية اختصّ بها القرآن الكريم، ولكل ظاهرة سرها أو أسرارها في التعبير القرآني، وقد أفاضت في البحث والتنقيب والإسهاب في شرح كل واحدة، مع إدراج ما يلزم وما يناسب من أمثلة وآيات قرآنية.

باختصار لقد جاء القرآن الكريم بكلام جديد رغم معرفة العرب باللغة العربية وأسرار نظمها وبدائع أساليبها فتميز نظما وأسلوبا، وعلا على غيره من النُّظم والتأليفات اللغوية في رونق وأصالة وتنوع ممتنعا بذلك عن التقليد، فالقرآن الكريم أتى «بأسلوب في الأدب غضّ جديد صالح لكل العقول، متفنّن إلى أفانين أغراض الحياة كلها، معط لكل فنّ ما يليق به من المعاني والألفاظ واللّهجة، فتضمن المحاورة والخطابة والجدل والأمثال (أي الكلم الجامع) والقصص والتوصيف والرواية».[1]

فقد كان القرآن ولا يزال كتابا متنوعا مليئا بمتعة القراءة وفائدتها، بعيدا عن النمطية، يقلّب الصيغ والألفاظ في نظمه المتناسق، ويدلّ على المعاني كاملة بإحكام في أسلوب منسجم طيع.

[1] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ص 119.

ثانيا: أسلوبية القصة القرآنية:

1-القصة القرآنية مفهومها وموقعها في القرآن الكريم:

أنزل الله تعالى القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله علية وسلم، وجعله رسالة الحق الخاتمة، الموجهة إلى الناس أجمعين، وسلك مختلف السّبل والطرق للوصول إلى هدايتهم وإرشادهم إلى الصّراط المستقيم، ونوّع أساليبه وخطاباته ليصل إلى النتيجة المبتغاة، وهي إحقاق الحق ودحض الباطل، وإرساء عقيدة واحدة موحِّدة لله جلّ شأنه، ومن بين هذه الأساليب والطرق: القصة القرآنية التي تُمثل بابا واسعا ومهمّا من بين أبواب وموضوعات النصّ القرآني، وهي تحمل أخبار الأمم السابقة وأنبياء الله ومرسليه إلى أقوامهم المكذّبين، بكلّ صدق وقدرة على التبليغ في قالب جمالي فني صادق ومشوّق، ثمّ إنّ القصة القرآنية قد «بنيت بناءً محكما من لبنات الحقيقة المطلقة التي لا يطوف بحماها طائف من خيال، ولا يطرقها طارق منه».[1]

وعليه فإن القصة القرآنية بلغت من الجمال والكمال وقوة البناء وتنوع الأساليب وطرق العرض، وحققت من الأهداف والأغراض ما جعلها تنال مرتبة أحسن القصص، لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾.[2] ولنأخذ قصة أهل الكهف، وقصة ذي القرنين بوصفهما من أحسن القصص، فقصة أهل الكهف هي أحسن قصص أولياء الله وعباده المؤمنين، وقصة ذي القرنين هي أحسن قصص الملوك.[3]

والمقصود بالقصة «الخبر عن حادثة غائبة عن المخبَر بها، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصا، مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوّهم. وجمع القصة: قصص بكسر القاف، وأما القصص بفتح القاف فاسم للخبر المقصوص، وهو مصدر سمّي به المفعول، يقال: قصّ على فلان إذا أخبره بخبر».[4]

والقصة القرآنية أو القصص القرآني مصطلحان يطلقان على ما حدّث به الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم من أخبار الأمم السابقة، والقرون الأولى في مجالات الرسالات السماوية، وما كان يحيط بها من صراع بين الخير والشر والحق والباطل.[5]

---

[1] عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم ويوسف، ص 40.

[2] سورة يوسف، الآية: 3.

[3] ينظر: محمد بن عبد العزيز العواجي، إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية، ط 1، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1427 هـ، ص 227.

[4] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 1، ص 64.

[5] ينظر: عثمان فوزي علي، مباحث في الإعجاز القرآني، ص 179.

وقد ذُكر لفظ القصّة أو القصص في عدّة آيات قرآنية مثل قوله تعالى:

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾.[1] وقوله تعالى أيضا:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾[2]

إن للقصة القرآنية صورة أدبية كاملة، تجعل كلّ ذوق يجد فيها ما يلائمه ويناسبه، وكلّ إنسان يتأثر بجانب معين من جوانبها ويستجيب لها في دعوتها أو مواعظها، حسبما تعنيه ملكاته ومداركه.[3]

وعليه، فقد حظيت القصة القرآنية باهتمام الكثير من الدارسين والعلماء قديما وحديثا، لما شدّهم فيها من جوانب فنية وبنية متماسكة ينسجم فيها الشكل مع المضمون، لتستولي على الأذهان والعقول والقلوب.

2-القصة القرآنية عند القدماء:

كانت لعلماء العرب جهود مبكرة في دراسة القصة القرآنية، التي نالت قسطا وافرا من الاهتمام لدى الدارسين بمختلف مشاربهم واتجاهاتهم، فنجد منهم اللغويين والمفسّرين، والبلاغيين وعلماء الإعجاز.

أ-القصة القرآنية عند اللغويين:

لم يتناول علماء اللغة مفهوم القصة القرآنية في معاجمهم، وإنما اكتفوا بذكر معاني القصة وما يشاركها في الجذر من اشتقاقات، أو ما يشبهها في المعنى من ألفاظ، فقد ركّزوا على الكلمة مفردة دون إضافة وصف القرآن إليها، وهذا شأن اللغويين عامة، فشأن علماء اللغة أن يذكروا لنا معاني الألفاظ وما تثيره في الأذهان من صور، وليس من شأنهم أن يذكروا الحدود والمفاهيم الفنية والتعريفات العلمية، وما يتبع ذلك من حديث شامل مضبوط إذا ما تعلّق الأمر بالمصطلحات العلمية أو الفنية.[4]

وقد وردت للقصة عدّة معان عند اللغويين في معاجمهم، مثل ابن منظور الذي رصد الكثير من التصورات والمعاني لهذا اللفظ، ومما جاء في اللسان قوله: «القَص فعل القاصّ إذا قصّ القِصص، والقصة معروفة. ويقال: في رأسه قِصّة يعني الجملة من الكلام، ونحوه قوله تعالى: نحن نقص عليك أحسن القصص؛ أي نبين لك أحسن البيان... والقِصّة: الخبر وهو القَصص. وقصّ عليّ خبره يقصّه

---

[1] سورة الكهف، الآية: 64.

[2] سورة طه، الآيتان: 99، 100.

[3] ينظر: سعيد عطية علي مطاوع، الإعجاز القصصي في القرآن، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 2006 م، ص 35.

[4] ينظر: المصدر نفسه، ص 36.

قصّا وقَصَصا: أورده، والقَصَص الخبر المقصوص –بالفتح–وُضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه».[1] وجمع القصة: قِصص بكسر القاف.

وقد وردت ألفاظ في القرآن الكريم تقترب في معانيها من معنى القصة كالخبر والنبأ والحديث، لكن الله عز وجل فرّق بينها في الاستعمال وذلك تحقيقا للإعجاز والدقة في نظم النص القرآني، فاستعمل النبأ والأنباء في الإخبار عن أحداث مضى على وقوعها زمن بعيد، في حين نجده يستعمل الخبر والإخبار في الكشف عن أحداث قريبة العهد بالوقوع، أو مازالت مشاهدها ماثلة للعيان.[2]

وقد أورد أبو هلال العسكري عدة فروق في هذا المجال، ففي الفرق بين القَصص والحديث مثلا يقول: «القصص ما كان طويلا من الأحاديث متحدَّثا به عن سلف، ومنه قوله تعالى: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾.[3] ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾.[4] ولا يقال لله: قاص؛ لأن الوصف بذلك صار علما لمن يتّخذ القَصص صناعة، وأصل القَصص في العربية: اتباع الشيءِ الشيءَ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾.[5] وسمي الخبر الطويل قَصصا لأن بعضه يتبع بعضا حتى يطول».[6]

وما من شك في أن المعنى اللغوي لأية لفظة غالبا ما يقترب أو يتصل بمعناها الاصطلاحي، ويكون منطلقا لتحديد المفهوم المقصود.

ب– القصة القرآنية عند المفسّرين:

جمع بعض المفسّرين في تناولهم لمعنى كلمة قصص الواردة في القرآن الكريم والصيغ التي تشاركها في الجذر بين الاعتبارين: اللغوي والاصطلاحي الديني، ففي سورة الكهف يذكر الله سبحانه وتعالى هذا اللفظ في قوله جلّ شأنه: ﴿ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾.[7] وذلك حين نسي سيدنا موسى وفتاه حوتهما فعادا أدراجهما، فهما يقصّان قصصا أي: يتبعان آثارهما اتباعا، أو فارتدّا مقتصّين.[8]

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، المجلد: 7، ص ص 73، 74.

[2] ينظر: سعيد عطية علي مطاوع، الإعجاز القصصي في القرآن، ص 37.

[3] سورة يوسف، الآية: 3.

[4] سورة هود، الآية: 120.

[5] سورة القصص، الآية: 11.

[6] أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ص ص 41، 42.

[7] سورة الكهف، الآية: 64.

[8] الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ص 625.

فكلمة "قصَصا" في هذه الآية الكريمة –حسب تفسير الزمخشري–تحتمل معنى الاتباع كما أورده أبو هلال العسكري، ويُفهم منها أيضا معنى القصّ، أي رواية الأحاديث وتبادلها، خاصة أن الطريق طويل وشاق، وقد دلّ الزمخشري على قبول المعنيين معًا على الخيار بحرف العطف "أو".

وفي دراسة المفسّرين القدماء لمضامين القصص القرآني نجد فئتين أو اتجاهين:

الاتجاه الأول:

هذه الفئة تركّز على العظة في القصة القرآنية مما جعلهم يغفلون عن تزويد أقوالهم وآرائهم بالحجج والبراهين اللازمة والضرورية لدفع أقوال وآراء المكذّبين والمشكّكين، «ونحن نجد أمهات كتب التفسير، كجامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري، والكشف والبيان في تفسير القرآن لأحمد بن إبراهيم الثعلبي، وكتاب السراج المنير في الإعانة على معرفة كلام ربنا الحكيم الخبير لشمس الدين الشربيني، وكتاب لباب التأويل في معاني التنزيل، لابن محمد الشيحي المعروف بالخازن... وغيرها من كتب التفسير، نجد في هذه الكتب الاهتمام بالعظة أكثر، والوقوف عند الأحداث أطول، والبحث عن حقيقة الروايات أدقّ، ولا سيما الحكايات الواردة في مضرب المثل».[1]

إن هذا الانشغال بالعظة والتفاصيل الدقيقة والطويلة عن الحجة القوية، بوصفها أداة للإقناع وإثبات الرأي ودعم الموقف، لهو سبب ضعف هذه التفاسير في وجه أعداء الإسلام والمتربصين به.

لقد أدخلت تلك التفاسير الكثير من التفاصيل والإسرائيليات على قصص الأنبياء مما جعل المستشرقين ينعتونها بالضعف، وهناك من اتخذها حجة على الدين ونعتها بالأسطورة أو الخلق الفني، (وهو موقف محمد أحمد خلف الله).

لكن هذا لا ينفي فضل أولئك العلماء الأجلاء في الإحاطة بتفسير القصص القرآنية من عدة جوانب لا سيما الجانب اللغوي والبلاغي، كما نسبوا الأقوال في حكايات الأساطير إلى أصحابها،[2] واجتهدوا في الحديث عن ظروف القصة وجزئياتها، وما يتّصل بها من مواقف وأحداث، مع تحديد زمانها ومكانها (وتسمية المكان) وتعيين أشخاصها.[3]

---

[1] خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، منهجها وأسس بنائها ، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، ص 86.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص ص 86، 87.

[3] ينظر: التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، 1971، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1974، ص 29.

فنحن نجد في تفسير الطبري مثلا أنّ اسم الكهف الذي أوى إليه الفتية في سورة الكهف هو "بنجلوس"، واسم مدينتهم التي هربوا منها هو "أفسوس"،[1] مما لا يدع مجالا للشك في صدق نيتهم وسلامتها، ويثبت أمانتهم العلمية وخوفهم من الله عز وجل وهم يدرسون ويفسّرون كلامه العظيم.

الاتجاه الثاني:

هناك من المفسرين من انتهج طريقة التحليل مع الالتزام بحدود النص القرآني، والإشارة إلى ما تتضمنه القصة من عبر ومواعظ، والإجابة على ما فيها من شبهات، وبيان عوامل التأثير في أسلوبها البياني أو حججها العقلية، ومن هؤلاء المفسّرين نجد: ابن كثير في تفسيره: "تفسير القرآن العظيم"، وفخر الدين الرازي في تفسيره: "مفاتيح الغيب"، والزمخشري في تفسيره: "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، وناصر الدين بن عبد الله البيضاوي في تفسيره: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل".[2]

يعتمد أصحاب هذه التفاسير غالبا طريقة «تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة والأثر الصحيح، وإذا أوردوا بعض الأخبار في القصة عن أصحاب السّير، فإما لأنها متواترة مشهورة، تلائم حقائق القرآن والسنة، وتلقي الأضواء على ما يحتاج إلى الإيضاح والبيان، وإما لأنها مزيفة تحتاج إلى الرد والتنبيه».[3] لقد حرص أولئك المفسّرون على التثبت وتحرّي الدقة وصحة المعلومات، فإذا أوردوا شيئا من الإسرائيليات أشاروا إليه ونبّهوا عليه، وإذا ناقشوا مسألة تناولوها بالأدلّة المناسبة التي تدعم التفسير وتقويه وليس العكس.

ت-القصة القرآنية عند علماء البلاغة والإعجاز:

انصب اهتمام البلاغيين وعلماء الإعجاز في دراستهم للنص القرآني على إثبات إعجازه وبيان مواطن هذا الإعجاز، خاصة ما تعلّق بنظمه وأسلوبه، وترتيب كلماته وتناسق حروفه وفواصله، ولم يخرجوا عن إطار الآية المفردة إلى النص أو القصة الكاملة، ذلك أن البلاغيين آنذاك «شغلوا أنفسهم بمباحث عقيمة حول اللفظ والمعنى أيهما تكمن فيه البلاغة، ومنهم من غلبت عليه روح القواعد البلاغية، فأفسد الجمال الكلّي المنسَّق، أو انصرف عنه إلى التقسيم والتبويب».[4]

---

[1] ينظر: الطبري، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه: بشار عواد معروف، عصام فارس الحرستاني، ط 1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1415 هـ/ 1994 م، المجلد 5، ص 84، و88.

[2] ينظر: محمد عبد الله عبده دبور، أسس بناء القصة من القرآن الكريم، ص 15.

[3] التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، ص 31.

[4] سيد قطب، التصوير البياني في القرآن، ص 29.

وقد عرف من علماء الإعجاز ثلّة من العلماء الأجلاء الذين نذروا حبرهم لخدمة كلام الله عز وجل ودراسته، نذكر منهم: الرماني في كتابه "النكت في إعجاز القرآن"، والخطابي في كتابه "بيان إعجاز القرآن"، والباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن"، وعبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز"، وجلال الدين السيوطي في كتابه "معترك الأقران في إعجاز القرآن".

وقد أكثر معظم علماء الإعجاز من الحديث عن تكرار بعض آيات القصة القرآنية الواحدة بأساليب مختلفة، وعدّوا ذلك التكرار دليلا على جودة نظم القرآن الكريم وحسن تأليفه،[1] ونقطة ضعف بالنسبة إلى المشركين الذين عجزوا عن معارضة النص القرآني والإتيان بمثله، ففائدة هذا التكرار عند الباقلاني هي «أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدا، من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتتبين فيه البلاغة، وأعيدَ كثير من القصص في مواضعَ مختلفة على ترتيبات متفاوتة، ونُبّهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدِئا ومكرِّرا».[2]

فقد انتفت قدرة المكذّبين على معارضة آيات وسور القرآن الكريم، في حين تفنن الله سبحانه وتعالى في عرض سحر وبيان كلامه، ونوّع في سرد قصص أنبيائه وعدّد ذكرهم، ليدلّ على قدرته الفائقة والمعجزة.

وفي هذا يقول السيوطي: «أنّ القصة الواحدة لما كرّرت كان في ألفاظها في كل موضع زيادة ونقصان، وتقديم وتأخير، وأتت على أسلوب غير أسلوب الأخرى، فأفاد ذلك ظهور الأمر العجيب في إخراج الأمر الواحد في صورة متباينة في النظم، وجذب النفوس إلى سماعهم لما جبلت عليه من حب التنقل بين الأشياء المتجدّدة، واستلذاذها بها، وإظهار خاصة القرآن، حيث لم يحصل–مع ذلك التكرير فيه–هجنة في اللفظ، ولا ملل عند سماعه، فباين بذلك كلام المخلوقين».[3]

وقد تكرّرت عدّة قصص في القرآن الكريم كقصة سيدنا آدم عليه السلام، وقصة موسى ونوح أيضا عليهما السلام.

ومهما يكن من أمر القصة القرآنية فإن الثابت الذي لا حِول عنه هو أنها شكّلت بنفسها ظاهرة فنية فريدة في النص القرآني، ونالت اهتماما واسعا عند الدارسين قديما وحديثا، بغض النظر عن الناحية التي تناولها منها كل دارس أو كل فريق، يكفي أنها من كلام الله عز وجل، لذا فقد ثبت لها ما ثبت له من إعجاز وفصاحة وبلاغة، وهي النقاط التي ركّز عليها أصحاب هذا الفريق في دراستهم لها.

---

[1] ينظر: محمد عبد الله عبده دبور، أسس بناء القصة من القرآن الكريم، دراسة أدبية ونقدية، ص 19.

[2] الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 64.

[3] جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج 1، ص 264.

3-القصة القرآنية عند المحدثين:

ذكر الله سبحانه وتعالى فعل القصّ في عدّة مواضع من القرآن الكريم-وقد ذكرنا ذلك سابقا-مما يعني أن ما يذكره من أخبار وأنباء وقصص عن السابقين من الأنبياء وغيرهم يدخل ضمن القصة، ولأنها من قول الله تعالى ومما ورد في القرآن الكريم فهي قصة قرآنية.

والغريب في الأمر أن نجد دارسين ومؤلفين محدثين ينكرون وجود هذا الباب من القرآن الكريم على أهميته وبروز جوانبه الفنية والأخلاقية والدينية.

فهذا بكري خلف الشيخ يذكر أنّ العلماء فرضوا للقصة الفنية ثلاثة عناصر فنية تتمثل في الموضوع والشخصيات والحوار، ثم يضعون حدودا دقيقة وشروطا لهذه العناصر، التي تجعل القصة فنية.[1]

فإذا أمعنا النظر وجدنا هذه العناصر الثلاثة متوفرة في القصة القرآنية مع غيرها مع فنيات العرض والسرد والوصف والتصوير... غير أن هذا الباحث يُخرج القصة القرآنية من دائرة القَصص الفني كما اصطلح عليه النقاد في العصر الحديث إذ يقول: «إن القصة في القرآن ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه، وطريقة عرضه وسير حوادثه، كما هي الحال في القصص الفني، إنما القصة فيه وسيلة من الوسائل الكثيرة التي استخدمها لغرضه الأصيل وهو التشريع وبناء الفرد والمجتمع، وإنّ القصة التي ترد فيه لا تختلف في غايتها عن المثل الذي يضربه للناس».[2]

رغم ما في هذا الرأي من جوانب الصحة إلا أنه لا ينبغي أن ينفي عن القصص القرآني جانبه الفني، وهو الجانب المعجز شأنه شأن النص القرآني كاملا، نعم نتفق على أنّ القرآن استعمل القصة وسيلة للوعظ الديني والاجتماعي وتقويم السلوك الإنساني وبثَّ من خلالها رسائل للبشرية جمعاء، ولكنّ كلّ هذا كان في قالب سردي فني معجز، فإذا لم تكن القصة فنية لماذا شدّت الأذهان وأبهرت العقول وأثرت في النفوس؟ ثم لماذا نُخضع النص القصصي القرآني لقواعد فنية وضعها نقاد في العصر الحديث في حين كان السبق الفني والسردي الإعجازي من ناحية الزمن للقرآن الكريم؟

[1] ينظر: بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ط 4، دار الشروق، بيروت، 1980، ص 216.
[2] المصدر نفسه، ص 217.

في الحقيقة لا مبرّر لهذا «إذن فالقصة الفنية في القرآن أعطتني المنهج الفني وأعطتني العظة فكانت بالأخيرة جزءا من القرآن الكريم أسهمت في بناء الفرد والمجتمع، وقوّمت الحياة وهي بالأولى لم تنفصل عنه إذ كانت المثل المعجز في فن بناء القصة».[1]

فالنموذج الأول أو السابق يُحتَذى ولا تطبّق عليه قواعد جديدة هو بعيد العهد عنها، ومع ذلك أثبت تكامله واكتمال عناصره، ذلك أنّ القصة القرآنية خدمت أغراضا دينية لكنها جمعت بينها وبين الأغراض الفنية في عرض الصور والمشاهد، وقد جعل التعبير القرآني الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية.[2]

وفي سياق آخر مختلف نجد الدكتور محمد أحمد خلف الله يعترف للقصة بالجوانب الأدبية والفنية لكنه يصنفها إلى ثلاثة أبواب أو ألوان: القصة التاريخية والتمثيلية والأسطورية، وفي المقابل يعترف بعدم تناول المفسّرين للأسطورة في القصة القرآنية، وعدم تجاوب المحدثين معها، إذ نجد نفورا واضحا من هذا المصطلح أن يُنسب شيء منه إلى القرآن الكريم.[3]

هذا الطرح يثير التحفظ نوعا ما من ادّعاء توظيف القرآن الكريم الأسطورة في قصصه، غير أنّنا نجده قبل هذا يذكر وجود القصة الخيالية متمثلة في القصة التّمثيلية إذ يقول: «لن نجد من يعارض في وجود القصة التمثيلية في القرآن الكريم وأنها وليدة الخيال وأن الخيال إنّما يسود هذا النوع من القصص لحاجة البشر إليه وجريهم في بلاغتهم عليه، والله سبحانه وتعالى إنما يحدّثهم من هذا بما يعتادون».[4]

وداعي التحفظ هنا هو نفي الخيال عن القصة القرآنية لأن الأسطورة تنزع عادة عن الحقيقة إلى الخيال واللامنطق، وفي هذا يقول جون كوهن: «إنني لا أستطيع أن أعتقد مع "ليفي شتراوس" أنّ الأسطورة بنية "منطقية"».[5]

لقد أثبتنا سابقا أن القرآن الكريم حدّث العرب بأساليبهم بما فيها من بلاغة وسحر في النُّظم والبيان وتفوَّق عليهم بل أعجزهم ولم يقووا على مجاراته، لكن هذا لا يعني أنه حدّثهم بحديث فيه خيال، مع أنه

---

[1] خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية منهجها وأسس بنائها، ص 134.

[2] ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 143.

[3] ينظر: محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ط 1، بيروت، 1950-1951 م، ص 197.

[4] المصدر نفسه، ص 195.

[5] اللغة العليا النظرية الشعرية، جون كوين، ترجمة وتقديم وتعليق: أحمد درويش، ط 2، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص 195.

من فنيات التعبير، وإذا كان القرآن الكريم قد وظف الخيال فذلك في ذهن المتلقي الذي يُعمل عقله ليتخيل المشهد ويستحضره وليس لأن ذلك المشهد وليد الخيال، وإذا قلنا منذ البداية إن القرآن بكل ما فيه حجة للمتقين وحجة على المكذّبين فكيف يحدث الإقناع بحجج خيالية، وهو يعتمد أساسا على المنطق والواقع بالدرجة الأولى؟

وفي هذا يقول عبد الكريم الخطيب نافيا وجود الخيال في القصة القرآنية: «ولكنّ الذي نريد أن نقرره الآن هو أن القصة القرآنية بنيت بناء محكما من لبنات الحقيقة المطلقة التي لا يطوف بحماها طائف من خيال ولا يطرقها طارق منه، ثم هي مع هذا قصة حيث سمى القرآن كل ما جاء على هذا النحو قَصَصا».[1]

القصص القرآني مبني على الحقيقة رغم ما فيه من أحداث غريبة وعجيبة، لكن يكفي أن السارد هو الله سبحانه وتعالى لنؤمن بكل ما جاء في القرآن من أخبار وقصص إيمانَنا بالغيب وما يحمله من مجهول بالنسبة إلينا، وفي المقابل نصدّق تلك القصص على أنها أحداث واقعة بالفعل في الماضي البعيد موصوفة ومصوّره تصويرا حقيقيا لا مكان للخيال فيه، ومع ذلك لا تخلو من عنصر التشويق واستمالة القارئ.

[1] عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص 40.

4-أغراض القصة القرآنية وتأثيرها على المتلقي:

لقد اعتنى الله سبحانه وتعالى بالجانب القصصي في القرآن الكريم أيّما عناية، بوصفه واحدا من الأساليب التي توسّل بها للتأثير في الناس وإقناعهم وعرض الحقائق عليهم، ومنه تتحقق الاستجابة المطلوبة والمنتظرة، وهي الاهتداء إلى الصواب واتباع تعاليم الدين الإسلامي، دين الحق والرشاد.

والقصة القرآنية «قصة هادفة، فهي ليست حلية للنص القرآني أو ترفا فنيا أو تأريخا لمجرد التأريخ، أو سردا لمجرّد التسلية والمتعة الفنية، وهي وإن كانت ذات خصائص فنية راقية وتأثير فذّ على المتلقي، فإنها صدق لا خيال فيه، وحق لا زيف فيه».[1] والقصة القرآنية من القرآن، لذا فإن لها ما له من إعجاز وتفوّق وجمال ورونق، وتكامل في العرض والبناء وكذا الهدف.

وتتحقّق من وراء القصة القرآنية عدّة أغراض أوّلها الغرض الديني، الذي تنسجم معه ويعمل الله تعالى على الوصول إليه من خلالها، كون الجانب الديني والعقيديّ هو أساس الدعوة الإسلامية المحمدية، فقد كانت القصة القرآنية «مرتبطة بالخط القرآني العريض وهو الدعوة إلى الله، وإرشاد الناس إلى الحق، وهدايتهم إلى الإيمان بالله والإسلام له، وإخراجهم من الظلمات الحالكة التي يتخبط فيها واقعهم الفاسد المرتبك إلى النور المنطلق من قلب الرسالة في آفاق الله ورحابه».[2]

وإذا كان الأدباء يعتمدون الكذب أو الخلق الفني بوصفه وسيلة من وسائل التشويق وشدّ القارئ إلى متابعة السرد، فإن القصة القرآنية في منهجها تركّز على الحقائق الاعتيادية وتُعرِض عن الخيال الفني المتوهّم، لأن رسالتها وغايتها سامية تتمثل في تقويم الحياة وبناء الأفراد والمجتمعات والتشريع لها، ولا تتحقق هذه الأغراض إلا بالحقيقة والواقع لا بالخيال والوهم.[3]

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾[4] وقال أيضا: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾[5] ففي قصص القرآن جميعا تأييد للرسول صلى الله عليه وسلم، وإثبات لصحة رسالته.

---

[1] حسن فضل عباس، قصص القرآن الكريم، ط 1، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1420 هـ/ 2000 م، ص 43.

[2] محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص 230.

[3] ينظر: خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، ص 133.

[4] سورة يوسف، الآية: 111.

[5] سورة الكهف، الآية: 13.

بالإضافة إلى أخذ العبرة والاتعاظ من قصص الأنبياء والأمم السابقة، ومنه «التأسّي بأولي العزم من الرسل فيما لاقوه في سبيل الله والدعوة إليه من الأذى والاضطهاد، وهم مع ذلك ثابتون على مبدئهم القيم ودينهم الحق، لم يعترهم وهم ولا ضعف، ولم تفتر لهم همّة، ولم يخالجهم شك إلى أن قضى الله أمره وأنجز لهم وعده»،[1] ومنه يقتدي المؤمن بأولئك الرسل والصالحين من عباد الله، فيتعلم الصبر على الشدائد وتحمّل الابتلاء مهما قسا، لأنه يثق تمام الثقة في نصرة الله عز وجلّ وإنجاز وعده، وفي هذا أيضا إعمال للعقل والتفكير، إلى جانب امتلاك الوجدان وتسلية النفس بالقصة القرآنية، قال الله تعالى:﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾.[2]

ومهما بقينا نعدّد ونحصي أغراض القصة القرآنية، لن نوفيها حقها، لأن كل شيء وكل كلام ورد في القرآن الكريم، كان لهدف ولحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى وارتضاها لعباده، فإنّ «في تلك القصص لعبراً جمّة وفوائد للأمة؛ ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها ويُعرض عمّا عداه ليكون تعرضه للقصص منزّها عن قصد التفكّه بها»،[3] فقد أراد لهم النجاة والهداية بشتّى الطرق والأساليب وكانت القصّة من أحسنها وأجملها وأجداها في بلوغ مختلف الأبعاد الإنسانية والتربوية والنفسية والجمالية والاجتماعية.

تمتلك القصة القرآنية كل هذه القدرة على التأثير خاصة النفسي والوجداني، لما فيها من عرض حي للفكرة والغرض، فيبدو الأشخاص وهم يتحركون ويتحاورون ويتحدّثون، وتُبث الحياة في الأحداث، وتظهر للمتلقي ماثلة أمامه وإن كانت لأقوام مضوا.[4]

والقصة القرآنية تستحوذ على ذهن وعقل وعاطفة المتلقي في آن واحد، ذلك أنها تنطلق منه لتصل إليه، فمحورها هو الإنسان، وهدفها هو الإنسان نفسه، نجدها تتحدّث عن الفتن لتقيه منها، وتتحدّث عن الجزاء والعقاب لترغبه في الأول وترهبه من الثاني، وتتحدّث عن الرسل والأنبياء ليكونوا عبرة له، فتقدّم له الدروس من خلال أمثاله من السابقين ويستجيب هذا المتلقي بدوره لنهجها التربوي الإرشادي والإصلاحي.

[1] عثمان فوزي علي، مباحث في الإعجاز القرآني، ص 184.

[2] سورة الأعراف، الآية: 176.

[3] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 1، ص 64.

[4] ينظر: فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، ص 43.

الفصل الثاني: الوظيفة الحوارية في سورة الكهف.

أولا: مواضع الحوار القصصي في سورة الكهف وأطرافه.

1- قصص سورة الكهف وموقع الحوار فيها.

2- مشاهد سورة الكهف وتجليات الحوار بين أطرافه فيها.

أ- في قصة أصحاب الكهف.

ب- في قصة صاحب الجنتين.

ت- في قصة سيدنا موسى والعبد الصالح.

ث- في قصة ذي القرنين.

ثانيا: الحوار القرآني القصصي في سورة الكهف عناصره وأشكاله ووظائفه.

1-عناصر الحوار القصصي في سورة الكهف.

2- أشكاله:

أ-الحوار الخارجي.

ب-الحوار الداخلي.

3-وظائف الحوار القصصي في قصص سورة الكهف.

ثالثا: نصية وعلاقات الحوار القصصي سورة الكهف.

1-نصيته.

2-علاقاته.

أولا: مواضع الحوار القصصي القرآني وأطرافه في سورة الكهف:

1-قصص سورة الكهف وموقع الحوار فيها:

كان القرآن الكريم ولا يزال منبع سحر بياني وجمال فنّي معجز، فهو نصّ متكامل في شكله نظمًا وأسلوبًا، وفي مضمونه من حيث ما تضمّنه من موضوعات متنوّعة ومتعدّدة تحمل جوانب الحياة جميعا بكل أسرارها، وتتحدّث عن الإنسان عقلا وعاطفة، وجسدا وروحا، وقد حرص الله سبحانه وتعالى من خلال القرآن العظيم على أن يقدّم للبشرية مفاتيح النجاح في الدنيا والآخرة لتحقيق السعادة وكشف الحقيقة وصولا إلى الهداية والرشاد، وغالبا ما يكون هذا بتقديم درس من دروس الحياة وأخذ العبرة منه بطريقة ليّنة أو شديدة، تتراوح بين الترهيب والترغيب، بأسلوب مشوّق وممتع ومؤثّر تمركز أساسا في واحد من أهمّ ما تضمّنه النّص القرآني، وجاء به لتحقيق أغراض إنسانية دينية واجتماعية... إلخ؛ إنه القصص القرآني أو القصّة القرآنية كما سبقت الإشارة إليها.

وسنركّز في هذا الفصل على واحد من ركائز القصة عموما والقصة القرآنية خصوصا وهو الحوار، بوصفه أساسا قويّا تقوم عليه القصة، وعنصرا حيويا وفعّالا يخدمها ويحرّك أحداثها متصلا بالشخصيات اتصالا مباشرا.

ونظرا إلى قيمة الحوار في القصة القرآنية بصفة خاصة آثرنا دراسته، ومحاولة بيان أهميته ودوره ومختلف وظائفه في القصص الواردة في سورة الكهف: موضوع الدراسة، وهي سورة يغلب عليها الطابع القصصي، «ففي أوّلها تجيء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصّة الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح، وفي نهايتها قصة ذي القرنين، ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة، فهو وارد في إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية، ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها».[1]

وتعدّد القصص في هذه السورة يقتضي تنوّع الشخصيات، واختلاف الأحداث وكذا كثرة الحوار ومجاراته لطبيعة كل قصة وشخصياتها، والمعاني والرسائل التي أراد الله سبحانه وتعالى تبليغها لعباده لتحقيق أغراض مختلفة.

وسورة الكهف «من سور القرآن الكريم المليئة بكهوف معنوية، الله سبحانه وتعالى جعل في هذه السورة معاني لابد للعقل أن يتدبرها، محتاجة إلى نوع من التفكير، نعرف معانيها ونعرف الحكم منها، فإذا عرفناها كشفت لنا عن أسرار كثيرة مما يريد الله تبارك وتعالى أن يلفتنا إليه، في القرآن الكريم نلاحظ أن

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد: 4، ص 2256.

القصص التي يرويها والأمثلة التي يضربها أخفى الله سبحانه وتعالى عنا أسماء أبطالها الحقيقيين، كما أخفى عنا زمان حدوثها، وذلك لأن قصص القرآن الكريم مقصود منها العبرة وليس القصّة نفسها».[1]

فنحن إذ نقرأ قصة من القصص القرآنية أو من قصص سورة الكهف على وجه التحديد، ونتعرض لشخصياتها التي تبدو ماثلة تتحرك وتتحدث، لا يهمنا من هي تلك الشخصيات ولا أشكالها، وإنما الأهم هو الدرس الذي قدّمته لنا، والعبرة أو الحكمة التي استخلصناها من حياتها أو مواقفها أو سلوكها وعقيدتها.

ففي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾،[2] يشغلنا الله سبحانه وتعالى بصورة الفتية وهم نائمون في الكهف –ومعهم كلبهم– عن البحث عن أسمائهم أو بلدتهم أو أعمارهم.

إن القرآن الكريم لا يتعرّض إلاّ إلى حال أصحاب القصة من ناحية صحة العقيدة وقوة الإيمان، فلا يذكر أنسابهم أو بلدانهم ولا اسم قومهم أو في أي عصر وُجدوا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾،[3] لم يذكر اسم المدينة، لأن العبرة تكمن في انبعاثهم ووصول رسولهم إلى تلك المدينة.[4]

وعندما نتّجه إلى قصة ذي القرنين نجد هذه الشخصية الحاكمة العادلة، لكن التركيز عليها كان من جانب الإيمان والأعمال الصالحة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝٨٤ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾.[5]

فشخصية ذي القرنين التي وردت في القرآن الكريم ولم يصرّح بأصلها أو مكانها المحدّد أو قبيلتها، لا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى، دون غيره من البشر المؤرخين أو المحققين، إنه ذو

[1] محمد متولي الشعراوي، سورة الكهف، دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة، جمهورية مصر العربية، ص 4.

[2] سورة الكهف، الآيات: 9– 11.

[3] سورة الكهف، الآية: 19.

[4] ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 1، ص ص 65، 66.

[5] سورة الكهف، الآيتان: 84، 85.

القرنين «القرآني[1] الذي ذكره الله عز وجل في كتابه العزيز، وأثنى عليه بالإيمان والإصلاح والعدل في سورة قرآنية عظيمة، وآيات إعجازية جليلة، وقصة تاريخية نادرة، مليئة بالدروس والعبر، طافحة بالعظات والمبادئ والحكم».[2]

فالقرآن الكريم تنزّه عن أن يكون سطحيا شكليا، بل ركز على عمق الشخصيات وأعمالها وآثارها، كما ركز على ما يمكن استخلاصه من القصة من عبر وأحكام ومبادئ ودروس تبقى خالدة، يتلقاها الناس جيلا بعد جيل دون أن تتغير قيمتها أو تضعف.

2- مشاهد سورة الكهف وتجليات الحوار بين أطرافه فيها:

إذا أردنا تحديد مواضع الحوار في سورة الكهف فهذا يعني تحديد السورة كاملة، لأنها سورة غلب عليها السرد القصصي وبالتالي غلب فيها الحوار، فهو يكاد لا يغيب عن جميع مشاهد قصصها، لكن بتفاوت وبتنوع في الشخصيات وأطراف المحاورات، كما أنه يختلف باختلاف القصة والمشهد والشخصية.

ويرافق الحوارُ جميع المشاهد دون استثناء، غير أننا نلاحظ كثرته وكثافته في قصة ونقصه في قصة أخرى، «ومن بديع الأسلوب القرآني أنّ ترتيب المشاهد يأتي على نسق لا نظير له في عالم الفن البشري».[3]

وعلى العموم ورغم تعدد القصص والمشاهد في هذه السورة إلا أنها تروي لنا قصة الصراع بين الإيمان والمادية، هذا الصراع النفسي بين الإيمان بالمادة وما يتبعها وبين الإيمان بالله وبالغيب، وفيها شرح لجوانب من العقيدة والعمل والأخلاق والنتائج والآثار، وتحذير من الإيمان بالمادة والظاهر، والكفر بالله والغيب.[4]

وقد جاء الحوار في مشاهد سورة الكهف كما يلي:

---

[1] ورد لذي القرنين هذا الوصف في هذا الكتاب: ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح، دراسة تحليلية مقارنة على ضوء القرآن والسنة والتاريخ، لتمييزه عن غيره ممن لقب بذي القرنين عبر العصور والتاريخ.

[2] محمد خير رمضان يوسف، ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح، دراسة تحليلية مقارنة على ضوء القرآن والسنة والتاريخ، ط 2، سلسلة أعلام القصص القرآني (3)، دار القلم، دمشق، سوريا، الدار الشامية، بيروت لبنان، 1451 هـ/ 1994 م، ص 247.

[3] محمد عبد الله عبده دبور، أسس بناء القصة من القرآن الكريم، ص 249.

[4] ينظر: أبو الحسن علي الحسني الندوي، الصراع بين الإيمان والمادية، تأمّلات في سورة الكهف، ط 1، دار القلم، الكويت، 1390هـ/ 1981م، ص 23.

أ-في قصة أصحاب الكهف:

تبدأ مجريات هذه القصة من قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾.[1] إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾.[2]

وتجدر الإشارة إلى أن الحوار في هذه السورة ليس موجودا في ثنايا القصص وبين شخصياتها فحسب، بل نجده أيضا خارجها متمثلا في خطاب الله عزّ وجل لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، كما في الآيات التي تقع بين قصة أهل الكهف وقصة صاحب الجنتين، والتي يقول فيها الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾[3] إلى قوله: ﴿* وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢﴾.[4] حيث تبدأ القصة الثانية من هذه الآية الكريمة.

أولى محطات الحوار في قصة أهل الكهف تجلّت في خطاب الله سبحانه وتعالى نبيَّه الكريم: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾[5] والمقصود من هذا الخطاب هو الرّد على قومه الذين سألوا عن هذه القصة بدفع وإغراء من أهل الكتاب؛[6] إذ في القصة ما يثير التعجب، لكن لا عجب مع قدرة الله سبحانه وتعالى، ولا شك في تنزيله الذي حمل نبأ أولئك الفتية المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣﴾.[7]

---

[1] سورة الكهف، الآية: 9.

[2] سورة الكهف، الآية: 26.

[3] سورة الكهف، الآيتان: 27، 28.

[4] سورة الكهف، الآية: 32.

[5] سورة الكهف، الآية: 9.

[6] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 259.

[7] سورة الكهف، الآية: 13.

فمن قوله تعالى هذا عرفنا هيئة أولئك الأشخاص المؤمنين، «وبهذه الصفة علمنا أن أهل الكهف لم يكونوا من الشيوخ الضعفاء، أو مجموعة من النساء، إنما هم فتية أي فيهم شباب وفتوة وأنّهم آمنوا بربّهم».[1]

هؤلاء الفتية المؤمنون لمّا خافوا على دينهم من طغاة زمانهم هربوا به إلى الكهف: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.[2]

ومما يدل على صدق إيمانهم هذا الحوار أحادي الطرف المتمثل في دعاء الله سبحانه وتعالى طلبا للرحمة والثبات.

ثم يسرد الله سبحانه وتعالى حوارا دار بين الفتية وتبادلوه فيما بينهم بهدوء في الآيات التي قال فيها تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.[3]

وعندما بعثهم الله سبحانه وتعالى بعد نومهم آمنين في كهفهم، همّوا بالتساؤل عن طول الأمد الذي قضوه في ذلك الكهف، ويتجلى ذلك في حوار آخر: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾[4] إنه مشهد ظل فيه الحوار مستقرا بين الفتية مبيّنا حرصهم على عدم انكشاف أمرهم، ظنّا منهم أنهم مازالوا في عهد الطغاة الذين خافوا منهم على دينهم، واجتنبوا اضطهادهم بلجوئهم

[1] محمد متولي الشعراوي، سورة الكهف، ص 8.

[2] سورة الكهف، الآية: 10.

[3] سورة الكهف، الآيات: 14- 16.

[4] سورة الكهف، الآيتان: 19، 20.

إلى ذلك الكهف، لكن بخروج صاحبهم إلى المدينة «وجد الناس غير الناس والمدينة غير المدينة والدين غير الدين، وجد دينه هو الذي يحكم ويسود».[1]

ثم نطالع بعد ذلك جدلا بين أهل المدينة الذين عثروا على الفتية بعد موتهم، حيث نشأ بينهم نقاش حول كيفية إكرامهم، وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾،[2] معناه وجود تنازع وهو: "**الجدال القوي**".[3]

لكن الفئة الغالبة انتهى رأيها إلى بناء مسجد عليهم إكراما لهم وحفظا لذكرهم ولأجسادهم. (وقد بيّنا سابقا أن الجدل يقتضي المغالبة والخصومة في الرأي).

ويستمر الجدل قائما حول عددهم إذ قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[4] ثم يفتكّ الله سبحانه وتعالى الحوار ليكون طرفا أساسيا فيه، يأمر نبيه تارة وينهاه تارة أخرى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.[5]

هذا المشهد الحواري هيمن فيه كلام الله سبحانه وتعالى، كما هيمن فيه أسلوب الأمر والنهي، حيث ورد الأمر في أربعة مواضع (الفعل "قل" ورد ثلاث مرات، والفعل "اذكر" ورد مرة واحدة) والنهي في ثلاثة مواضع (لا تمار، لا تستفت، لا تقولَنَّ).

---

[1] أبو الحسن علي الحسني الندوي، الصراع بين الإيمان والمادية تأملات في سورة الكهف، ص 47.

[2] سورة الكهف، من الآية: 21.

[3] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 289.

[4] سورة الكهف، من الآية: 22.

[5] سورة الكهف، الآيات: 22-26.

أما الفعلان "أبصر به" و"أسمع" فجاءا على صيغة الأمر لإنشاء التعجب فالصيغة "أَفْعِل به" صيغة تعجب قياسية إلى جانب الصيغة "ما أفعله" وهما فعلان ماضيان.[1]

وبهذا تنتهي القصة الأولى لكنّ دروسها وعبرها لا تنتهي، يكفي أن نلخّصها في أن الإيمان يغلب الكفر، ومن كان مؤمنا صادقا واستعان بالله نصره وجعله قويا لا يُفتن في دينه.

كما نلخّص أطراف حوار هذا المشهد في المخطط الآتي الذي يقسّم المشهد نفسه إلى مشاهد جزئية أو فرعية، احتل الحوار فيها مساحة شاسعة وغالبة بشكل لافت:

1/ الله ⟵ الرسول صلى الله عليه وسلم (تمهيد للقصة).

2/ الفتية ⟵ الله سبحانه وتعالى (دعاء).

3/ الفتية فيما بينهم. (قرار الهروب من الطغيان إلى الكهف).

4/ أهل المدينة فيما بينهم (التساؤل عن عدد الفتية، وكيفية إكرامهم بعد موتهم).

5/ الله ⟵ الرسول صلى الله عليه وسلم (أوامر ونواه).

ب-في قصة صاحب الجنتين:

ذكرنا سابقا أن الله سبحانه وتعالى قد فصل بين القصة الأولى (أهل الكهف) وهذه القصة بحوار أحادي الطرف توجّه به الله سبحانه وتعالى إلى نبيه الكريم، أما القصة الثانية فتبدأ من قوله تعالى: ﴿*وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾[2] إلى قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾[3] لتستغرق هذه القصة اثنتي عشرة آية، فهي أقصر من القصة السابقة التي استحوذت على ثمان عشرة آية وتنوّعت أطراف الحوار فيها، بينما في مشهد صاحب الجنتين يخاطب الله رسوله الكريم ويأمره بضرب المثل للمشركين والمؤمنين بهذا الرجل الغني، بعدما وضّح لهم ما أعدّه لهم في ناره أو جنته من عقاب أو ثواب.

ثم يبدأ الحوار بين الثري وصاحبه وهو فرح بماله، يظنّ أنه لا يزول، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧

[1] ينظر: مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ط 1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1427هـ/ 2006 م، ص 44.

[2] سورة الكهف، الآية: 32.

[3] سورة الكهف، الآية: 44.

لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾.[1]

استمر هذا الحديث الطويل بين الرجلين دون انقطاع وهما يتبادلان الحوار، لتنتهي القصة بآيتين سرَد فيهما الله سبحانه وتعالى عاقبة صاحب الجنتين، والعبرة منها أن من اتّخذ الله وليا لن يخيب أبدا، ومن ظنّ ماله ينفعه ويدوم ستكون نهايته وخيمة، فهذا المشهد «تسير فيه الأحداث سيرا طبيعيا، إنسانان من الناس يتجادلان في أمر تختلف فيه مذاهب الناس ومنازعهم في الحياة، الاستكثار من المال والزهو به، واتخاذه وسيلة للفخر والمباهاة أكثر منه سبيلا إلى الحياة الطبيعية الكريمة، فالناس يختلفون في هذا أشدّ الاختلاف، منهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق للخيرات، وقد أمسك القرآن الكريم بالصورة البارزة من صور هذا الخلاف».[2]

ونلاحظ أن هذا المشهد القصصي البديع كان أبسط من سابقه، حيث سار على خط واحد مستقيم إلى نهاية القصة ولم تكثر المحطات الحوارية ولم تتنوع الأطراف كثيرا.

وتجدر الإشارة إلى أن معظم الحوار دار بين الرجلين، والمخطط الآتي يلخّص الأطراف التي أدارت حوار هذه القصة:

1/ الله ⟵ الرسول صلى الله عليه وسلم (أمره بضرب مثل بصاحب الجنتين حتى يكون عبرة).

2/ صاحب الجنتين ⟵ الرجل الفقير (الاعتزاز والفخر بما يملكه).

3/ الفقير ⟵ صاحب الجنتين (عتابه على الكفر بالله والسعادة والوهمية، ومحاجّته بدليل عقلي ومنطقي: أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا، وكنا قد رأينا أن المنطلق الأساس للحوار هو العقل).

4/ صاحب الجنتين ⟵ نفسه (الندم والتحسر لخسارته كل شيء).

[1] سورة الكهف، الآيات: 34-42.

[2] عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص 147.

تلخّص هذه القصة حال من يفتنه المال في الحياة الدنيا فيشغله عن الله تعالى، ويظنّ أنه قوي بماله وأن ماله لن يزول، ولكن قدرة الله وسعت كل شيء، وبإرادته يقلّب الأوضاع؛ فيصبح الغني فقيرا لا يملك شيئا، والفقير غنيا بيده كلّ شيء وفي قلبه إيمان ويقين بالله تعالى، فهو لم يبخل على صاحبه الضال بالنصيحة، وقد دعاه برفق ولطف إلى «أن يترفق بنفسه، وأن يتخفف من هذا الغرور الذي يملأ كيانه، وأن يعود إلى ربه بعد أن أضلّه المال وأغواه، والرجل سادر في غيّه لا يسمع لقول ولا يستجيب لناصح، ويتأزم الأمر بين الرجلين ويصل إلى مرحلة التحدّي، فصاحب الجنتين يتحدّى بهما القدر فهما باقيتان أبد الدهر».[1]

لكن الرجل الفقير لجأ إلى الله تعالى وتوسّل به، وآمن بتحقق عجائب قدرته التي أنهت غرور صاحبه، وانتهى معه هذا الجدل وتلك المباهاة بما وهبه الله تعالى من مال ونعم.

وبعد إنهاء قصة صاحب الجنتين عاد الله سبحانه وتعالى ليخاطب نبيه الكريم ويأمره مرة أخرى بضرب مثل آخر للناس الذين تغريهم الحياة الدنيا ويتعلّقون بها، لإعلان زوال هذه الحياة وفنائها، وابتداءً من هذا المثل الإلهي القوي تنطلق محطة أخرى في السورة طويلة فاصلة بين قصة صاحب الجنتين وقصة سيدنا موسى مع العبد الصالح، يتخلّلها حوار كان طرفه الأساس هو الله سبحانه وتعالى، أداره وتحكّم فيه مع مختلف الأطراف، قال الله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾.[2] واستمر إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ٥٩﴾.[3] وبعدها مباشرة تبدأ قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام.

وعلى الرغم من طول هذه المحطة الفاصلة بين القصتين واكتسابها صبغة سردية، إلا أنه لا يمكننا اعتبارها قصة لعدم توفرها على عناصر القصة، فقد غلب عليها طابع العموم والحرص على تقديم المواعظ ووصف حال الكفار وإثبات قدرة الله تعالى، وهذا رغم وجود شخصية سيدنا آدم عليه السلام، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۚ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾.[4]

---

[1] المصدر السابق، ص 147.

[2] سورة الكهف، الآية: 45.

[3] سورة الكهف، الآية: 59.

[4] سورة الكهف، الآية: 50.

وهي تقريبا قصة وردت في آية واحدة بمنتهى الإيجاز والكثافة والإعجاز، وجاءت بالمعطيات المهمة والجديدة الآتية:[1]

- إن إبليس من الجنّ، وهي الآية الأولى التي يصرّح فيها الله تعالى بذلك.
- إن لإبليس ذرية.
- إنه فسق عن أمر ربه بعد أن لم يكن كذلك.
- إنه لا يجوز لبني آدم أن يتخذوا إبليس وذريته أولياء من دون الله مع عداوته لهم.

وفي هذه الآية الكريمة تتجلى أطراف الحوار كما يلي:

الله ⟵ الملائكة (أمرهم بالسجود لآدم).

الله ⟵ عباده (عتاب ضمني؛ إذ اتخذوا إبليس وذريته أولياء لهم مع أنهم أعداء لهم).

فتكرار قصة سيدنا آدم في هذا الموضع من سورة الكهف وبهذه الصورة الخاطفة والكلمات الموجزة، له حكمته وفائدته، والمقصود من تكرار قصص الأنبياء عموما هو «إفادة إهلاك من كذّبوا رسلهم، والحاجة داعية إلى ذلك لتكرير تكذيب الكفار للرسول صلى الله عليه وسلم، فلما كذّبوا أُنزلت قصة منذرة بحلول العذاب كما حلّ على المكذّبين... وبهذا أيضا يحصل الجواب عن حكمة عدم تكرير قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين، وقصة موسى مع الخضر».[2]

فمتى ظهر تكذيب الكفار والمشركين أظهر الله لهم المثل والعبرة ممّن سبقوهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ۝٦﴾.[3]

وما الغرض من التكرار إلا التأكيد على عاقبة المكذّبين والرافضين سنّة الله وشرعه الذي بيّنه عبر الأزمنة والحقب للأقوام المختلفة عن طريق رسله وأنبيائه الكرام عليهم الصلاة والسلام.

ت- في قصة سيدنا موسى والعبد الصالح:

تقع هذه القصة في ثلاث وعشرين آية كريمة لتفوق القصتين السابقتين في عدد الآيات التي استغرقها السرد القصصي، وتبدأ من قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ

[1] فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، ص 114.

[2] ينظر: جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج 1، ص 265.

[3] سورة الأنعام، الآية : 6.

مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.[2]

ونطالع في هذا المشهد القصصي مشهدين، يحضر في كليهما سيدنا موسى عليه السلام بوصفه طرفا أساسيا ومهما في الحوار. في المشهد الأول مع فتاه، وفي المشهد الثاني مع العبد الصالح (الذي يسمى الخضر).

ففي المشهد الأول يصوّر الله سبحانه وتعالى للمتلقي مرافقة هذا الفتى لسيدنا موسى عليه السلام في رحلته، وتبادلهما الحوار الذي كان باستخدام الفعل "قال"، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا المشهد أقصر من المشهد الثاني، غير أنّه بلغ درجة من التّصوير والتكامل الذين لا يمكن مجاراتهما أو الوصول إليهما، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾.[3]

فكان حوارا هادئا ينقل أحداثا متسلسلة، ثم نجده ينتقل بالمتلقي مباشرة إلى المشهد الثاني، حيث قال الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا

[1] سورة الكهف، الآية: 60.

[2] سورة الكهف، الآية: 82.

[3] سورة الكهف، الآيات: 60-64.

زَكِيَّةَۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِيْ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِيْ ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.[1]

نلاحظ تصدّر الجمل الحوارية بالفعل "قال" غالبا، وقد استمر هذا الحوار بالتناوب بين سيدنا موسى والعبد الصالح، ليظلّ انتباه القارئ مركّزا عليه، حيث لم يفلت الحوار من هذين الطرفين إلى نهاية المشهد.

كما نلاحظ عدم تساوي المتحاورَين في المستوى الثقافي، فنجد العبد الصالح أوسع علما، ويتبوأ مرتبة المعلّم، في مقابل سيدنا موسى الذي يظهر بشخصية المتعلم أو التلميذ أو طالب العلم المؤدّب، ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾.[2]

ففي هذه الآيات وحتى في الآيات التي بعدها، يحاور سيدنا موسى هذا العبد العالم ليعرف الحقيقة منه لأنه أكثر منه دراية وعلما.[3]

وقد ذُكر أن سفر سيدنا موسى مع فتاه ولقاءه بعد ذلك بالعبد الصالح، كان سببه أن موسى عليه السلام «سئل: هل في الأرض أحد أعلم منك؟ فقال: لا، أو حدّثته نفسه بذلك، فكره ذلك له، فأراد الله تعريفه أن

[1] سورة الكهف، الآيات: 65- 82.

[2] سورة الكهف، الآيات: 66- 69.

[3] ينظر: محمد أحمد خلف الله، مفاهيم قرآنية، ص 121.

من عباده في الأرض من هو أعلم منه، وأنه لم يكن له أن يحتم على ما لا علم له به، ولكن كان ينبغي له أن يكل ذلك إلى عالمه، وقال آخرون: بل كان سبب ذلك أنه سأل الله جلّ ثناؤه أن يدله على عالم يزداد من علمه إلى علم نفسه».[1]

والآية الكريمة التي تدل على حاجة موسى إلى علم هذا العالم وعدم تكافئه معه هي قوله تعالى على لسان عبده الصالح: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾.[2]

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلّمنا أنه إذا أعطى أحدا من عباده علما، فلا يحقّ لنا أن نقيسه بعلمنا، فكلّ ما فعله العبد الصالح كان خيرا، ولكن موسى عليه السلام لأن عنده ظاهر العلم رتّب على الأحداث التي وقعت أمامه نتائج غير صحيحة وبعيدة عن الحقيقة.[3]

وحوار قصة سيدنا موسى في سورة الكهف دار بين ثلاثة أطراف عبر مشهدين وكان كالآتي:

موسى عليه السلام ⟵ فتاه.

الفتى ⟵ موسى عليه السلام.

موسى عليه السلام ⟵ العبد الصالح.

العبد الصالح ⟵ موسى عليه السلام.

وإذا كان الحوار قد احتلّ مساحة واسعة في القصتين السابقتين، فهو في هذه القصة قد هيمن على مساحة السرد القصصي كلها، وقدّم الله سبحانه وتعالى من خلاله الشخصيات والأحداث، وصور مجريات القصة في قالب مسرحي لافت ومشوق، بحيث تثير فضول المتلقي خاصة لمعرفة الحقيقة التي غابت عن سيدنا موسى وكانت بحوزة العبد الصالح، لينقشع الضباب في نهاية المشهد ببيان حقائق وخلفيات التصرفات التي قام بها هذا الرجل العالم، «وفي دهشة السرّ المكشوف يختفي الرجل كما بدا، لقد يخطر للأذهان الدهِشة بعد أن تصحو أن تسأل: من هذا؟ ولكنها لن تتلقى جوابا، لقد مضى في المجهول كما خرج من المجهول، فالقصّة تمثّل الحكمة الكبرى وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار، ثم تبقى مجهولة أبدا».[4]

---

[1] الطبري، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ص 119.

[2] سورة الكهف، الآية: 68.

[3] ينظر: محمد متولي الشعراوي، سورة الكهف، ص ص 60، 61.

[4] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 185.

فقد تحقق في هذا المشهد أو القصة عنصر التشويق، ذلك أن تصرفات الرجل غامضة وغريبة، وقد حدثت دون أن يفسّرها لسيدنا موسى عليه السلام، إلى أن أنبأه بتفسيرها دفعة واحدة، فلو فسِّر كلّ حادث على حده لما ظل فضول نبي الله يشدّه إلى معرفة الحقيقة.

ث- في قصة ذي القرنين:

تبدأ قصة ذي القرنين مباشرة بعد نهاية قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح دون أن نجد آيات تفصل بينهما، مثلما عوّدنا الله سبحانه وتعالى في القصص السابقة، وتبدأ من قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾[1] وتنتهي عند قوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾.[2]

وتستغرق مجريات هذه القصة ست عشرة آية، وباقي الآيات إلى نهاية السورة تولّى فيها الله سبحانه وتعالى بيان وعرض عاقبة الكافرين، وتحدث عن نار جهنم، نهاية الأخسرين أعمالا، ثم توجّه إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما سوف ينالونه من الله سبحانه وتعالى من جنّات الفردوس، ومن جزاء لأنهم أحسنوا عملا.

وعلى الرغم من وجود لمحات حوارية في هذه الآيات التي ختم الله تعالى بها سورة الكهف، إلا أنها لم ترد في قالب قصصي حتى نعنى بها وبدراستها.

ونجد في قصة ذي القرنين المواقف الحوارية مقسّمة إلى موقفين أو مشهدين:

المشهد الأول:

عبّرت عنه الآيات التي يقول الله تعالى فيها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.[3]

---

[1] سورة الكهف، الآية: 83.

[2] سورة الكهف، الآية: 98.

[3] سورة الكهف، الآيات: 83- 91.

حيث يبدأ المشهد بالآية الكريمة التي تبدأ بحوار أو خطاب الله سبحانه وتعالى بلفظ "ويسالونك"، «معنى هذا أن هناك سائلا ومسؤولا، الذي سئل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذين سألوه هم اليهود لأنهم أهل كتاب».[1]

أما المسؤول عنه فهو ذو القرنين، لم يذكر القرآن الكريم شيئا آخر عنه سوى لقبه، فلم يسمّه باسمه ولم يذكر بلاده أو قومه أو زمن وجوده، لأن الغرض من القصة هو الإفادة مما فيها من حكم وعبر، أما الاختلاف في تسميته والحقائق التاريخية المتعلقة به، فإن مجاله ليس القرآن وإنما التاريخ والقصص والأخبار.[2]

وأما الحوار فيوجّهه الله تعالى إلى ذي القرنين بعدما كان بينه وبين رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وبعدما بيّن الله تعالى أنه مكنه في الأرض ووهبه من أسباب الحُكم، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٖ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾.[3]

في هذه الآية الكريمة يخيّر الله تعالى ذا القرنين بين تعذيب أولئك القوم الكافرين أو توليه عذابهم بنفسه، فاختار أن يدعوهم، فمن فضّل البقاء على ظلمه وكفره يعذبه، ومن آمن وعمل صالحا يحسن إليه.[4]

ويأتي جواب ذي القرنين في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨﴾.[5]

وحاصل الأمر أن ذا القرنين قد مضى في طريقه «إلى أن وصل إلى مكان يسكنه الناس في المغرب، ويرجع إلى أن يصل إلى مكان يسكنه الناس في المشرق، فيجد هنالك قوما بدائيين وهم عراة ليس لهم ما يسترهم إلا الشمس، ولم يحدّثنا القرآن شيئا عمّا جرى بينه وبينهم».[6]

فهذا الرجل الصالح الخيّر ضرب في الأرض حتى وصل مشرقها ومغربها، وفي القطبين وجد قومين على ضلالة كان لابد عليه من إصلاح شأنهم وإقامة أمرهم.

---

[1] محمد متولي الشعراوي، سورة الكهف، ص 72.

[2] ينظر: تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج 16، ص 19.

[3] سورة الكهف، الآية: 86.

[4] ينظر: الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 629.

[5] سورة الكهف، الآيتان: 87، 88.

[6] فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، ص 75.

المشهد الثاني:

عبّرت عنه الآيات التي يقول فيها الله جل وعلا: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ۝٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ۝٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ۝٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ۝٩٧ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ۝٩٨﴾.[1]

ظهر حديث القوم لذي القرنين في آية واحدة، في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ۝٩٤﴾[2] بينما باقي الحوار صدر من جانب أو طرف ذي القرنين وحده كما يظهر في الآيات السابقة.

ويظهر يأجوج ومأجوج على أنهم قوم فاسدون مفسدون، ولا يهمّنا هنا بل لا يسعنا المقام أن نفصّل الحديث عنهم وعن أصل تسميتهم أو أصل وجودهم، لأن الأمر فيه خلاف ولا جدوى من الخوض فيه، وليس لنا إلا أن نكتفي بالإيمان بوجودهم كما جاء ذكرهم في القرآن الكريم.

وما ثبت رغم كل تلك الاختلافات في المعلومات ومصادرها أنّ يأجوج ومأجوج «كلمة تطلق على أقوام همجيين شأنهم الفساد في الأرض، وقد كان لهم وجود أيام ذي القرنين، حيث مُنعوا من إفساد الحياة على غيرهم حينما وضع حدًّا لغاراتهم ببناء السد».[3]

ولأنهم أكثروا الفساد استنجد ضحاياهم بذي القرنين، وكانوا مجاورين ليأجوج ومأجوج وهم أضعف منهم، وقد افتتحوا حوارهم بنداء يدل على استغاثتهم وقوله تعالى: **لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا** بقراءة الجمهور؛ أي لا يَفهمون قول غيرهم، أو لا يُفْقِهون قولهم بقراءة حمزة والكسائي؛ أي لا يستطيعون إفهام غيرهم قولَهم، والمعنيان متلازمان.[4]

---

[1] سورة الكهف، الآيات: 92-98.

[2] سورة الكهف، الآية: 94.

[3] محمد خير رمضان يوسف، ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح، ص 329.

[4] ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 16، ص 32.

هذا الرجل الذي مكّن له الله في الأرض ومنحه من كلّ شيء سببا، رفض اقتراح أولئك المستضعفين بأن يجعلوا له خرجا مقابل كفّه أذى يأجوجَ ومأجوجَ عنهم، وكان جوابه واضحا في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾.[1]

والحديث عن ذي القرنين قد يطول لكنّ الله سبحانه وتعالى أحسن التعريف به وبكل إيجاز وإعجاز على أنه ملك صالح ومصلح، حكم بالعدل، وحلّ الخير أينما حل، «كما أن اليهود والكفار–الذين امتحنوا الرسول صلى الله عليه بهذا السؤال–لم يعودوا بأي استفسار آخر عنه بعد أن تجلّت لهم الحقيقة كاملة».[2]

والحوار في قصة ذي القرنين بمختلف مواقفها ومشاهدها يكشف سلوك هذا الرجل المستقيم الحريص على نشر الخير والسلام أينما ذهب، غير مستغلّ حكمَه ولا نفوذه ولا قوّته.

وتتجلى أطراف الحوار في هذا المشهد القصصي الخاص بذي القرنين كما يلي:

الله ⟵ الرسول صلى الله عليه وسلم (الإخبار عن ذي القرنين).

الله ⟵ ذو القرنين (تخييره في أمر عذاب القوم).

ذو القرنين ⟵ الله (جوابه بتعذيب المستمرين في ظلمهم والاحسان على غيرهم).

القوم ⟵ ذو القرنين (الاستنجاد به لبناء سد بينهم وبين يأجوج ومأجوج).

ذو القرنين ⟵ القوم (قبول نجدتهم دون مقابل مع طلب مساعدتهم لإنجاز السد).

ما نلاحظه من خلال تتبعنا لمواضع الحوار في قصص سورة الكهف وتحديد أطرافه أن الحوار طغى من جهة، وكان متنوّعا من جهة أخرى ومختلفا في قصة من هذه القصص عنه في قصة أخرى، وسيأتي الحديث عن هذه النقطة في السياق والموضع المناسبين.

[1] سورة الكهف، الآية: 95.

[2] محمد خير رمضان يوسف، ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح، ص 254.

ثانيا: الحوار القرآني القصصي في سورة الكهف عناصره وأشكاله ووظائفه:

ذكر محمد حسين فضل الله العناصر التي يجب أن تتوفر في كلّ حوار، ودرسها في ضوء التّصوّر القرآني، ونحن هنا نذكرها ونحاول تطبيقها على النصوص الحوارية التي حدّدناها في سورة الكهف، والتي تشكل المشاهد القصصية كما قسمناها: قصة أهل الكهف، قصة صاحب الجنتين، قصة سيدنا موسى والعبد الصالح، وقصة ذي القرنين.

وهذه العناصر كما ذكرها محمد حسين فضل الله هي:[1]

1- شخصية المحاوِر الذي يدير عملية الحوار.

2- شخصية الطرف الآخر للحوار. (المتلقي).

3- خلق الجوّ الهادئ للتفكير المستقل.

4- معرفة المتحاورين للفكرة، موضوع الحوار.

5- أسلوب الحوار.

وفيما يلي سنرصد هذه العناصر وفق تجلّيها وتموقعها في أحداث القصص المذكورة سابقا.

1-عناصر الحوار القصصي في قصص سورة الكهف:

أ-شخصية المحاوِر الذي يدير عملية الحوار:

وهي شخصية المرسِل أو صاحب الفكرة التي يريد إقناع الآخر بها، ويبذل ما في وسعه لتحقيق هدفه وهو تقبّل المستقبِل لما وصل إليه الحوار من نتائج، لكن من الضروري «أن يملك كلّ من الطرفين حرية الحركة الفكرية التي يملك معها الثقة بشخصيته الفكرية المستقلة، فلا يكون واقعا تحت رحمة الإرهاب الفكري والنفسي الذي يشعر معه بالانسحاق أمام شخصية الآخر».[2]

وهذا مما يجعل هذا الأخير يفقد ثقته في نفسه وقدرته على تبادل الحوار والمعلومات مع غيره، ويشعر بالضغط الفكري والضّعف النفسي، وهذا ما نجده في حوار الله سبحانه وتعالى مع رسوله الكريم في قصة أهل الكهف، في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣﴾.[3]

---

[1] محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص 68.

[2] المصدر نفسه، ص 68.

[3] سورة الكهف، الآية: 13.

فقوله تعالى "بالحق" يفرض على الرسول وغيره الإيمان بنبإ أولئك الفتية دون ترهيب أو تهديد أو ضغط، وإنما هناك مساحة من التقبل الفكري والثقة.

كما نجد مثله في الآية الكريمة: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾.[1]

أين نجد قرار الفتية معا القاضي باللّجوء إلى الكهف عن طواعية منهم جميعا، أي كان هناك تقبّل فكري حرّ لهذا المكان المختار الذي رأوا فيه المأوى الآمن لهم بالإجماع.

وهو ما يتضح أيضا في حوار الرّجل المؤمن مع صاحب الجنتين، حيث عرض عليه الإيمان والإعراض عن الغرور والثقة في الدنيا ومالِها ومغرياتها: ﴿٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١﴾.[2]

ففي هذه الآيات محاولة لإقناع الطرف الآخر وتذكيره بقدرة الله تعالى، مع ما يرافق هذا الحوار من استنكار.

ب-شخصية الطرف الآخر للحوار:

وهي الشخصية المستقبلة لكلام المحاوِر، والتي نجدها في قصص سورة الكهف أحيانا تردّ على شخصية المرسِل وتبادله الحوار، وأحيانا تكتفي بالاستماع والاستقبال.

مثال الأولى يتجلّى في حوار سيدنا موسى مع فتاه ثم مع العبد الصالح، حيث بيّنا سابقا أن هذه القصة تشكّلت في قالب حواري طاغ مما أدى إلى مسرحة الأحداث بصورة لافتة.

ومثال الثانية نجده في القصة نفسها، وذلك عندما تولّى العبد الصالح تفسير تصرفاته لسيدنا موسى، حيث أمسك طرفَ الحوار واستحوذ عليه دون أن نجد ردّا من سيدنا موسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ

[1] سورة الكهف، الآية: 16.

[2] سورة الكهف، الآيات: 37-41.

رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.[1]

لكن إذا لم يقتنع هذا الطرف المتلقّي برسالة الطرف المحاور أو المرسل فإنّ الحوار لا يأتي بنتيجته المطلوبة، نظرا إلى غموض معين أو عدم وضوح الصورة، وهذا ما نجده في حوار سيدنا موسى مع الخضر أثناء مرافقته له، والذي تبينه الآيات التالية: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾.[2]

ففي كل موقف يعود سيدنا موسى إلى سؤال العبد الصالح مع أن هذا الأخير نبهه على ألا يسأله، ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾.[3]

ولكنّ إلحاح موسى عليه السلام يدلّ على عدم صبره الذي كان العبد الصالح متأكّدا منه.

ت-خلق الجو الهادئ للتفكير المستقل:

تعدّ هذه النقطة من أهم ما يتطلّبه الحوار لتحقيق هدفه، وذلك بالابتعاد عن الأجواء الانفعالية المعيقة للتفكير والتأمّل، فإذا وجد مثلا جوّ انفعالي اجتماعي تتحمّس له الجماعة وتقتنع بأفكاره وتؤيدها

[1] سورة الكهف، الآيات: 78-82.

[2] سورة الكهف، الآيات: 66-77.

[3] سورة الكهف، الآيتان: 67-68.

من جهة أو ترفضها من جهة أخرى، فإنّ الإنسان قد يستسلم لها تلقائيا ولا شعوريا، مما قد يؤثّر على استقلالية شخصيته وحريته الفكرية.[1]

وفي هذه الحالة لا بدّ من المواجهة في إطار ما يوفره المتحاورون من أجواء هادئة للقضاء على الأجواء الانفعالية أو تفاديها.

فالجو العام الذي نحسّه في قصة أصحاب الكهف هو كفر الناس وتعصّبهم وتوعّد كل من خالف طريقهم بالقتل والتعذيب، قال الله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾.[2]

فلو استسلم الفتية للجو العام، ولو خافوا من بطش أهاليهم لكفروا مثلهم، لكنّهم اختاروا الإصرار على إيمانهم واللّجوء إلى الكهف هربا بدينهم من الكفار.

ومثال الجو الهادئ بين المتحاورين ما دار بين ذي القرنين والقوم الذين وجدهم بين السّدين في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾.[3]

فهو لا يحتاج أموالهم، لكن يريد منهم وهم عدد لا يستهان به أن يعينوه بقوتهم الجسمية ما داموا قد حُرموا القوة العقلية والقدرة على التخطيط، فإن هم فعلوا ذلك جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج "ردما" تصعب إزالته.[4]

فالقوم في موقف ضعف جعلهم يستغيثون بذي القرنين، ولأن بيده القوة والقدرة على إغاثتهم وإيجاد الحلّ لهم لمنع فساد يأجوج ومأجوج عنهم، فإن الطلب من الضروري أن يكون بهدوء وتوسّل، وبالتالي كانت الاستجابة، وكان تسخير الإمكانيات لجعل "ردم" بين تلك الأقوام، وكفّ ظلم وأذى المفسدين عن الضعفاء والمسالمين.

---

[1] ينظر: محمد حسن فضل الله، الحوار في القران، ص 75.

[2] سورة الكهف، الآيتان: 14، 15.

[3] سورة الكهف، الآيات: 94-96.

[4] فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، ص 752.

ث-معرفة المتحاورين للفكرة "موضوع الحوار":

من غير المجدي خوض المتحاورَين في موضوع مجهول لهما أو لأحدهما إذ «لا بدّ لكلّ من طرفي الحوار من التعرف على الفكرة التي ينطلقان في طريق إثباتها ونفيها، لأن الجهل بها وبتفاصيلها يحوّل الحوار إلى أسلوب من أساليب الشتائم والمهاترات التي يغطّي بها كل منهما ضعفه وعجزه عن الوقوف موقف المدافع القوي عن فكرته، بينما تجعل المعرفة كلاّ منهما واعيا لما يطرح وما يستقبل من فكر، مما يجعله يعرف كيف يبدأ الحوار وكيف يخوض فيه وكيف ينتهي منه، في وضوح الرؤية وهدوء الفكر وقوة الحجّة ووداعة الكلمة».[1]

فإن هذا العنصر قائم على وضوح الرؤية وبيان الفكرة بين المتحاورَين حتى لا ينتهي حوارهما إلى نتيجة قلقة وغير مرضية ولا مجدية.

ولعل هذا ما نجده مجسّدا في قوله تعالى في الموقف الذي كان بين سيدنا موسى وفتاه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾.[2]

موضوع الحوار واضح للطرفين في هذه الآيات، وهو نسيان الحوت واتّخاذ سبيله في البحر، وكان ذلك عجيبا بالنسبة إلى الفتى لكن هذا الحدث هو ما كان يريد سيدنا موسى حصوله، لأنه يترتب عليه حدث آخر أهمّ وهو لقاؤه بالعبد الصالح كونه علامة له، فكانت نتيجة هذا الحوار أنْ عرف موسى عليه السلام أن لقاءه بالرجل العالم قريب وأكيد، ليزيده على علمه علما، وقد دعا الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم إلى عدم المراء والجدال إلاّ إذا كان على بيّنة، حيث قال تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.[3]

فقد نهى الله تعالى نبيَّه الكريم عن الجدال حول عدد الفتية لأنه لا فائدة منه، والجزم فيه بعيد عنه وعن غيره من المتجادلين، فعلمهم عند الله وحده، ثم إن العبرة من قصتهم حاصلة بقليلهم أو كثيرهم.[4]

---

[1] محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص 81.

[2] سورة الكهف، الآيات: 60-64.

[3] سورة الكهف، الآية: 22.

[4] ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد: 4، ص 2265.

إذن ما الحاجة إلى معرفة عددهم والعظة والفائدة أقوى وأجلّ، وصرْف النبي صلى الله عليه وسلم عن استفتاء غيره في عددهم دعوة إلى عدم الخوض في الغيب، وهدر الوقت والجهد فيما لا يفيد ولا ينفع.

ج-أسلوب الحوار:

لما نتحدث عن أسلوب الحوار فهذا يعني الطريقة المعتمدة بين المتحاورين، فما دامت هناك فكرة وموضوع مطروح بين متحاورين لا بد من معرفة كيفية إيصال هذه الفكرة وسبيل الإقناع بها، لتكون نتيجة الحوار كما أرادها طرفاه أو أطرافه، أي ينتهي الحوار بحل سليم، أو تغيير موقف أو قناعة، أو اهتداء أحد الطرفين بعد ضلالة... إلخ.

وقد دعا الإسلام إلى طريقة اللاّعنف في الحوار والجدال، أي الطريقة السلمية التي لا عنف ولا حقد أو إلحاق ضرر بالمشاعر فيها، وذلك للوصول إلى المعرفة من جهة، وإلى الموقف الحق والصحيح من جهة أخرى، وقد سماها الله سبحانه وتعالى: "التي هي أحسن"، وذكرها في محكم تنزيله في عدّة آيات كريمات، مثل قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ ﴾[2] وقوله أيضا: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ ﴾.[3]

ويظهر أساس هذه الطريقة جليا في حوار الله سبحانه وتعالى وذي القرنين في قوله جلّ شأنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨ ﴾.[4]

---

[1] سورة النحل، الآية: 125.

[2] سورة فصلت، الآية: 34.

[3] سورة العنكبوت، الآية 46.

[4] سورة الكهف، الآيات: 86-88.

فخيار التعذيب من عدمه لا يكون إلا بعد دعوتهم إلى الصراط المستقيم، فمن أبى عُذّب، ومن استجاب وآمن وأصلح فجزاؤه الإحسان والقول المعروف.

ويحضرنا في هذا السياق مثال آخر من قصة صاحب الجنتين، فبعد تحدّي الرجل الثري للرجل الآخر بماله وغروره بما آتاه الله من الجنات والثمرات والأموال، نجد صاحبه يحاوره دون شتم أو ضرب، فها هو يعاتبه ثم يردّ عليه بما عيّره به من مال وولد، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾.[1]

فقد لجأ هذا الرجل إلى ربه قانعا بما وهبه راجيا عطاءه دون ردّ سلبي أو عنيف على صاحب الجنتين رغم مبادرته بالافتخار بما لديه من خيرات، لا يملك الرجل الآخر بقدرها أو أنه قد حرم منها.

بعد هذا التحديد لعناصر الحوار القصصي القرآني في سورة الكهف، نجد أنه من الضرورة بمكان أن نشير إلى مدى مشاركتها في تماسك النص الحواري، وذلك حتى يكون هذا التحديد موصولا بدورها، لا معزولا عنه.

وتماسك النص الحواري يكون داخل القصّة وداخل السورة بشكل عام، كما يتحقق التماسك بين السورة نفسها وما تحتويه من آيات قرآنية، والتفاعل مع الحدث القصصي، فالتسلسل المعنوي للأحداث، وترتيب الجمل في الآيات وتناسب وجمالية الانتقال من قصة إلى قصة في السورة ذاتها، من بداية القصة إلى مضمونها، فإلى خاتمتها أو نهايتها، ثم القصة التي تليها، وتضافر كل هذا مع العنوان هو ما يؤدي إلى تماسك نص القصة عامة والنص الحواري خاصة وبروز خاصية الإعجاز فيه.[2]

فالسورة هي: سورة الكهف، وأولى قصصها هي قصة أصحاب الكهف، فنحس بارتباط معنوي موضوعي تلقائي بين العنوان والمحتوى، حتى بعد انتقالنا إلى بقية القصص يبقى ذلك الخيط المعنوي يربط أجزاء ومفاصل السورة ككل، ولعلّ البداية بقصة الفتية الذين أووا إلى الكهف لأن محتواها ديني يستهدف العقيدة، ويقدّم صورة حية للثبات على الدين وعدم الاستجابة للافتتان فيه.

[1] سورة الكهف، الآيات 39-41.

[2] ينظر: عادل مناع، نحو النص، اتجاه جديد في دراسة النصوص اللغوية، ط 1، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2011، ص 45.

2-أشكاله:

من المعروف أنّ للحوار شكلين أساسيين وضروريين في الأعمال الأدبية، وخاصة السردية والمسرحية، فهو إما يكون خارجيا (Dialogue) ثنائيا تناوبيا أو داخليا(monologue).

ونحن إذ نقف أمام قصص سورة الكهف الأربع، نلاحظ مبدئيا طغيان الشكل الخارجي على حوار شخصياتها، وقد حرص الله سبحانه وتعالى على مشاركة أطراف الحوار وإدارتهم للمحادثات أخذا وردّا، أو إرسالا واستقبالا.

أ-الحوار الخارجي:(Dialogue)

وتمثل في حوار مباشر بين الشخصيات، والحوار المباشر «هو الذي تتناوب فيه شخصيتان أو أكثر الحديث في إطار المشهد داخل العمل القصصي بطريقة مباشرة، إذ ينطلق الكلام من الشخصية (س) إلى الشخصية (ص) فترد الشخصية (ص) في سياق حدث القصة وحبكتها».[1]

وقد وجدنا هذا النوع متفشيا في قصص سورة الكهف بين الشخصيات (أطراف الحوار) التي حدّدناها سابقا.

وينقسم الحوار الخارجي المباشر إلى ثلاثة أقسام هي: المجرد، والمركب والترميزي.

1- الحوار المجرّد:

ويقصد به ما يدور من محادثات بين أطراف الحوار، وهذه المحادثات بسيطة عادية، فهو يقترب في تكوينه من المحادثات اليومية التي تقوم على ردّ فعل سريع أو إجابة سهلة، أو تبادل كلمات لا تحتمل التأويل، ولا يتّضح منها موقف عميق في أيّة مسألة أو قضية فكرية أو اجتماعية أو سياسية أو عاطفية.[2]

ومثل هذا الحوار نجده في قصة سيدنا موسى والعبد الصالح، لكن في المشهد الأول عندما كان مع فتاه. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ

[1] فاتح عبد السلام، الحوار القصصي، تقنياته وعلاقاته السردية، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1999، ص 41.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص 56.

إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴿٦٤﴾﴾.[1]

من خلال هذه الآيات يبدو لنا تبادل الحوار بهدوء وبساطة دون الحاجة إلى تفسير كلمة، أو تبرير موقف، فأحد المتحاورَين يتحدث والآخر يردّ، أو أحدهما يسأل والآخر يجيب، والمشهد يصوّر جانبا من الحياة اليومية الاجتماعية، حيث طلب سيدنا موسى من فتاه الغداء، لأنهما تعبا من سفرهما فكان الردّ بأن الحوت قد نُسي واتخذ سبيله في البحر.

2- الحوار المركّب: (الواصف، المحلّل).

يختلف هذا النمط من الحوار عن سابقه في كونه مركّبا غير بسيط، ولا يتّسم بالسرعة والسهولة اللّتين يتسم بهما الحوار المجرّد، وشخصيات المتحاورين لها القدرة على إبداء الرأي والوصف والتحليل، لذلك فحركة الحوار تكون بطيئة، «فالحوار في هذا المضمار مركّب من قدرتين أساسيتين: الأولى قدرة واصفة، والثانية قدرة محلّلة مستغورة، لذلك تكون سمة التركيب حقيقة هذا النمط من الحوار، وقد يكون الوصف مقتضبا أو طويلا، وكذلك شأن التحليل، إذ يأتي بين لمحة خاطفة وتأمل بطيء مدقّق».[2]

ولعل ما ينطبق على هذا النوع من الحوار الخارجي المباشر، ما دار بين سيدنا موسى عليه السلام والعبد الصالح في رحلتهما، قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا

[1] سورة الكهف، الآيات: 60-64.

[2] فاتح عبد السلام، الحوار القصصي، تقنياته وعلاقاته السردية، ص 66.

لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.[1]

فقول الله تعالى على لسان الرجل الصالح: إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا يدلّ على نظرة هذا الرجل البعيدة والمتأمّلة لحقيقة ما سيبدر من سيدنا موسى، وهو عدم صبره على ما سيراه من تصرفات هذا العبد الصالح، أما بطء الجواب وصدوره بعد تفكّر وتأمل فيظهر في قرار الخضر القاضي ببيان ما غمض لسيدنا موسى عليه السلام، فكان الجواب حاملا تفسيرَ كلّ ما لم يستطع سيدنا موسى فهمه أو الصبر عليه، ويظهر هذا في قوله تعالى من الآية الثامنة والسبعين (78) إلى الآية الثانية والثمانين (82) مما سبق.

وبهذا كان الحوار المجرد الذي رأيناه بين موسى وفتاه بوابة للعبور إلى نمط آخر من الحوار هو الحوار المركّب الواصف والمحلّل.

والحوار المحلّل يؤدي عملا يساعد السرد على تعميق الوصف التركيبي للشخصية وأحوالها داخل سياق القصة.[2]

فالحوار الذي دار بين شخصيتي سيدنا موسى والعبد الصالح بيّن بعمق مدى سعة علم هذا الرجل ونظرته الثاقبة إلى أفق حياة مجموعة من الأشخاص الذين كان لهم منقذا بتصرفاته التي بدت غريبة وغير معقولة لسيدنا موسى عليه السلام، ومن جهة أخرى بيّن الحوار الواصف المحلّل صفة التسرّع في سيدنا موسى، وعدم الالتزام بالاتفاق الذي أبرمه مع العبد الصالح في الآية الكريمة: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾.[3]

وقد علّق نبي الله صبره بمشيئة الله تعالى للاستعانة به والحرص على طلب التيسير، وذلك تأدبا مع الله سبحانه وتعالى، وهذا التعليق فيه إشارة وإيذان بأن صبر وطاعة المتعلم الذي له شيء من العلم

[1] سورة الكهف، الآيات: 66- 82.

[2] ينظر: فاتح عبد السلام، الحوار القصصي، تقنياته وعلاقاته السردية، ص 71.

[3] سورة الكهف، الآية: 69.

أعسر من صبر وطاعة المتعلم الساذج خالي الذهن من العلم، إذ ليس في ذهنه من المعارف ما يجعله يعارض ما يراه من مشاهد وتصرفات أو يخالفها.[1]

فطالب العلم الذي له خلفية معينة، وقاعدة علمية في مجال من المجالات، إذا أتاه معلّمه بما يخالف رؤيته أو يتنافى مع ما استقرّ لديه في ذهنه من معلومات، فإنه يهمّ بمساءلته ومعارضته.

3- الحوار الترميزي:

وصف هذا النوع من الحوار بالترميزي نسبة إلى الرمز، والحديث بالرموز أو الترميز يعني التلميح والإيماء عكس الحديث المباشر والواضح «فالترميز هو توظيف الرمز في نسيج القصة وجعله طاقة تعبيرية فاعلة في النص».[2]

وإذا أتينا إلى قصص سورة الكهف، فإننا لا نجد الكثير من الرموز في حواراتها، لأن الله عز وجل أراد للقصص بصفة عامة أن تحقق الأهداف التي أنزلها من أجلها، ولا بدّ لتلك الأهداف أن تكون واضحة جلية لا غامضة خاضعة للتأويلات والمناقشات.

واستخدام الرمز في الحدث القصصي يغني عن الشرح والتحليل من جهة، وهو يحقق الإيجاز من جهة أخرى، والذي يعدّ من جماليات لغتنا العربية الشريفة.

ومثال ترميز الحدث في حوار سورة الكهف ما نجده في قصة أهل الكهف في قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾.[3]

فإن تقليب الفتية يدلّ على عناية الله تعالى بهم وعلوّ مرتبتهم عنده، فقد أجرى عليهم حال الأحياء الأيقاظ، فجعل يقلبهم عن أيمانهم وشمائلهم، ولعلّ الحكمة من ذلك بقاء أجسامهم في حالة سلامة، ولم يذكر الله سبحانه وتعالى التقليب للكلب، بل بقي باسطا ذراعيه بالوصيد، لذلك فتقليب الفتية يمينا وشمالا كرامة لهم وعناية بهم،[4] وبيانا لقدرة الله عز وجل العجيبة في شأنهم.

---

[1] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 373.

[2] فاتح عبد السلام، الحوار القصصي، تقنياته وعلاقاته السردية، ص 79.

[3] سورة الكهف، الآية: 18.

[4] ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 281.

وكذلك بعد وصول سيدنا موسى وفتاه إلى مجمع البحرين قال له: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾،[1] دون ذكر تفسير أو تفصيل لهذا الحدث، لأن سيدنا موسى عليه السلام أراد أن يبلغ ذلك المكان لأن الله أوحى إليه أنه سيجد فيه العبد الذي هو أعلم منه فيفيد من علمه، فجعله ميقاتا له.[2]

فمجمع البحرين هو رمز أو علامة قرب اللقاء بالرجل العالم الذي نبّأ الله به نبيه موسى عليه السلام.

وفي قوله تعالى من قصة ذي القرنين: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾.[3]

فكأنّ ذا القرنين يقول لهم: «اخدموا بأنفسكم معي، فإن الأموال عندي والرجال عندكم، ورأى أن الأموال لا تغني عنهم، فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه، فيعود بالأجر عليهم، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى».[4]

فلو وافق على الخرج أو الجُعل الذي أرادوا جعله له، لما أعانوه ولتحمّل البناء وحده لأنه تقاضى أجره، وكلمة "قوة" ترمز إلى القوة البدنية اللازمة لإقامة حائل منيع وقوي بين القوم الضعفاء وقومَي يأجوج ومأجوج، وبهذا هانت القوة المادية عند ذي القرنين في حضور القوة البدنية الإنسانية.

ب-الحوار الداخلي: (Monologue).

هذا النوع من الحوار يكون بين الشخصية ونفسها، أي هو كلام داخلي ذاتي تعبّر به عن آلامها أو أحلامها أو وعيها... إلخ، والمونولوج يعني الحوار الفردي الذي ينبع من ذهن الشخصية عن طريق الارتجاع الفني أو التخيل أو المناجاة النفسية.[5]

والحوار الداخلي يكاد يكون معدوما في قصص سورة الكهف، فقد كان ثانويا ولم يلتفت إليه الله سبحانه وتعالى في سرده ولا في إبراز دوره من خلال الشخصيات التي تديره، ولعل الموضع الذي نجد فيه المونولوج حاضرا، هو ما تعلّق بنهاية صاحب الجنتين المؤسفة وشعوره بالحسرة والندم، حيث قال الله

[1] سورة الكهف، الآية 64.

[2] ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 362.

[3] سورة الكهف، الآية: 95.

[4] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، ج 13، ص 385.

[5] فاتح عبد السلام، الحوار القصصي، تقنياته وعلاقاته السردية، ص ص 108، 109.

تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾.[1]

فهذه الآية الكريمة تحمل حديث النفس المعبّر عن انفعالها القوي، واستيقاظ الوعي بها، ولو متأخرا، «وجملة "ويقول" حكاية لتندّمه على ما فرط منه حين لا ينفعه الندم بعد حلول العذاب، والمضارع للدلالة على تكرّر ذلك القول منه».[2]

بعد رصد الحوار بشكليه الخارجي والداخلي، يتبين لنا تركيز الله سبحانه وتعالى عليه في قصص سورة الكهف، بوصفه أسلوبا فريدا وجميلا، يتنقل ضمن القصة بين شخصياتها، ويتحرّك مع السرد مؤدّيا وظائف عدّة، وقد كان في غالبه ثنائيا، أضفى على المشاهد القصصية حيوية وجاذبية تشدّان نفس القارئ تشويقا، وتغمرانه سحرا ومتعة.

[1] سورة الكهف، الآية: 42.

[2] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 327.

3-وظائف الحوار القصصي القرآني في سورة الكهف.

لا شكّ في أن للحوار أهمية بالغة في القصة القرآنية، فهو ليس مجرد مراجعة للحديث بين المتحاورين، أو مجرد تداول للكلام بينهم، فقد لخّص "مورغان" استعمالات الحوار في ثلاث وظائف رئيسية هي: تطوير القصة، وتصوير الشخصية وخلق الجو أو الحالة.[1]

فقد نجد الحوار يصف الأشخاص ويصوّر المَشاهد، ويطور الأحداث، لذا كان توظيفه بارزا وقويا في القصة القرآنية على وجه الخصوص.

ويمكن تلخيص وظائف الحوار القرآني في قصص سورة الكهف في النقاط الآتية:

أ- بعث الحياة والحركة في الحدث:

وذلك بقدرة الحوار على كشف الصراعات في مختلف المواقف بين مختلف الشخصيات التي يستبطن انفعالاتها وأزماتها، ويصوّر نفسيتها، مما يجعل القارئ يعيش القصة وينتقل من عالمه إلى عالمها، وصولا إلى الهدف والمغزى منها،[2] مثل قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾.[3]

فهذا المشهد وإن كان يصوّر الفتية وهم نائمون، أي في حالة سكون إلاّ أنه مفعم بالحركة والحياة، «وهو مشهد تصويري عجيب، ينقل بالكلمات هيئة الفتية في الكهف، كما يلتقطها شريط متحرك، والشمس تطلع على الكهف فتميل عنه كأنها متعمدة، ولفظ "تزاور" تصوّر مدلولها وتلقي ظل الإرادة في عملها، والشمس تغرب فتجاوزهم إلى الشمال وهم في فجوة منه».[4]

لم يسمح الله تعالى بأن تنال الشمس من أجساد أولئك الفتية وهم فاقدون القدرةَ على الحركة واتقاءِ أشعتها الحارقة، فهم أحياء بلا حركة، ونيام نوما طويلا دون أن يكون موتا.

---

[1] ينظر: تشارلس مورغان، الكاتب وعالمه، ترجمة: محمد شكري عياد، مراجعة: مصطفى حبيب، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2012 م، ص 238.

[2] ينظر: التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، ص 414.

[3] سورة الكهف، الآيتان: 17، 18.

[4] سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد: 4، ص 2263.

وقد وظف الله سبحانه وتعالى قدرته لحفظهم من عبث العابثين فهو يقلّبهم من جنب إلى جنب دون أن يستيقظوا حتى إنّ الرائي إذا رآهم يحسبهم أيقاظا وهم رقود، أما كلبهم فهو عند باب الكهف ينام كما ينام الكلاب كأنه يحرسهم.[1]

إنه مشهد متحرك لأشخاص لا يتحركون، وتبدو عليهم هيئة الأحياء مع أنهم شبه أموات، ولعلّ هذه الوظيفة تدخل في مساهمة الحوار القرآني في رسم الشخصيات التي تحرّك الحدث بدورها، وهي التي تدير الحوار، فنجد نوعا من «الذاتية التي يحتفظ بها هذا الحوار لشخصيات المتحاورين، ذلك أننا في القصص القرآني لا نجد فرصة أبدا ننفلت فيها من هذا الشعور الذي يستولي علينا من أننا إزاء شخصيات واقعية، لها وجودها الذاتي ولها منطقها وتفكيرها، ولها منزعها وإرادتها في الموقف الذي تقفه في الحدث، وفي الأسلوب الذي تعبّر به عن موقفها».[2]

فلا يمكن تصوّر حدث بلا شخصيات في القصة، ولا شخصيات بلا حوار، لذا نلمس هذا التداخل والترابط، وهذه الوظيفة المزدوجة والمتزامنة للحوار إزاء كل من الحدث والشخصية الذَين يحرّكان المشهد. لذا كان الحوار ذا أثر بعيد وعميق في إحياء تلك المشاهد التي تضم الحدث القصصي وشخصياته، وجعلها أكثر قدرة على التأثير بالكلمة تأثيرا لا يبلغه التأثير بالصورة أو الحركة في المشاهد والأعمال السينمائية أو المسرحية.[3]

وتتصل الشخصية بالحدث اتصالا مباشرا ووثيقا، فيتم تصويرها وهي تعمل عملا له معنى، وهذا المعنى ليس مستقلا عن الحدث، وبهذا يكون الحدث متكاملا تُصوَّر فيه الشخصية وهي تُحدث عملا ما.[4]

ويتجلى هذا في تصوير المشهد الذي رافق فيه العبد الصالح سيدنا موسى في رحلته، فلم تخل المشاهد التي حرّكها من فعل فعله، أو حدث أحدثه كما يبدو ذلك جليا أيضا في قصة ذي القرنين، الذي كانت له عدّة محطات: عند مغرب الشمس ومشرقها، وبين السدّين حيث وجد قوما مستضعفين، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي

[1] ينظر: المصدر السابق، ص 2263.

[2] عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص 129.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 130.

[4] ينظر: الطاهر أحمد مكي، القصة القصيرة، دراسات ومختارات، ط 8، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1999، ص 100.

بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾.[1]

نعم الحوار القرآني يحمل اللون والحركة والكلمات الواصفة والمعبّرة عن الحدث وما يحيط به تعبيرا قويا وصادقا.

ب-الدعوة إلى الله:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾.[2]

ففي هذه الآيات يذكر الله تعالى أن الكفّار كثيرا ما افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين، وذلك مما لا يوجب الافتخار، لأنّ الفقير قد يصير غنيا، والغني قد يصبح فقيرا بمشيئة الله، أما ما يجب المفاخرة به فطاعة الله وعبادته، وهي حاصلة لفقراء المؤمنين.[3]

وفي حوار الرجل المؤمن للكافر يستنكر كفره بسؤاله: **أَكَفَرْتَ؟** ويواجهه بحجة أو آية مراحل خلقه، ويبيّن له في المقابل إيمانه بالله وحده، ويقينه به فكلّ شيء بيده وهو على كل شيء قدير.

وبهذا يعدّ الحوار أساسا وركيزة تقوم عليها الدعوة إلى الله تعالى، ومنها بيان محاسن الإسلام وفضائله، وشرح مفاهيمه وقيمه ومقاصده الأساسية، وبالحوار دعا القرآن الكريم الناس إلى أحكامه وحثّهم على الالتزام بها.[4]

ومعروف أن الدعوة إلى الله بالحوار تستدعي مساءلة الطرف المستهدَف للداعي، ومحاولة الصمود أمامه، وحتى رفض الدعوة وصدّها.

---

[1] سورة الكهف، الآيات: 93-96.

[2] سورة الكهف، الآيات: 37-39.

[3] ينظر: محمد الرازي فخر الدين ابن العلاّمة ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط 1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1401 هـ/ 1981 م، ج 21، ص ص 124، 125.

[4] مفرح بن سليمان بن عبد الله القوسي، ضوابط الحوار في الفكر الإسلامي، ص 16.

ت- كشف الشبهات وتفنيد الأباطيل:

لا شك في أن ما أثير حول الإسلام والإيمان من شبهات، قد كان للحوار دور هام في الفصل فيه، كونه حوارا بنّاءً يساهم في توضيح الأفكار وإحلال الحق وبناء المفاهيم الصحيحة،[1] قال الله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾.[2]

ففي زمن أولئك الفتية فُتن النّاس في دينهم، واتّخذوا مع الله آلهة وشركاء، لكن الفتية المؤمنين تمسّكوا بدينهم ولم يستسلموا لأية شبهة، فهربوا به إلى الكهف، ويبدو وعيهم وإيمانهم في حديثهم وحوارهم بينهم، ونبؤهم صادق إذ كانوا جماعة من الشبان الذين آمنوا بالله، وقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ألهمناها الصبر وثبّتناها،[3] بحيث لم يبق مجال للشك في أذهانهم، ولا لفساد عقيدتهم.

وفي الحوار الذي يتحدّث عن عددهم يفصل الله سبحانه وتعالى في هذه المسألة بقوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.[4]

فالله وحده يعلم عددهم الحقيقي لذا لا داعي للاختصام فيما ليس لنا به علم، ولا يوجد أحسن من الحوار لتبادل الأفكار وإزالة الخاطئ منها، وإقرار الإيمان في قلوب الناس، فكان الحوار القرآني في مواجهة المكذّبين ليغيّر سلوكهم ويصحّح عقائدهم ويقوّم حياتهم.

ث- تشويق القارئ وإثارته:

في سورة الكهف أربع قصص لا نكاد نفرغ من قراءة واحدة حتى نرغب في بداية أخرى، ولا نبدأ القصة إلا ونحن راغبون في معرفة الخاتمة والوصول إلى النهاية، مأخوذين بانسياب عباراتها السردية

---

[1] ينظر: المصدر السابق، ص ص 16، 17.

[2] سورة الكهف، الآيات: 13-15.

[3] ينظر: محمد الرازي فخر الدين ابن العلاّمة ضياء الدين عمر، مفاتيح الغيب، ج 21، ص 98.

[4] سورة الكهف، الآية: 22.

ومشاهدها الحوارية، متتبعين حركة شخوصها في شغف، متأثرين بمواقفهم متشوقين إلى المزيد من الصور الماثلة المتحرّكة، وعنصر التشويق متعلق بالجانب النفسي للمتلقي، وهو الذي يجعله مشدودا إلى القصة بكل ما فيها، يتابع مجرياتها ويقف عند تفاصيلها، وإن لم تُذكر توقفَ للتأمل فيها وتكهّنها أو تخيّلها.

فبالإضافة إلى الوظائف السابقة للحوار القصصي القرآني، نجده يهذّب المشاعر ويوقظ الوجدان، ويربّي العواطف الربانية ويجيب على أسئلة السائلين.[1]

وقد يستمد القارئ شوقه وتشوّقه من الشخصية نفسها وهي تحاور شخصية أخرى، كما في قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح، وكثرة أسئلته التي تدل على حيرته وتلهفه لمعرفة الحقيقة، قال الله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾.[2]

نحن هنا أمام مفاجآت متتابعة، وأسرار لا نعلم حقيقتها، وتصرفات غامضة لها حكمة يدريها الله سبحانه وتعالى وعبده الموحى إليه بها، «وموقفنا منها كموقف بطلها موسى، بل ونحن لا نعرف من هو هذا الذي يتصرف هذه التصرفات العجيبة ولا ينبئنا القرآن باسمه، تكملة للجو الغامض الذي يحيط بنا. وما قيمة اسمه؟ إنما يراد به أن يمثّل الحكمة الكونية العليا، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة».[3]

ثم تتجلى الرؤية ويأتي هذا الرجل الحكيم بمفاتيح تلك الأسرار الغامضة، ويقدم الأجوبة الشافية لأسئلة سيدنا موسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ

[1] ينظر: عبد الرحمان النحلاوي، من أساليب التربية الإسلامية: التربية بالحوار، ص 10.

[2] سورة الكهف، الآيات: 71-78.

[3] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 184.

وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾. [1]

وفي غمرة السر المكشوف يختفي العبد الصالح كما ظهر، لقد رحل ومضى في المجهول كما خرج من المجهول، فالحكمة وإن انكشفت تبقى مجهولة للأبد،[2] وهذا ما يزيد من لهفة وشوق المتلقي، مشدودِ الذهن والعاطفة إلى الأحداث بشخوصها وحواراتهم المؤثرة.

وبهذا يترسّخ في ذهن متلقي النص القرآني القصصي أنه يمكن أن يصطدم بمفاجأة أو حدث أو شخصية غير متوقعة، لتصبح هذه المفاجأة من مميزات الأسلوب القرآني الذي لا يخلو من التشويق والإبهار، وفي هذا «يقرّر جاكوبسون أن المفاجأة الأسلوبية هي تولُّد اللامنتظر من خلال المنتظر، ويقرّر ريفاتير أنّ قيمة كل خاصية أسلوبية تتناسب مع حدّة المفاجأة التي تحدثها تناسبا طرديا، بحيث كلّما كانت غير منتظرة كان وقعها على نفس المتقبّل أعمق».[3]

وهكذا يصبح الحوار القصصي القرآني عنصرا جماليا مؤثرا بل محرّكا نفسيا للمتلقي، فهو «يزيد في جمال القصة وإقبال القارئ عليها وتأثره بأبطالها، خصوصا إذا كانوا صادقين في وصف مشاعرهم، وكانت تلك المشاعر متضاربة... كما يزيد في رغبة القارئ في تتبع القصة ليتابع المعارك التي تدور في جو القصة ليرى أي الطرفين سينتصر وتكون له الغلبة والعاقبة في نهاية الأمر».[4]

ومثل هذا نجده في نهاية قصة صاحب الجنتين والمواجهة الفكرية بينه وبين الرجل المؤمن، وإحساس المتلقي بالراحة والاطمئنان لعدل الله سبحانه وتعالى الذي يعاقب من يستحق عقابه، وينصر المظلوم، ويجزي المحسنين خير جزاء.

والتشويق في هذه القصة ليس نابعا من الصراع بين الشخصيتين فحسب، ولا من الرغبة في معرفة الغلبة لمن؟ وإنما ينبع أيضا من الأحداث نفسها، كون القارئ يعيش الحدث في جو القصة فيجد نفسه في حدث آخر وجو آخر، وتحدث المفاجأة بالنسبة إليه.

فنحن نشاهد صاحب الجنتين ينعم بماله وبنيه، متجاهلا مواعظ صاحبه، ذاهبا في غيّه وكفره، ويظهر هذا في حوارهما: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۙ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ

[1] سورة الكهف، الآيات: 79، 82.

[2] ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 185.

[3] عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص 86.

[4] عبد الرحمان النحلاوي، من أساليب التربية الإسلامية: التربية بالحوار، ص 35.

فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾.[1]

لنجد فجأة كلّ شيء قد انتهى دون تمهيد أو تحضير نفسي «فنحن لا نحس في القصة بأن فاصلا زمنيا قد حدث، وإنما ننتقل من الحوار فجأة إلى مشهد نطّلع منه على الجنتين وقد ذهبتا إلى يد الهلاك والتدمير، وعلى حطام هاتين الجنتين يقف صاحبهما ينتحب ويلطم، وفي هذا يقول الله سبحانه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾[2] وليس من شكّ في أن هذا الحديث المفاجئ لم يكن متوقعا أن يجيء على تلك الصورة، التي تذهب بالجنتين جملة وفي لحظة خاطفة».[3]

إنّ عنصر المفاجأة في القصة القرآنية بصفة عامة، ينتقل مفعوله من شخصية القصة نفسها إلى المتلقي، في جو مهيب من الدهشة والانبهار من هذه القدرة الفنية الإلهية العالية على نسج الأحداث وإدارتها من بداية القصة إلى نهايتها.

[1] سورة الكهف، الآيات : 33- 37.

[2] سورة الكهف، الآيتان: 42، 43.

[3] عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص 148.

ثالثا: نصية وعلاقات الحوار القصصي في قصص سورة الكهف:

1-نصيته:

حديثنا عن نصية الحوار القصصي في سورة الكهف يقودنا لا محالة إلى تطبيق معايير النصية (التي جاء بها ديبوجراند)، وهذه المعايير هي مجموعة من العناصر التي بتوافرها يكون النص نصًّا، وقد جعلها دي ديبوجراند سبعة معايير تثبت نصّية النصوص وهي: السبك (Cohésion)، والالتحام(Cohérence)، والقصد (Intentionality)، والقبول (Accepability)، ورعاية الموقف (Situationality)، والتناص (Intertextuality)، والإعلامية (Informativity).[1]

ويمكن تبسيط وتصنيف هذه المعايير ليسهل فهمها وتطبيقها على النصوص الحوارية الواردة في قصص سورة الكهف، فنجد معايير تتصل بالنص ذاته، ومعايير تحقق الاتصال.[2]

وبما أن هذا العنصر يتمحور حول النص الحواري، سنركز على المعايير التي تتصل بالنص ذاته من سبك وحبك، ودراسة العلاقات المؤدية إلى التحام أجزائه وترابطها.

أ-السبك (الربط النحوي):

وهو يشتمل على الإجراءات المستعملة في توفير الترابط بين عناصر ظاهر النص، فهو يتناول العلاقات الملفوظة بين المباني، ويرتكز على أوجه التبعية النحوية، ومن محققات السبك نجد: الإحالة والاستبدال والحذف.[3]

1-الإحالة:

ما أكثر الإحالة بالضمائر عامة وفي سورة الكهف خاصة، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.[4]

فواو الجماعة في الفعل: قالوا ضمير متصل يعود على متقدّم وهو "الفتية".

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا

---

[1] ينظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، ط 1، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1418 هـ/ 1998 م، ص 103-105.

[2] عادل مناع، نحو النص، اتجاه جديد في دراسة النصوص اللغوية، ص 28.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 18.

[4] سورة الكهف، الآية: 10.

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾،[1] نجد الضمير "كم" يعود على الفتية في موقف خطابهم وتحاورهم فيما بينهم.

وفي الآية الكريمة: ﴿* وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾[2] نجد الضمير "هما" عائدا على الرجلين، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾،[3] ضمير "الهاء" في "له" «يصلح لأحدهما وللنخل وللزهر وللنهر، وواضح أن الثمر لا يكون للنهر وهو أقرب مذكور، وإنما يكون لأحد الرّجلين فهما أولى به من النخل والزرع».[4]

أما الإحالة بأسماء الإشارة فنذكر أمثلتها في الجدول الآتي:

اسم الإشارة	المشار إليه	الآية القرآنية
هؤلاء	القوم الكافرون	﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾.[5]
ذلك	حفظ أجساد الفتية	﴿* وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾.[6]
هذه	الورِق	﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾.[7]
هذه	الجنة	﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾.[8]

[1] سورة الكهف، الآية: 19.

[2] سورة الكهف، الآية: 32.

[3] سورة الكهف، الآية : 34.

[4] تمام حسان، البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، ط 1، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1413 هـ/ 1993، ص 235.

[5] سورة الكهف، الآية: 15.

[6] سورة الكهف، الآية: 17.

[7] سورة الكهف، الآية: 19.

[8] سورة الكهف، الآية: 35.

هذا	السفر	﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾.[1]
ذلك	اتخاذ الحوت سبيله في البحر	﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾.[2]
هذا	الفراق بين موسى والعبد الصالح	﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾.[3]
ذلك	تأويل التصرفات	﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.[4]
هذا	القوة والحكمة	﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾.[5]

-جدول رقم (1) يوضح الإحالة بأسماء الإشارة-

وقد قامت أسماء الإشارة التي رصدناها في النصوص الحوارية لسورة الكهف بالإحالة القبلية والبعدية، كما

قامت بدور ربط الآيات بعضها ببعض، فاسم الإشارة كثيرا ما يحيل إلى ما قبله من معاني وسياقات في آيات سابقة.

وقد عملت أسماء الإشارة على تماسك النص الحواري، ذلك أنها تتساوى مع ضمائر الغياب فهي مبهمة تحتاج إلى المشار إليه ليفسر المقصود بها، وهذا الاحتياج هو الذي يحقق سبك النص وتماسك أجزائه.[6] وهذا ما نجده في آيات وقصص سورة الكهف وحواراتها المتسقة مبنى والمنسجمة معنى ومضمونا.

2-الاستبدال:

[1] سورة الكهف، الآية: 62.

[2] سورة الكهف، الآية: 64.

[3] سورة الكهف، الآية: 78.

[4] سورة الكهف، الآية: 82.

[5] سورة الكهف، الآية: 98.

[6] ينظر: عادل مناع، نحو النص، اتجاه جديد في دراسة النصوص اللغوية، ص 92.

الاستبدال يشبه الإحالة ويقوم بدور السبك بإزالة التكرار من الكلام، إذ يُستبدَل لفظ بلفظ أو جملة بجملة لغرض أسلوبي معين، وهو تحقيق ترابط النص وتماسكه لأن كلمة واحدة قد تحلّ محل جملة أو مجموعة جمل.[1]

ومن أمثلة الاستبدال في حوارات قصص سورة الكهف قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾.[2]

فكلمة "شططا" عوّضت قوله: لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا، فالاستبدال يكون بما يخدم السياق ويساوي المعنى.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾[3] نجد لفظة "ذلك" تعوض كلاما مفاده أن عودة الحوت واتخاذه سبيله في البحر هو ما كان يريده سيدنا موسى عليه السلام، لنستنتج أن من مهام هذا الاستبدال أيضا الإيجاز والاختصار، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾[4] فكلمة "ذلك" اختصار لكل ما سبق من حديث مفسر لتصرفات العبد الصالح التي حيّرت موسى عليه السلام، والعبارة كلّها تعوّض الحوار الذي دار بينهما حول الأفعال الغريبة والغامضة، فما لم يستطع عليه صبرا هو ما رآه من تصرفات بدت له غير معقولة ولا مقبولة.

ومما لاحظناه في النصوص القصصية لسورة الكهف ترابط الحوار وتعلّقه بما قبله وما بعده وإن لم توجد قرينة لفظية رابطة كحروف العطف مثلا، ويتمثل هذا في فعل "القول" الذي يدخلنا ويضعنا به الله سبحانه وتعالى في جو الحوار، ليُشهدنا على الشخصيات وهي تتحدّث وتتفاعل، ذلك أنه جلّ وعلا «إذا حكى المحاورات والمجاوبات حكاها بلفظ "قال" دون حروف عطف، إلا إذا انتقل من محاورة إلى أخرى».[5]

---

[1] المصدر نفسه، ص 108.

[2] سورة الكهف، الآية: 14.

[3] سورة الكهف، الآية: 64.

[4] سورة الكهف، الآية: 82.

[5] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 1، ص 125.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٖ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨﴾.[1]

وهذا دليل آخر –مع أنه لا يحتاج دليلا– على واسع قدرته وعلمه سبحانه وتعالى بخبايا هذه اللغة الجليلة، وأسرار استخدامها بما يبهر المتلقي ويعجزه ويجعله يحسّ في هذا النص بعظمة القائل والمَقول.

وفي هذا تبدو أناقة اللفظ القرآني وتخيّره الرفيع، ودراسة المواضع المناسبة لكل كلمة تناسب هي الأخرى معناها وسياقها الذي ترد فيه.

أما الحذف فقد خصّصنا له عنصرا مستقلا ضمن الفصل المقبل، لذا نفضل دراسته ضمن البنى الأسلوبية للوظيفة الحوارية.

ب– الحبك (التماسك الدلالي):

ويسميه روبرت دي بوجراند "الالتحام"، وهو يتطلب من الإجراءات ما تنشط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي.[2]

والترابط المعنوي يقتضي فهم المتلقي للنص بناءً على معارفه السابقة وتفاعلها مع ما يتلقاه من معلومات يقرؤها، أي وجود علاقات بين المعرفة القبلية والمعرفة الماثلة أمامه في النص، «وهذه العلاقات غير ظاهرة أي معنوية، وجب أن تكون محكمة حتى يستطيع المتلقي فهمها وقبولها، ومعرفة القارئ المسبقة ومعرفته بالهيكل المختار وتوقعاته تسهم في عملية التفسير المستمر للنص خلال عملية القراءة».[3]

ومن أبرز هذه العلاقات: الإجمال ثم التفصيل، التأكيد، السؤال والجواب، السببية، التعليل، الشرط، والمقارنة.

وفيما يلي تطبيق هذه العلاقات على النصوص الحوارية في قصص سورة الكهف.

1–الإجمال ثم التفصيل:

[1] سورة الكهف، الآيات: 86– 88.

[2] ينظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص 103.

[3] عادل مناع، نحو النص، اتجاه جديد في دراسة النصوص اللغوية، ص 229.

وتتمثل هذه العلاقة في أن الكلام يأتي مجملا ثم يفصّل بعد ذلك، دون رابط لفظي بين التفصيل وما سبقه من إجمال، ما عدا الرابط المعنوي الذي يجمعهما.[1]

ومثال هذه العلاقة نجده في بداية قصة أصحاب الكهف، حيث قال جلّ شأنه في خطابه للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝١٢﴾.[2]

ففي هذه الآيات ملخّص للقصة، ذكر فيه الله تعالى إيمان الفتية ولجوءهم إلى الكهف ونومهم ثم بعثهم إجمالا، «ثم تتبعه تفصيلات تشاورهم قبل دخول الكهف وحالتهم بعد دخوله، ونومهم ويقظتهم، وإرسالهم واحدا منهم ليشتري لهم طعاما، وكشفه في المدينة، وعودته وموتهم وبناء المعبد عليهم، واختلاف القوم في أمرهم... إلخ، فكأنّ هذا التلخيص كان مقدمة مشوّقة للتفصيلات».[3]

كما يظهر الإجمال في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع العبد الصالح وما دار بينهما من حديث، في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨﴾[4] ليأتي التفصيل في الآيات التي تلي هذه الآية إلى نهاية القصة، قال الله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾.[5]

---

[1] ينظر: المصدر السابق، ص 241.

[2] سورة الكهف، الآيات: 9- 12.

[3] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 181.

[4] سورة الكهف، الآية: 78.

[5] سورة الكهف، الآيات: 79- 82.

وقد استخدم الله تعالى "أما" التي للشرط والتفصيل، فكانت مناسبة لهذا الغرض، يقول ابن مالك في ألفيته:[1]

أمّا كمهما يكُ من شيء، وفا – لتِلْوِ تِلْوِها وجوبا– أُلِفا

فأمّا حرفٌ للتفصيل وتفيد الشرط «وهي قائمة مقام أداة الشرط وفعل الشرط، ولهذا فسّرها سيبويه بمهما يكُ من شيء، والمذكور بعدها جواب الشرط، فلذلك لزمته الفاء، نحو "أما زيد فمنطلق"، والأصل: "مهما يكُ من شيء فزيد منطلق" فأنيبت "أما" مُناب "مهما يكُ من شيء"؛ "أما فزيد منطلق" ثم أُخرت الفاء إلى الخبر، فصار "أما زيد فمنطلق"؛ ولهذا قال: " لتِلْوِ تِلْوِها وجوبا أُلِفا"».[2]

وقد تقدّم هذا الحرف (أمّا) تأويلَ التصرفات الثلاثة التي قام بها العبد الصالح: خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، ولعلّ الموقف كان يحتاج التفصيل لسيدنا موسى لما التبس في ذهنه فكان غامضا مجهولا له.

2-التأكيد:

يقتضي التأكيد أن يكون تابعا للكلام المؤكَّد ووراءه، ونحن هنا نقصد تأكيد جملة لجملة أو آية لآية، أو تأكيد كلام لاحق لكلام سابق وارد في النصوص الحوارية لسورة الكهف.

وتكمن أهمية هذه العلاقة وغيرها من العلاقات في أنها تحقق التماسك النصي دون الاعتماد على رابط شكلي، فكيفية الاتصال معنوية غير بارزة.[3]

ومثال التأكيد المعنوي في قصة ذي القرنين قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١﴾[4] فقد جاء مؤكّدا لقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠﴾.[1]

وقد ورد في الكشّاف القول بأن «**كَذَٰلِكَ** أي: أمر ذي القرنين أي كما وصفناه تعظيما لأمره، **وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ** من الجنود والآلات وأسباب الملك، **خُبْرًا** تكثيرا لذلك».[2]

---

[1] أبو عبد الله محمد جمال الدين بن عبد الله ابن مالك الأندلسي، ألفية ابن مالك في النحو والتصريف، المسماة: الخلاصة في النحو، تحقيق: سليمان بن عبد العزيز العيوني، مكتلة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص 155.

[2] بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمذاني، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ومعه كتاب: منتخب ما قيل في شرح ابن عقيل، تأليف: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2009 م، المجلد: 2، ج 4، ص 393.

[3] ينظر: عادل مناع، نحو النص، اتجاه جديد في دراسة النصوص اللغوية، ص 237.

[4] سورة الكهف، الآية: 91.

وفي قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾[3] تأتي جملة: هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا لتؤكّد ما قبلها، فأمر البشر جميعا يعود إلى الله عز وجل، مهما عملوا ومهما كانت نهايتهم، فهو «خير للمنيبين في العاجل والآجل ثوابا، وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا، يقول: وخيرهم عاقبة في الآجل إذا صار إليه المطيع له، العامل بما أمره، والمنتهي عما نهاه الله عنه»،[4] فتعقيب الله تعالى على قوله لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ تأكيد على أنه المنفرد بملك وسلطان كلّ شيء في الدنيا والآخرة.

ومثاله أيضا قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾.[5]

فقوله تعالى: وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا تأكيد لما قبله من كفر صاحب الجنتين وعدم إيمانه وتماديه في ظنه أن ماله خالد وثروته لن تزول.

3-المقارنة:

وهي من علاقات التماسك الدلالي التي تساهم في ترابط أجزاء النص والتحامها، وتحدث المقارنة بصيغة التفضيل "**أفعل**" المعروفة أو تفهم من سياق الكلام.[6]

وفي حوار قصة صاحب الجنتين تبدو المقارنة واضحة في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾،[7] وفي قوله تعالى أيضا: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩﴾.[8]

---

[1] سورة الكهف، الآية: 90.

[2] الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 629.

[3] سورة الكهف، الآية: 44.

[4] الطبري، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المجلد: 5، ص 105.

[5] سورة الكهف، الآيتان: 35، 36.

[6] ينظر: عادل مناع، نحو النص، اتجاه جديد في دراسة النصوص اللغوية، ص 281.

[7] سورة الكهف، الآية: 34.

[8] سورة الكهف، الآية: 39.

كما نجد المقارنة دون اسم التفضيل في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾،[1] وفي قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾.[2]

فكلمة "خيرا" في الآيتين السابقتين قامت مقام اسم التفضيل، وكأن الرجل صاحبَ الجنتين قال: لأجدنّ أحسن منها، وكأنّ المؤمن قال: فعسى ربي أن يؤتيني أحسن وأفضل من جنتك.

4-الشرط:

ولا يقصد بالعلاقة الشرطية تلك العلاقة القائمة على أداة الشرط وفعل الشرط وجوابه، وإنما يقصد بها العلاقة التي تقوم بين عنصرين في السياق النصي، تجعل العنصر الثاني جوابا للعنصر الأول ومتعلقا به، وإن خلا العنصر الثاني من العلامات التي تدل على هذه العلاقة، لأنها تفهم من السياق وتؤدي إلى تماسك النص.[3]

يقول عبد القاهر الجرجاني: «الشرط كما لا يخفى في مجموع الجملتين لا في كل واحدة منهما على الانفراد، ولا في واحدة دون الأخرى، لأنا إن قلنا أنه في كل واحدة منهما على الانفراد جعلناهما شرطين، وإذا جعلناهما شرطين اقتضتا جزاءين، وليس معنا إلا جزاء واحد».[4]

فهذه العلاقة ليست قائمة على مجرد التركيب النحوي للشرط، وإنما يتدخل المعنى والسياق في توضيحها واستنتاجها، وأمثلة هذه العلاقة في النصوص الحوارية لقصص سورة الكهف كثيرة ومتنوعة:

-شرط دون أداة:

ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.[5] وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾.[6]

وقوله أيضا: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾.[1]

وفي كل من الآيات السابقة طلب يُجزم على إثره جوابه.

---

[1] سورة الكهف، الآية: 36.

[2] سورة الكهف، الآية: 40.

[3] ينظر: عادل مناع، نحو النص، اتجاه جديد في دراسة النصوص اللغوية، ص 273.

[4] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 246.

[5] سورة الكهف، الآية: 16.

[6] سورة الكهف، الآية: 95.

كما نجد الشرط مفهوما من السياق في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾،[2] فقد وضع موسى عليه السلام شرطا لاتباعه للعبد الصالح، وهو تعليمه مما آتاه الله من علم.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤﴾،[3] وضع القوم المستضعفون شرطا لإعطاء ذي القرنين خرج أو جُعلا وهو بناؤه سدّا بينهم وبين يأجوج ومأجوج.

-شرط جازم:

ورد الشرط الجازم في عدّة مواقف حوارية من قصص سورة الكهف، خاصة بالحرف "إنْ"، ويتضح هذا في الآيات الآتية:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾،[4] وقال تعالى في السياق القصصي نفسه: ﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦﴾.[5]

وفي قوله تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾،[6] استخدم عز وجل اسم الشرط "مَن".

-شرط غير جازم:

---

[1] سورة الكهف، الآية: 96.

[2] سورة الكهف، الآية: 66.

[3] سورة الكهف، الآية: 94.

[4] سورة الكهف، الآية: 70.

[5] سورة الكهف، الآية: 76.

[6] سورة الكهف، من الآية: 17.

استعمل الله سبحانه وتعالى الشرط غير الجازم في مواضعَ كثيرة، واسحضر له عدّة أدوات منها "إذا" في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.[1]

وقوله أيضا: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا إِمۡرٗا ٧١﴾،[2] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسَۢا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤﴾.[3]

كما استعمل عز وجل الحرف "لو" في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾،[4] وفي قوله أيضا: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾.[5]

ونجده جل وعلا يستعمل "أمّا" التي للشرط والتفصيل –كما ذُكر سابقا–في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾،[6] وفي أجوبة العبد الصالح التي قدمها لسيدنا موسى عليه السلام.

5-السببية:

تساهم العلاقة السببية في ربط معاني الجمل بعضها ببعض، وحتى ربط الآيات بالنسبة إلى النص القرآني، ذلك أن الفعل يقع أو يوقعه فاعله لغرض أو سبب معين، وفي المقابل نحصل على نتيجة معينة، «فتقوم علاقة السبب والنتيجة بالربط بين جمل النص متجاوزة الربط بين جملتين إلى الربط بين مجموعة من الجمل المتتالية مما تسهم في ترابط النص وتماسكه، كما أنها تربط النص بالسياق».[7]

كما أنّ تماسك النص السردي وانسجامه في القصة القرآنية، وكذلك تماسك النص الحواري (لأنه يتضمن السرد)، يتوقف على الترابطات السببية داخل جمل النص.[8]

---

[1] سورة الكهف، من الآية: 17.

[2] سورة الكهف، الآية: 71.

[3] سورة الكهف، الآية: 74.

[4] سورة الكهف، الآية: 77.

[5] سورة الكهف، الآية: 18.

[6] سورة الكهف، من الآية: 87.

[7] عادل مناع، نحو النص، اتجاه جديد في دراسة النصوص اللغوية، ص 255.

[8] المصدر السابق، ص 255.

ومن أمثلة هذه العلاقة في النصوص الحوارية لقصص سورة الكهف قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠﴾.[1]

حتى إن الفاء الواقعة بين السبب والنتيجة هي فاء السببية، «وهي التي تفيد أن ما قبلها سبب لما بعدها، وأن ما بعدها مسبَّب عمّا قبلها».[2] وتتصل بفعل مضارع منصوب بأن المضمرة وجوبا، كما ورد الفعل فَتُصۡبِحَ في الآية السابقة.

ومثال هذه العلاقة أيضا قول الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣﴾.[3]

وقوله أيضا، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾.[4]

فقد أُتلف ما كان للرجل الغني الكافر من مال، بأن أرسل الله على جنته وزرعه حسبانا من السماء، فهلكت أنعامه وسُلبت أمواله، وصار يقلّب كفيه وهي حركة يقوم بها المتحسِّر، وذلك بأن يقلّبهما إلى أعلى ثم إلى قبالته على ما أنفق من مال في إحداث وإقامة تلك الجنة.[5]

وما تزويد الحدث بسببه ونتيجته إلا لزيادة الفهم ووضوح الفكرة وإزالة أي لبس محتمل.

6-التعليلية:

وهذه العلاقة قريبة من العلاقة السابقة (السببية)، وتكاد تتداخل معها، لكن نفرّق بينهما بذكر علّة الفعل في العلاقة التعليلية، بينما يذكر السبب والنتيجة في العلاقة السببية.

وفائدة التعليل «التقرير والأبلغية، فإن النفوس أبعث على قبول الأحكام المعلَّلة من غيرها، وغالب التعليل في القرآن على تقدير جواب سؤال اقتضته الجملة الأولى».[6]

---

[1] سورة الكهف، الآية: 40.

[2] مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ص 261.

[3] سورة الكهف، الآية: 63.

[4] سورة الكهف، الآية: 42.

[5] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص ص 326، 327.

[6] جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المجلد: 3، ص 224.

وقد يكون التعليل دون أداة في مثل قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾[1] وفي قوله تعالى أيضا: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾.[2]

ومن أشهر أدوات التعليل: اللام، التي هي للجر في الأصل (حرف عامل)، ونجدها في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.[3]

كانت هذه أهم العلاقات التي ساهمت في التحام النص الحواري في قصص سورة الكهف، وأدت إلى ترابطه معنويا، ونؤكّد هنا على أننا ركّزنا على معياري السبك والحبك وما يحققهما لأنهما المعياران المتصلان بالنص الحواري اتصالا مباشرا، ومن خلالهما ندرس أجزاءه ومكوناته هو دون النظر إلى العوامل الخارجية كالمقام والموقف، أو إلى الظروف المحيطة بأطرافه (أي بالمتحاورين).

2-علاقاته:

تقوم علاقات النص الحواري داخل النص القصصي القرآني، وذلك بتواجده في سياق عرض للأحداث والشخصيات، والقصة -كما هو معروف-نص لا يخلو من السرد، كما لا ينأى عن واحد من أسمى أهدافه وهو أخذ العبرة وتلقي الدرس الذي ينفع صاحبه في أي مجال من مجالات الحياة، دينيا كان أم اجتماعيا أم أخلاقيا.

لهذا نجد تنوعا في حركة وتمظهر الحوار في النص القصصي القرآني وبصفة خاصة في سورة الكهف، كما نجد لهذا الحوار القرآني علاقة بالمقاطع السردية وكذا بالمقاطع الوعظية:

أ- تنوع حركة الحوار القرآني وأساليبه:

لم يلتزم الحوار القرآني أسلوبا أو شكلا واحدا، ولم يثبت على طريقة أو محتوى واحد وإنما تنوع بتنوع أغراضه والأشخاص الذين يديرونه، واختلف باختلاف المواقف التي يقفونها والمواقع التي يتحدّثون منها، ثم إن هذا التنوع يمنح النص الحواري والقرآني بصفة خاصة صورة جمالية حية، وطاقة تعبيرية نافذة إلى النفوس والعقول دون عناء أو شعور بخلل معين، لأن «القرآن الكريم ينتقل من موضوع إلى

[1] سورة الكهف، الآية: 62.

[2] سورة الكهف، الآية: 76.

[3] سورة الكهف، الآية: 24.

موضوع ومن أسلوب إلى أسلوب آخر دون أن يخلّ ذلك التنويع بوحدة السورة وإنما يضفي عليها روحا تركيبية تأسر الألباب».[1]

فالحوار في قصة أهل الكهف يختلف عنه في قصة صاحب الجنتين، وهو في قصة ذي القرنين يختلف عنه في قصة سيدنا موسى عليه السلام والعبد الصالح، وإجمالا النصوص الحوارية في هذه القصص كلّها تختلف عن بعضها، وهذا الاختلاف خادم لاختلاف وتنوع السياق والمقام والموقف.

ولهذا نجد أن القرآن الكريم «لم يلتزم نهجا واحدا في إقامة البناء الحواري، لأن ذلك معناه الخضوع للآلية الحتمية، التي من شأنها أن تقضي على الحرية المطلقة، التي ينبغي أن يولد العمل الفني في جوها، وأن يتنسم أنسامها، وإلاّ اختنق ومات أو ولد ميتا، لهذا نجد القرآن يذهب بالأسلوب الحواري كل مذهب، ويلوّنه ألوانا مختلفة، حسب مقتضى الحال وداعية المقام».[2]

والمعروف أن النفس ميالة إلى التغيير والتنويع، لذا فإن من بلاغة النص الحواري القرآني أنه يعبّر عن انفعالات الشخصية وتجاربها ورغباتها في كل مرة بطريقة تجعل المتلقي يتأثر بها، فيقتدي بها أو ينفر منها.

ب- علاقة النص الحواري بالمقاطع السردية والوعظية:

كثيرا ما نجد السرد يتداخل مع الحوار في النصوص القصصية، ذلك أن الشخصيات في الكثير من محطات تحاورها تأخذ دور الراوي، فيكون لها نصيب من حكاية الأحداث، ويتجلى هذا في حوار سيدنا موسى مع فتاه في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾[3] ومع العبد الصالح في قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.[4]

---

[1] الحسين جرنو محمود جلو، أساليب التشويق والتعزيز، ص 159.

[2] عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص 124.

[3] سورة الكهف، الآية: 63.

[4] سورة الكهف، الآيات: 79- 82.

ففي مثل هذا الموقف الحواري يخرج الخطاب عن كونه إلهيا، وتتولى الشخصية عملية السرد وتدخله في الحوار، وبهذا فإن الحوار القرآني «يعتمد في الغالب على الحكاية، حكاية مقولات القائلين ونقلها على ألسنتهم نقلا طبيعيا تلقائيا، لا مبالغة فيه ولا افتعال، فتصاغ المعاني على ما يقتضيه أسلوب إعجازه».[1]

إن علاقة الحوار بالسرد الذي هو قوام القصة عموما، يمنح الأحداث المسرودة عمقا ومثولا في القصة وفي نفس المتلقي كذلك، كما يساهم في نمو الأحداث والانفعالات بين الشخصيات، وهذا ما نجده في قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح، حيث صار فيها السرد حوارا والحوار سردا مما أدى إلى تحوّل الموقف الحواري بينهما إلى مشهد مسرحي حيّ، نراه ونتفاعل معه ونشدّ أنفاسنا أحيانا ونحاول التكهن بالنهاية أحيانا أخرى لحلّ عقدة قد نشأت بين المتحاورَين، فنحن هنا «نجد المشهد كلّه حاضرا مشخّصا يملأ الأسماع والأبصار، بكلّ خلجة أو خاطرة وقعت فيه».[2]

وبسبب هذا التداخل أطلق بعض الباحثين على هذا النوع من الحوار مصطلح: الحوار السردي، لأنه قادر على أداء وظيفة السرد من جهة، ولأن له علاقة ببنية السرد من جهة أخرى.[3]

وكان للقرآن الكريم في هذا الشأن قدرة عجيبة على المزج والالتحام، وجعل ذلك الترابط والتعلّق بين مركبات النص القصصي بمنتهى الانسجام والإتقان، دون ارتباك أو إخلال على مستوى اللغة أو الموضوع أو طريقة العرض.

كما نجد المقاطع الحوارية في الكثير من الأحيان تحمل المواعظ للآخر، وتحاول إحداث تغيير ما في سلوكه أو عقيدته أو حياته إجمالا، ومثال هذا يتضح في الحوار الذي دار بين صاحب الجنتين والرجل الآخر الفقير، حيث نجد هذا الأخير يعظ صاحبه لما رأى فيه من انحراف وانسداد في التفكير، قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾.[4]

---

[1] طالب محمد إسماعيل الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، دراسة لغوية أسلوبية في ظل النص القرآني، ط 1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1996، ص 207.

[2] عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص 124.

[3] فاتح عبد السلام، الحوار القصصي، تقنياته وعلاقاته السردية، ص 242.

[4] سورة الكهف، الآيات: 37- 41.

ونلمس من خلال هذا الحوار لينًا ورحمة من جانب المحاوِر، إذ يحاول هداية صاحبه وتوعيته وإنارة بصيرته، فالمال والأبناء نعمة من عند الله، إن شاء أعطاها وإن شاء منعها، وهذا الذي نراه يفاخر بما عنده ما لبث أن سحق الله كل شيء أمام عينيه، ليعلم أن قدرة الله لا حدود لها وأن الكفر وعبادة المال عاقبتهما وخيمة، وأن الذي يثق في الله وعظيم قدرته لا يخيب، فكم غنيٍ صار فقيرا وكم فقيرٍ صار غنيا.

الفصل الثالث: الوظيفة الأسلوبية للحوار القصصي في سورة الكهف.

أولا: مفهوم الوظيفة الأسلوبية للحوار:

1-وظائف اللغة عند رومان جاكوبسون.

2-الوظيفة الأسلوبية عند ميشال ريفاتير.

3-الحوار عند ميخائيل باختين.

ثانيا: وظيفة المستويات اللغوية.

1-البنية الصوتية.

2-البنية الصرفية.

3-البنية النحوية.

4-البنية الدلالية.

ثالثا: الوظيفة البلاغية.

1- بلاغة الحذف (الفراغات النصية).

2- الأساليب البلاغية (الخبر والإنشاء).

أولا: مفهوم الوظيفة الأسلوبية للحوار:

1- وظائف اللغة عند رومان جاكوبسون:

أ-مفهوم الوظيفة/ وظائف اللغة:

تقوم اللغة على بناء مجموعة من الوحدات اللفظية بناء مدروسا ومتناسقا وموافقا لما وُجدت عليه كل لغة عند أهلها، بدءا من الصوت إلى الكلمة إلى الجملة ليتكوّن النص بمفهومه الأدبي، ومن وجهة نظر التحليل الأسلوبي يعتبر أنّ «كل نص يشكّل بنية فريدة يأخذ منها آثاره الخاصة به بمعزل عن أيّ نص».[1]

هذه الوحدات تتفاعل فيما بينها لتعطي النص بعدا فنيا ودلاليا في لغته، هذه اللغة التي بدورها تتفاعل مع مختلف الأطراف (متكلم، مستقبل، قارئ) لتؤدي وظيفة أو مجموعة من الوظائف، «فالوظائف هي وحدات معنوية صغرى تتبني على علاقات توزيعية وإدماجية، وبذلك تكون المقطوعة في القصة تتابعا منطقيا علائقيا بين محاور معينة».[2]

مما سبق نستنتج أن الوظيفة تتشكّل من تلك العلاقات التي تنشأ بين عناصر اللغة، وفق نمط معين من التركيب، لتصبح ذات أثر وتأثير داخل سياق الكلام أو سياق النص ومحمولاته.

وإن شئنا حصرا أكثر وتعبيرا أدقّ فإنه يمكن تحديد هذا المفهوم على أن الوظيفة هي الاستعمال، فوظيفة اللغة ليست سوى الطريقة التي يستعمل بها الناس لغتهم لتحقيق أغراضهم المختلفة.[3]

ولعلّ أول غرض هو التواصل أو الاتصال، فالوظيفة التواصلية هي أولوية اللغة وتحقُّق هذه الوظيفة متوقف على استعمال هذه اللغة في إطارها المناسب وبالشكل الذي يضمن التفاهم بين مستعمليها.

وفي البلاغة التقليدية نجد للغة ثلاث وظائف أساسية تتمثل في: وظيفة الإخبار ووظيفة الإمتاع ثم وظيفة التأثير.[4]

هذه الوظائف تبدأ من أبسط وظيفة لتتجه نحو الاعقد والأكثر فاعلية وتفاعلا، أي من الإبلاغ إلى التأثير وإحداث التغيير وتفاعل المتلقي مع ما يتلقّاه.

---

[1] بيير جيرو، الأسلوبية، ترجمة: منذر عياشي، ص 123.

[2] توفيق الزيدي، أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث من خلال بعض نماذجه، الدار العربية للكتاب، 1984، ص 140.

[3] ينظر: هاليداي، وظائف اللغة، ترجمة: محمود أحمد نحلة، مجلة اللسان العربي، العدد: 54، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الرباط، شوال 1423 هـ/ ديسمبر 2002م، ص 105.

[4] ينظر: صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ط 1، دار الشروق، القاهرة، 1419 هـ/ 1998م، ص 203.

ومنه تنتقل اللغة من مستواها العادي من جانبها الوظيفي إلى مستوى أعلى وأرقى يتجلّى في الأدب، حيث تأخذ وظيفة اللغة أبعادا فنية مختلفة كون اللغة نفسها كائنا حيا وظاهرة اجتماعية يتشكّل وفقها النص الأدبي، الذي يعدّ عالما لغويا متكاملا تتولّد أدبيته وفنيته من تركيبته الألسنية وطاقته التعبيرية وما ينشأ بين عناصره من أنسجة متنوعة وتفاعلات متميزة.[1]

وقد عرفت وظائف اللغة عدّة تصنيفات مختلفة ومتباينة، لكنّ أهمها هي التي جاء بها رومان جاكوبسون، والتي تعدّ هيكلا ومخططا لنظرية تواصلية بكلّ عناصرها.

ب-وظائف اللغة عند رومان جاكوبسون:

تُستعمل اللغة لتحقيق عملية الاتصال والتواصل التي تقوم على عناصر تكوّن وتشكّل هذه العملية بنجاح، ذلك أنّ «اللغة في نظر دوسوسير عبارة عن مستودع من العلامات (مخزن) والعلامة وحدة أساسية في عملية التواصل بين أفراد مجتمع معين».[2]

وقد وجّه رومان جاكوبسون اهتمامه إلى هذه العناصر (عناصر الاتصال) ليستنتج منها وظائف اللغة الستّ المعروفة، وكان قبله بيولر قد اعترف للغة بثلاث وظائف تحدّدها ثلاثة أقطاب: المتكلم والمخاطب والقطب الثالث هو كل ما عداهما، لكنّ جاكوبسون (1960) أضاف ثلاث وظائف أخرى ووسّع نظرية بيولر بعدما تبنّتها مدرسة براغ.[3]

ويتكوّن جهاز التخاطب في نظرية جاكوبسون من ستة عناصر استخرج منها ستّ وظائف، وهذه العناصر هي: المرسل(Destinateur) والمرسل إليه(Destinataire) والرسالة (Message)وهي محتوى الإرسال وتستند إلى سياق(Contexte) وتقوم على سنن (Code)يشترك فيها طرفا الجهاز، وتربط المرسلَ بالمرسل إليه قناة هي أداة الاتصال أو الصلة(Contact).[4]

---

[1] ينظر: نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ج 1، ص 218.

[2] شتوح خضرة، محاضرات في المدارس اللسانية، مطبوعة موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، السنة الجامعية: 2021/2020، ص 15.

[3] ينظر: هاليداي، وظائف اللغة، مجلة اللسان العربي، ص 106.

[4] ينظر: عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص 157.

ليكون شكل الجهاز كالآتي:[1]

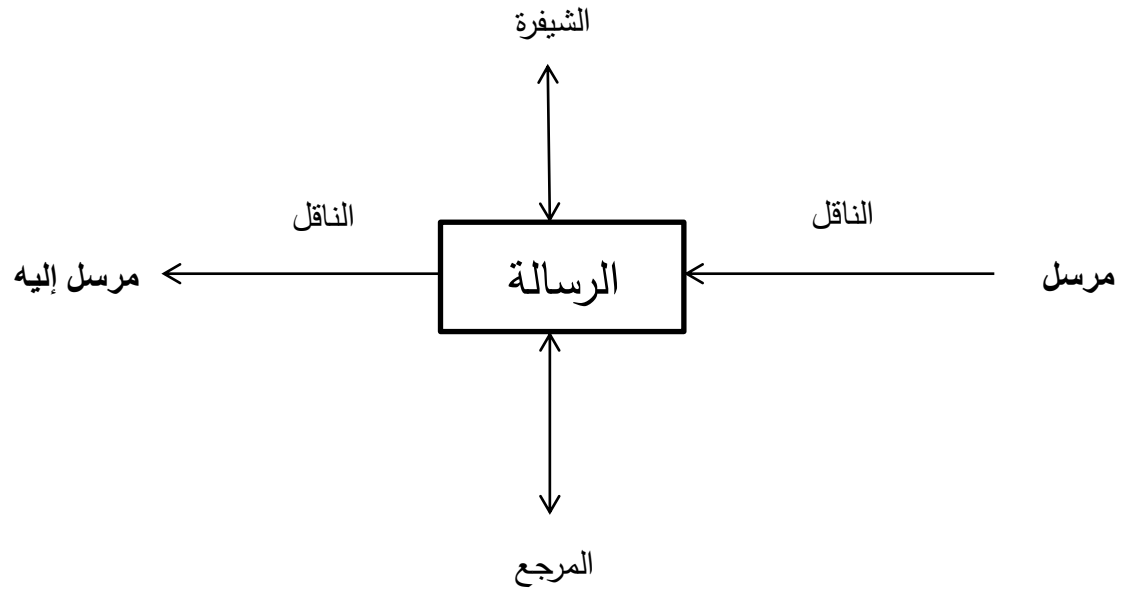

مخطط رقم: (1) يوضح عناصر عملية التخاطب.

وبناء على هذا المخطط لجهاز التواصل أو التخاطب صاغ جاكوبسون نظريته الشهيرة مكتشفا أن كل عنصر من عناصر الجهاز الستة يولّد وظيفة في الخطاب تتميّز نوعيا عن وظائف العناصر الأخرى.[2]

لتكون وظائف اللغة في نظريته الاتصالية ست وظائف مرتبة كالآتي:[3]

- **الوظيفة المرجعية:** وتعتبر قاعدة لكل اتصال، إنها تحدّد العلاقة بين الرسالة والموضوع الذي تحيل إليه.
- **الوظيفة الانفعالية:** تحدّد العلاقة بين الرسالة والمرسل وهذه الوظيفة مصدرها يأتي من تنوعها الأسلوبي ومن الإيحاءات التي توحي بها هذه التنويعات الأسلوبية.
- **الوظيفة الإفهامية:** وتحدّد العلاقات بين الرسالة والمتلقي وردّ الفعل هو مدار اهتمامها وغايتها.
- **الوظيفة الشعرية:** يحدّدها جاكوبسون بأنها علاقة بين الرسالة وبنية تكوينها، وتكلف الرسالة في الفنون عن كونها أداة للاتصال لتصبح موضوعا في ذاتها، وبهذا تتجاوز حدود الإشارات المباشرة لتدخل فرضية الدال ورمزيته وأسلوبيته وسوى ذلك.
- **الوظيفة التنبيهية:** وتهدف إلى تأكيد أو إبقاء أو إيقاف الإيصال، وتهدف إلى شدّ انتباه المتلقي.

---

[1] نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، ج 1، ص 246.

[2] ينظر: عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص 158.

[3] نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، ج 1، ص ص 246، 247.

- **الوظيفة الانعكاسية:** وتسعى إلى تحديد معنى الإشارات، لأن المتلقي قد لا يفهمها مثل وضع كلمة بين مزدوجين وغير ذلك.

وكل وظيفة من الوظائف السابقة تتولّد أو تنتج عن عنصر من عناصر جهاز التخاطب أو التواصل، وقد حاولنا ضبطها وإجمالها بناء على دراستي كل من عبد السلام المسدي ونور الدين السد، لإزالة الإبهام وتوضيح بعض الاختلاف في المصطلحات فجعلناها في الجدول الآتي:

عناصر التخاطب	الوظائف الناتجة عنها
المرسِل.	الوظيفة التعبيرية (الانفعالية).
المتلقي.	الوظيفة الإفهامية (المعرفية).
السياق.	الوظيفة المرجعية.
العلاقة (الصلة).	الوظيفة الانتباهية.
نمطية (السنن).	الوظيفة المعجمية أو وظيفة ما وراء اللغة (الميتالغوية).
الرسالة.	الوظيفة الشعرية (الإنشائية).

-جدول رقم: (12) يوضح علاقات عناصر الاتصال بوظائف اللغة عند جاكوبسون.-

ومن الملاحظ أن جاكوبسون لم يستخدم قطّ كلمة الأسلوبية، وقلّما استخدم كلمة الأسلوب، لأنه يبدلها بأخرى هي الوظيفة الشعرية.[1]

فالوظيفة الأم أو العامة للغة هي الوظيفة التواصلية، وهي أصل نظرية جاكوبسون لكنّها تضمّ وظائف أخرى تؤدّى داخل الفعل التخاطبي بناء على أقطاب التواصل المذكورة سابقا في المخطط.

2-الوظيفة الأسلوبية عند ميشال ريفاتير:

إذا كان رومان جاكوبسون تحدّث عن وظائف اللغة ولم يتناول الأسلوب والأسلوبية في دراسته مصطلحا ولا موضوعا، وإنما أشار إلى الوظيفة الشعرية في مقابل ذلك، فإن ريفاتير قرّر أن الأسلوب يعدّ خصوصية من خصوصيات الرسالة بالنسبة إلى الكاتب، ولا يوجد أسلوب إلا في النص.[2]

[1] ينظر: بيير جيرو، الأسلوبية، ص 124.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص 124.

فالخصوصية لا تتعدى صاحبها إلى أشخاص آخرين وإذا ميّزَت كاتبا أو مبدعا تصبح ذات طابع محصور لا عام نظرا إلى طريقة تناول كل أديب للغة في إيصال الرسالة، وهذا "من باب مقولة إن الأدب ابن لغته".[1]

وبهذا فإن «الخاصية الأسلوبية نوع من الخروج على الاستعمال العادي للغة بحيث ينأى الشاعر أو الكاتب عمّا تقتضيه المعايير المقرّرة في النظام اللغوي».[2]

وفي حديث ميشال ريفاتير عن فعل القراءة وتعقيبه عن العلاقات بين عناصر عملية التواصل الإبداعية يؤكّد أن الظاهرة الأدبية تستوي في علاقة النص بالقارئ وليس في علاقة النص بالكاتب، ولا في علاقة النص بالواقع، فالظاهرة الأدبية عنده ليست متوقّفة على النص فحسب بل هي القارئ أيضا، متمثلا في ردود أفعاله المحتملة ومواقفه تجاه النص ومضمونه.[3]

فالقارئ له دور لا يستهان به في قراءة وتحليل النص، وإعادة صياغته وفق ما يتمتع به من ذائقة أو خلفيات اجتماعية وثقافية ودينية، فالقارئ ينتقل من دور التلقي إلى دور الإنتاج وحتى النقد، لكنّ هذه الوظيفة تتوقف على مدى قدرته على التفكيك وتمكنه من اللغة وتعوّده على الاستعمال اللاعادي لهذه اللغة التي تصبح من بين ما يحقّق الخصوصية الأسلوبية للكاتب، «ويؤكّد العلماء أن عملية إعادة تكوين الأسلوب التي يقوم بها القارئ لا تتم بشكل متعسف بعيد عن المنطق، بل ترتكز على قوانين الانحراف وملامح التشابه والتضاد في النص نفسه، نتيجة لاختيار المؤلف وقدرته على توظيف الوسائل الأسلوبية».[4]

فالكاتب يوظف اللغة بالطريقة التي يراها تناسبه أو تحقق لنصه ما يكفي من الفنية والجمالية وكذا الخصوصية، والمتلقي يستعدّ للقراءة بكل ما أوتي من أدوات لغوية وثقافية وبحثية تجعله شريكا في النص ومساهما في اكتشاف مواطن الخصوصية فيه.

وبحديثنا عن القراءة ودور القارئ نخرج إلى الحديث عن الوظيفة الأسلوبية التي تتمحور حول الرسالة وما يُنتظر منها من إبلاغ وتأثير، وإذا كان جاكوبسون قد أحلّ الوظيفة الشعرية محل الأسلوب، فإن ريفاتير قد جعل الوظيفة الأسلوبية بديلة للوظيفة الشعرية، ذلك أن الأول ركز على العلاقة بين المرسل والمرسل إليه، بينما الأخير انكبّ على دراسة التأثير الواقع بين الرسالة والقارئ.

---

[1] عبد القادر لكحل، عباس بن يحيى، القصة القصيرة المغاربية ومشكلة النص الأول، مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، المجلد: 08، العدد: 02، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2023، ص 22.

[2] عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص 169.

[3] ينظر: نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث، ج 1، ص 248.

[4] صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص 207.

وهذه الوظيفة تنتصر في الأداء الكلامي عن الوظيفة المرجعية دائما، فالرسالة المتوجهة إلى مرجع موضوعي يتوقف نفوذها الفعلي الدال على الإدراك على تأثير العلامة على المتلقي وعلى مدى قيام هذه العلامة بعملية الإبلاغ، لتكون الوظيفة الأسلوبية هي الوحيدة الموجهة إلى الرسالة بينما الوظائف الأخرى كلها موجهة خارج الرسالة.[1]

وفي هذه الوظيفة يتجلى دور القارئ في تفكيك شفرات النص وقراءة ما وراءه ليلامس فكرة المبدع ويشاركه عالمه الخاص، وبهذا يكون النّص واحدا والقراءات متعدّدة بتعدّد القرّاء، ونجد للتلقي جماليته كما للأسلوب وتشكّله الأدبي فنّيته كذلك، خاصة أن «نفس الخاصية الأسلوبية يمكن أن تثير انفعالات متعدّدة ومتميزة تبعا للسياقات التي ترد فيها»،[2] وقد ربط ريفاتير عنصر القارئ بمفهوم الأسلوب لديه حين قال: «هو ذلك الإبراز الذي يفرض على انتباه القارئ بعض عناصر السلسلة التعبيرية».[3]

وقد أطلق مصطلح "المسنِّن" على المرسِل ومصطلح "مفكِّك السنن على المتلقي"، الذي يختزن بداخله طاقة كامنة تمكّنه من فكّ شيفرات النص وتبيّن سمات أسلوبية فيه لم يكن يتوقّع وجودها، وبذلك يتغلّب على عنصر المفاجأة.

لنصل بعد هذا العرض إلى مفهوم الوظيفة الأسلوبية كما صاغها ميشال ريفاتير على أنها الوظيفة التي تقوم بمهمة تنظيم العلاقة بين مختلف الوظائف الأخرى، فهي تقوم بتعطيل أو تبطيء عملية تفكيك السنن، أي دورها يتفاعل مباشرة مع دور القارئ، لتجبره على صبّ انتباهه على النصّ مما يخلق نشاطا سيكولوجيا لديه، لبحث النص وإبداء انطباعاته وتوجيهها إلى وحدات النص نفسه ومضمونه وكشف سماته البارزة.[4]

وبهذا لا يُلغي ريفاتير دور المؤلِّف ولا دور القارئ، لكنّه يركّز دراسته لدوريهما على النص نفسه بمختلف تمظهراته وخصائصه الأسلوبية، وبنياته اللغوية والمعنوية.

3- الحوار عند ميخائيل باختين:

يختلف ميخائيل باختين عن سابقيْه: "رومان جاكوبسون" و"ميشال ريفاتير" في الفكر ومنطلقاته والمرجعيات العلمية والثقافية وفي الأهداف الدراسية، لكنه يلتقي معهم في نقطة تحليل الخطاب والفكر

[1] ينظر: نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث، ج 1، ص 228.

[2] عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص 59.

[3] ميشال ريفاتير، معايير تحليل الأسلوب، ترجمة وتعليق: حميد لحمداني، ط 1، منشورات دراسات سال، 1993، ص 5.

[4] المصدر نفسه، ص 11.

المؤسس لنظرية تواصلية متعددة العناصر ومختلفة الطرائق في البحث والدراسة والتعمق للوصول إلى النموذج المثالي.

وفهم ما وصل إليه باختين ليس بالأمر السهل نظرا إلى اتساع فكره وصعوبته وتعقيده، وضياع أجزاء منه وتأخّر أجزاء أخرى في الظهور والانتشار، بالإضافة إلى نشر عدد من أبحاثه بأسماء تلاميذه مثل مدفيديف وفولوشينوف، فكانت مصيبة بالنسبة إلى الفكر الباختيني المتسع ذي المفاهيم النقدية والفلسفية، خاصة ما تعلق منها بالحوار والحوارية (Dialogisme).[1]

فباختين لم يكتف بالحديث عن الحوار بوصفه عنصرا فنيا وأساسا للتواصل وإنما جعل له نظرية سميت بحوارية باختين، كما عرف أيضا بدراساته في نظرية الرواية.

وقد استلهم باختين نظريته الحوارية من الفكر الماركسي الفلسفي، منطلقا من نظرته الخاصة للوجود الذي يراه حوارا دائما ومستمرا باستمرار تعاقب الزمن بين الماضي والحاضر.[2]

والحوار عند باختين يدرس بعيدا عن الأنساق اللغوية وعن كون اللغة بنية تدرس لذاتها ومن أجل ذاتها كما جاء في مقولات فرديناند دي سوسير، فهو ناتج عن تفاعل لساني داخل المجتمع وليس بمعزل عنه، وإذا كان الأسلوب هو الرجل كما عُرف سابقا فإنه عند ميخائيل باختين «هو رجلان على الأقل أو بدقة أكثر الرجل ومجموعته الاجتماعية، مجسّدين عبر الممثّل المفوّض: المستمع الذي يشارك [بفاعلية] في الكلام الداخلي والخارجي للأول».[3]

فتعدّد الرجال هو إشارة إلى تعدّد أساليبهم، ويظهر ذلك التعدد والاختلاف في محاوراتهم، ومنذ وقت مبكر كان باختين قد رفض وانتقد فلسفة التماهي والاندماج، فلكلٍّ شخصيته يتحاور بها، وبهذا تبقى الهويتان ثابتتين وأكيدتين، فالمعرفة التي تأخذ شكل الحوار يكون فيها "أنت" مساويا لـ"أنا" لكنه أيضا مختلف عنها.[4]

ومنه يظهر جليّا البعد الفلسفي في الفكر الحواري لباختين، وذلك من خلال استثمار جدلية الأنا والآخر ما دام الحوار حدثا كلاميا في مجتمع إنساني لساني معين، يستحيل فيه أن تتماهى شخصية في الأخرى مهما بلغتا من التوافق والتفاهم.

---

[1] ينظر: نجاة عرب الشعبة، حوارية باختين: دراسة في المرجعيات والمفردات، مجلة التواصل في اللغات والثقافة والآداب، العدد: 31، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، سبتمبر 2012، ص 81.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص 84.

[3] تزفيتان تودوروف، باختين: المبدأ الحواري، ترجمة: فخري صالح، ط 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، الأردن، 1996، ص 124.

[4] ينظر: المصدر نفسه، ص 199.

وفي هذا كله «يتحتم على المتكلم أن يأخذ بعين الاعتبار وجهة نظر السامع الذي يفكّ الشفرة الملقاة إليه».[1]

وقد أشار إلى أن الأمر لا يتطلب تدخل الجانب اللساني فحسب لفهم الشفرة وإنما لا بدّ أن يكون فهمها ضمن سياق ملموس ومحدّد، فالفهم الصحيح لها لا يعني مطابقتها للمعيار أو النمط المتعارف عليه، وإنما يجب على المتلقي إدراك طابع جدّتها أي على أنها عنصر متحوّل ومرن لا إشارة ثابتة مساوية لذاتها دائما.[2]

وقد انتقد باختين جدليات هيجل محتجّا على رغبتها في توحيد كلّ شيء، وهو ما يرفضه محاولا وضع فارق أو حدّ بين الجدل والحوار؛ فالعملية تبدأ بإنضاج كلمات الحوار (تقسيم الأصوات وتوزيعها) ثم إنضاج تنغيماتها (ما يتعلق بالسمات الشخصية والعاطفية المؤثرة)، ثم بعد هذا انتزاع الأفكار المجرّدة والاستنتاجات من الكلمات والأقوال الحية، ثمّ تغليف كلّ هذا بالوعي المجرّد المتفرّد، لنحصل في الأخير على الديالكتيك.[3]

ولأن الفكر الباختيني فلسفي ها هو يوظف مصطلحا فلسفيا تمثل في "الديالكتيك"، ومن الواضح من تناوله للفكرة أنه يقصد نقاشا جدليا هادفا، فيه معالجة المتناقضات لكن لإثبات فكرة مبنية على المنطق لإقناع الآخر بها، وقد يكون الانطلاق من مسلّمة أو معلومة ثابتة ثم يشرع في دراسة المتغيرات وفق منهج فلسفي منطقي قائم على الحجّة رامٍ إلى تفاهم الطرفين المتحاورين.

[1] ميخائيل باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة: محمد البكري ويمنى العيد، ط 1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص 91.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص 91.

[3] ينظر: تزفيتان تودوروف، باختين: المبدأ الحواري، ص 192.

ثانيا: وظيفة المستويات اللغوية:

1-البنية الصوتية:

أ-جمالية الصوت في النص القرآني إجمالا:

لا خلاف في أن ما في القرآن الكريم جميعا متناسق ومنسجم، من سور وقصص ومعجزات... وهو مبهر مؤثّر أشدّ التأثير على مرّ العصور، وصولا إلى الإعجاز الذي لا نكاد نتحدّث عن ظاهرة من ظواهر القرآن إلا وجدنا أنفسنا نتحدّث عنه وننساق إليه، لأن دارس القرآن الكريم -في أي جانب من جوانبه-لا يجد القدرة على الإفلات من قوة وجمال أسلوبه، ونحن إذ نتحدّث عن بنيته الصوتية لا بدّ من التطرق إلى إيقاعه الموسيقي جملة قبل التطرق إلى إيقاعات أجزائه المنفردة.

فلمّا عُرض كلام الله تعالى على عرب قريش في بداية الدعوة «رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله ألحانا لغويةً رائعةً، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قِبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم؛ حتى إن من عارضه منهم كمسيلمة جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظما موسيقيا أو بابا منه».[1]

واتجاههم هذا يدلّ على أن أول ما جذب المتلقين هو النظام الصوتي المتآلف لآيات القرآن الكريم، فصار بلوغ مثله غاية أرادوا تحقيقها، وكأنهم وجدوا حقا منبع السحر فيه، غافلين عن جوانب أخرى كجمال اللغة وتنوع الصور وسمو العبارات والأساليب، ودقة النظم، وبلاغة المضمون، ذلك أن «قوة الإيحاء والإفصاح التي أشار إليها "أولمان" في سياق تحليله لدور الكلمة في اللغة تتصل اتصالا وثيقا بما تنطوي عليه النسوج التعبيرية والوحدات المفردة من طاقة صوتية تسهم إسهاما فعالا في إحداث الدلالة وتشكيل المعنى وتكثيفه وكشف أسراره الفنية والفكرية والجمالية».[2]

والقرآن الكريم كلام لا يخلو من الإيقاعات الموسيقية والأصوات الرنانة دون أن يكون شعرا أو موسيقى، ذلك أن الشعر فيه الجيد والرديء والحسن والسيء، وموسيقاه تنبعث من أوزانه ورويه ووحدة بناء القصيدة، كذلك القطعة الموسيقية قد تقع في النفس موقعا لطيفا أو العكس، أما من كان بإزاء القرآن الكريم فإنه يحسّ أنه في أجواء خلاّبة من لحن متجدّد متنوع، يكون فيه الانتقال بين الأسباب والأوتاد والفواصل، فيأخذه بتأثيره ويتملّك قلبه دون ملل أو سأم، بل قد يطلب مزيدا منه.[3]

---

[1] مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 176.

[2] قدور رحماني، نظام التوازي في شعر ابن عربي (أنموذج الفتوحات المكية)، دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، المجلد: 03، العدد: 08، جامعة المسيلة، الجزائر، ديسمبر 2018، ص 233.

[3] ينظر: محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص 131.

فمن علامات جاذبيته وسحره أن النّفس ميالة إليه، يستهويها سماعه ويطربها أيّما طرب، والإحساس بموسيقاه واضح جليّ فيه لا مهرب منه، فالحقيقة أنه «للبيان القرآني المعجز إيقاع جذاب مؤثّر، وهذا الإيقاع الأخاذ يدخل أذن السامع فيؤثر فيه، إذ يتفاعل وينشط ويهتز ويخشع، وكثيرا ما يغيّر موقفه، ويتوجه نحو القرآن». [1]

ولعلّ أبرز صور التأثير ما نجده من امتثال العبد العاصي الغافل عن عبادة الله بمجرد سماعه آية أو سورة، فيهتدي إلى سواء السبيل ويقوّم ما كان في سلوكه من اعوجاج، أو ما يحدث من قصص لإسلام علماء أو غيرهم من الكفار والمشركين أو الملحدين، لما يجدونه في النص القرآني ويفقدونه في غيره من النصوص.

وفي هذا يقول العلّامة محمد عبد الله دراز: «دع القارئ المجوِّد يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلا بنفسه على هوى القرآن وليس نازلا بالقرآن على هوى نفسه، ثمّ انتبذْ منه مكانا قصيا لا تسمع فيه جرْس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومدّاتها وغناتها، واتصالاتها وسكتاتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جُرّدت تجريدا وأرسلت ساذجة في الهواء، فستجد نفسك بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرّد هذا التجريد، وجُوّد هذا التجويد».[2]

هذه الغرابة سطت على النفوس وسلبت العقول وأخضعت القلوب دون قدرة المرء على التمنّع أو المعارضة، لأن إيقاع القرآن الكريم ببساطة أقوى من أن يقاوم، وأسمى من أن يؤتى بمقطوعة أو لحن مثله.

وفيما يلي دراسة صوتية فيها شيء من التفصيل بعد هذه الإشارة إلى الطابع الإيقاعي الموسيقي للنص القرآني بصفة عامة.

ب-إيقاع الحروف وتلاؤم الأصوات:

دراسة هذا العنصر في هذا الموضع بالذات تركّز بالدرجة الأولى على الجانب الموسيقي والإيقاعي الجمالي لحروف وأصوات المقاطع الحوارية في قصص سورة الكهف، أي الجانب الشكلي وما يثيره في نفس المتلقي، لأن محاولة ربط الأصوات بمعانيها انطلاقا من مخارجها وصفاتها يعدّ ضربا من المغامرة في التعامل مع النص القرآني، إلا ما بدا منها جليا ولم يكن فيه تحامل على النص القرآني المقدّس.

فالله سبحانه وتعالى في قرآنه جعل الحرف إلى الحرف فنشأت كلمات متناسقة الأصوات لا تنافر ولا غرابة فيها، جميلة الوقع في النفس فقد «كان من أسباب إعجاز النظم الموسيقي في القرآن رصف

[1] صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ص 134.

[2] محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص ص 127، 128.

حروف اللغة العربية على اختلاف صفاتها وموقعها من جهاز النطق الإنساني، على هذا النحو الذي بلغ قمة السلاسة والعذوبة في الآيات والسور القرآنية، والذي بلغ الذروة العليا من الفصاحة والبيان في جميع مفردات القرآن وجمله على حدّ سواء».[1]

ففي جَعْل الحرف إلى الحرف في تركيب الكلمة تحقيق للنبرات الموسيقية التي تتطلب في إنشاء كلماتها التي تتبعث منها تأليفا على نحو خاص، يكون فيه تمازج الحروف مع بعضها، وتداخل خواصها، واجتماع صفاتها، ليكون من ذلك الترتيب الصوتي ذلك اللحنُ الموسيقي.[2]

لذا كان من أهم ما ميّز النص القرآني عامة هو الاختيار الدقيق لكل ما فيه من أصوات وكلمات، فقد أوقعها الله تعالى مواقعها وجعلها بالكم والقدر المناسب لأغراض كلامه جلّ شأنه، «فتألّفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللا بيّنا أو ضعفا ظاهرا في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حس السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض».[3]

ففي كلام الله عز وجل لا يوجد حرف زائد أو كلمة في غير محلها، أو أصوات مضطربة أو متنافرة تستهجنها الأذن وتنفر منها النفس.

وهذا راجع إلى تناسب الأصوات وتلاؤمها، والتلاؤم كما حدّده الباقلاني هو «تعديل الحروف في التأليف، وهو نقيض التنافر»،[4] فلا نجد حروفا متباعدة جدّا أو متقاربة جدّا أو صفاتها غير متناسقة مع بعضها في المكان الذي جعلت فيه، قال الله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾.[5]

فمن هذه الآية الكريمة ينطلق لحن عذب من حروف كلمات جعلها الله تعالى متتابعة متشابهة، كالفعلين المتجانسين: قاموا فقالوا، والكلمة نفسها مكرّرة في قوله: ربّنا ربّ... ثم وجود حرف القاف في كلمتين متتاليتين هما: لقد قلنا... ومتذوق اللغة بمجرد قراءة هذه الآية يحس بإيقاعها الواضح في تناسب أصواتها وحسن تجاورها في الكلمات.

---

[1] عدنان محمد زرزور، علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه، ص 18. (الهامش).

[2] ينظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 176.

[3] المصدر نفسه، ص 179.

[4] الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 269.

[5] سورة الكهف، الآية 14.

وعليه يكون إيقاع الأصوات الظاهري الجميل قائما على عنصرين هما: الجمال التوقيعي، والجمال التنسيقي، أما الجمال التوقيعي فهو قائم على ما للحروف من أصوات وإيقاع في الأذن، وأما الجمال التنسيقي فهو قائم على تناسق الحروف في التأليف وتلاؤمها في تركيب الكلمات، واجتماعها لتأدية إيقاع موحّد جميل وجذاب.[1]

فلا عجب أن ارتبط القرآن بالنغم والإيقاع الموسيقي، خاصة إذا جوّد أو قرئ قراءة مضبوطة بالأحكام، ووقعت في أذنك ونفسك موقعا حسنا، «فطرقت سمعك جواهرُ حروفه خارجةً من مخارجها الصحيحة، [و] فاجأتك منه لذّة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يهمس ورابع يجهر، وآخر ينزلق في النفس وآخر يحتبس عنه النفَس، وهلمّ جرا، فترى الجمال ماثلا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة».[2]

ولنلاحظ هذا التنوع في المقطع الحواري الذي يقول فيه الله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾.[3]

فقد وجدت مختلف الأصوات كالصاد والسين والقاف والحاء والدال واللام والنون والباء... ووزّعت بحيث تتداخل وتتلاءم وتقع عذبة في سمع المتلقي بلا تنافر ولا تقارب بينها، فإذا حدث تكرار كان منه هو الآخر نغم حسن كتكرار عبارة: ما أظن، ووجود كلمتي: تبيد وأبدا المتشابهتين أيضا يمتع السمع بنبرة موسيقية رنانة واضحة.

ومثل هذا نجده في تكرار كلمتي لبثتم ولبثنا، وكلمتي بعثناكم وابعثوا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾،[4] فوجود حرف الثاء في هذه الكلمات، خاصة أنه صوت مهموس

[1] ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ص 136.

[2] محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص 132.

[3] سورة الكهف، الآيات: 34-36.

[4] سورة الكهف، الآية: 19.

رخو،[1] يبعث على تفطن أذن المتلقي لوقعه وبروزه في هذا الحوار، ومنه الإحساس بإيقاعه الخافت في هذه الآية الكريمة.

ولا بدّ أن لهذه القيم الصوتية ولعنصر التكرار وظيفة أو دورا في تحقيق التماسك النصي والترابط الدلالي، حيث يحظى التكرار الصوتي بوظيفة فنية عالية بالإضافة إلى الوظيفة الدلالية فهو يصل الكلمات بعضها ببعض في جملها مما يحدث إيقاعا موسيقيا في النص.[2]

إنّ أوّل شيء شدّ النفس وأذهلها، وجذبها إلى القرآن الكريم في نظمه هو هذا النظام الصوتي الخلاب البديع، الذي تتنوّع فيه الحركة والسكون، وتتوزّع فيه حروف المدّ والغنة بلا إسراف أو تقصير، كلّ بالقسط، فتنشط الأذن لسماعه، وتتهادى النفس منتشية بتلك الأصوات وهي تنتقل بين الفواصل لتجد عندها راحتها العظمى.[3]

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾،[4] ففي هاتين الآيتين نجد انتقالا بين الحركات والسكنات وحروف المدّ بسلاسة وعذوبة ملحوظة، فالقارئ أو السامع يتذوق اللحن من خلال ذلك الارتفاع في الصوت عن طريق حرف المد "الألف" بعد عدّة حروف متحركة وساكنة، والإحساس بصعود الصوت وتغيره بين الحين والآخر.

في حين لا نجد هذه الظاهرة في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣﴾،[5] لأننا نلمس غلبة الحركات والسكنات على حروف المد، مما يجعل النغم يجري مستقيما دون صعود أو نزول، نظرا إلى وجود ألف المدّ مرتين فحسب، وكأن الحروف في نطقها تأتي متلاحقة متسارعة على وتيرة واحدة يستقر عليها اللسان، ومثل هذا يتجلى في حوار سيدنا موسى مع العبد الصالح: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۝٦٨﴾.[6]

---

[1] إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ط 5، مكتبة الأنجلو المصرية، 1975، ص 21 و25.

[2] ينظر: عادل مناع، نحو النص، اتجاه جديد في دراسة النصوص اللغوية، ص 199.

[3] ينظر: محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص 131.

[4] سورة الكهف، الآيتان: 9، 10.

[5] سورة الكهف، الآية: 13.

[6] سورة الكهف، الآيات: 66-68.

وبوجه عام ندرك أن موسيقى النص القرآني تنبعث من الحروف وحركاتها ومن الألفاظ في كل آية كريمة، والتي بدورها تلقي ظلالها على التركيب بنغمها وجرسها، فينفرد بتصوير ورسم لوحة لونها زاه أو شاحب، وظلها شفاف أو كثيف.[1]

ففي حوار الآيات السابقة أيضا تقلّ حروف المدّ وتتوالى توقيعات الأصوات الساكنة والمتحركة بالفتح محدثة لحنا مرسَلا خفيفا متميزا.

ت-إيقاع الفواصل:

يتشكّل الإيقاع الموسيقي للنص القرآني عامة والحواري خاصة من فواصل الآيات، مثلما ينتج ويتشكل من الأصوات والحركات والكلمات، لأن كلّ هذه العناصر تجتمع وتتحد لمنح المواقف الحوارية لمسة صوتية فنية تطرب المتلقي وتبلّغه المعاني التي تحملها التراكيب، «وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب».[2]

وفواصل قصص سورة الكهف واضحة بيّنة يمكن إدراكها بسهولة لأنها تقع في أذن المتلقي مباشرة فينتبه عليها دون إعمال فكر أو طويل بحث وعناء.

يقول الباقلاني في تعريف الفاصلة: «وأما الفواصل فهي حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني وفيها بلاغة، والأسجاع عيب لأن السجع يتبعه المعنى، والفواصل تابعة للمعاني».[3]

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝١٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣﴾.[4]

وعليه تكون للفاصلة وظيفة صوتية موسيقية، وأخرى معنوية بلاغية، لذلك كانت الفواصل القرآنية غير الأسجاع في كلام العرب، وكان وجودها من الإعجاز البياني للقرآن الكريم، «فالفاصلة القرآنية لم

---

[1] ينظر: طالب محمد إسماعيل الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني، ص 369.

[2] مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 178.

[3] الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 270.

[4] سورة الكهف، الآيات: 9- 13.

تأت لغرض لفظي فحسب، وهو اتفاق رؤوس الآي بعضها مع بعض، وهو ما يعبّرون عنه بمراعاة الفاصلة، إنما جاءت الفاصلة في كتاب الله لغرض معنوي يحتّمه السياق، وتقتضيه الحكمة، ولا ضير أن يجتمع مع هذا الغرض المعنوي ما يتصل بجمال اللفظ وبديع الإيقاع».[1]

من هنا يتّضح معنى أنّ الفاصلة تابعة للمعنى، أي متصلة به اتصالا وثيقا، دون تكلّف أو تصنّع كما قد يكون في السجع، لأن غاية المتكلم جمال اللغة، أما في القرآن فالمعنى وبلاغته أسبق من الشكل الذي يعدّ مكمِّلا وتابعا لما يقتضيه المعنى.

وبهذا تأتي الفاصلة لتحقّق الجانب الجمالي الذي ندركه بالذوق السليم، ولتساهم في تبليغ المعاني وإفهامها، فضلا عن أن القارئ يتوقف عندها للاستراحة،[2] فيحدث الإيقاع وتصل المعاني إلى الذهن وتقع في النفس.

ث-تنوع الفواصل:

قولنا بوجود الفواصل في القرآن الكريم أو القصة القرآنية على وجه الخصوص لا يعني نمطية ورودها على شكل واحد مقنّن، بحيث لا يخرج عنه النظم القرآني، فيكون كالشعر وخضوعه للقواعد العروضية، وإنما نجد حرية وتنوعا في اعتماد هذه الفاصلة خدمة للسياق من جهة، ومراعاة لوجودها بقدر الحاجة إليها دون تكلّف من جهة أخرى، «ثم الفواصل قد تقع على حروف متجانسة كما تقع على حروف متقاربة ولا تحتمل القوافي ما تحتمل الفواصل، لأنها ليست في الطبقة العليا في البلاغة لأن الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافي وإقامة الوزن».[3]

وفي قصص سورة الكهف نجد الفاصلة تتكرّر في ألفاظ تنتهي بالحرف نفسه، أو بحرفين متقاربين، ففي قصة أصحاب الكهف غلب صوت الدال على فواصل آياتها، وهو صوت انفجاري شديد،[4] الباء كذلك «هو صوت انفجاري، ويتم إنتاجه بقفل الشفتين ثم انفتاحهما».[5]

وفي قصة صاحب الجنتين تتراوح الفواصل بين الدال -وهو الصوت الغالب-وصوتي الراء والباء الذين تساويا في عدد مرات تكرارهما، ويشترك الصوتان الباء والدال في كونهما صوتين شديدين انفجاريين،[1] ونكاد نجدهما يتكرران بالتناوب تارة أو بالتتابع تارة أخرى.

---

[1] فضل حسن عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 119.

[2] ينظر: عادل مناع، نحو النص اتجاه جديد في دراسة النصوص اللغوية، ص 201.

[3] الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 271.

[4] ينظر: إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص 23.

[5] عبد الصمد لميش، دروس في مقياس الصوتيات، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، ص 09.

أما في قصة سيدنا موسى عليه السلام فقد غلب حرف الباء في مشهده مع فتاه، أما في حواره مع العبد الصالح فقد غلب صوت الراء بشكل لافت، وكان المشهد الحواري أطول من الأول، وصوت الراء له صفة التكرار لما تكرّر من تصرفات وتساؤلات حولها.

وقد تكرّرت لفظة "صبرا" في خمسة مواضع، وهنا نجد تأكيدا على افتقاد الرجل الصالح صفة الصبر في سيدنا موسى عليه السلام، فتكررت عدّة مرات، كما نجد تكرار السلوك نفسه منه، والمتمثل في التسرع والسؤال في كلّ مرة يرى فيها تصرفا يبدر من الخضر.

بينما نجد حرية وانطلاقا في فواصل القصة الأخيرة (قصة ذي القرنين)، فلم يعتمد الله سبحانه وتعالى فيها لفظا واحدا أو صوتا واحدا، بل تراوحت فواصلها بين الباء والراء واللام والدال والقاف في آخر كلّ آية من القصة.

وفيما يلي جدول يفصّل مواطن وتكرار ورود الفواصل في قصص سورة الكهف التي تجلّى فيها نظام الفواصل:

القصة	الفاصلة	تكرارها	ألفاظ الفواصل	أرقام الآيات
قصة أهل الكهف	الباء	3 مرات	عجبا، كذبا، رعبا.	9، 15، 18.
	الدال	12 مرة	رَشَدا، عددا، أمدا، هدى، مُرشدا، أحدا، أبدا، مسجدا، أحدا، غدا، رَشَدا، أحدا.	10، 11، 12، 13، 17، 19، 20، 21، 22، 23، 24، 26.
	الطاء	مرة واحدة	شططا.	14.
	القاف	مرة واحدة	مرفقا.	16.
	العين	مرة واحدة	تسعا.	25.
قصة صاحب الجنتين	العين	مرة واحدة	زرعا	32.
	الراء	3 مرات	نهرا، نفرا، منتصرا.	33، 34، 43.
	الدال	4 مرات	أبدا، أحدا، ولدا،	35، 38، 39،

[1] المصدر السابق، ص 23.

			أحدا.	42.
	الباء	3 مرات	منقلبا، طلبا، عقبا.	36، 41، 44.
	اللام	مرة واحدة	رجلا	37.
	القاف	مرة واحدة	زلقا	40.
قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح	الباء	5 مرات	حقبا، سربا، نصبا، عجبا، غصبا.	60، 61، 62، 63، 79.
	الصاد	مرة واحدة	قصصا	64.
	الميم	مرتان	علما، رحما.	65، 81.
	الدال	مرة واحدة	رشدا	66.
	الراء	14 مرة	صبرا(5مرات)، خبرا، أمرا، ذكرا، إمرا، عسرا، نكرا، عذرا، أجرا، كفرا.	67، 72، 75، 78، 82، 68، 69، 70، 71، 73، 74، 76، 77، 80.

-جدول رقم (2) يوضح تكرار الفواصل في سورة الكهف حسب القصص.-

وقد لعبت الفاصلة في هذه القصص وخاصة قصة سيدنا موسى مع الخضر -التي طغى عليها الحوار- دورا في «التماسك الصوتي في النص القرآني باعتبارها [إحدى] السمات الهامة التي تُميز النص القرآني عن غيره من النصوص النثرية، وباعتباره نصا مقدّسا وهو أشرف النصوص على الإطلاق، والفاصلة تسير على نمط إيقاعي منتظم يمثل [إحدى] الاستراتيجيات الهامة لإنتاج النص على مستوى اللفظ والدلالة أو الأساليب البليغة».[1]

فباتصال الفواصل صوتيا عن طريق النغمة التي يحدثها تكرارها أو تكرار أحد حروفها ينساق المعنى بليغا جميلا قابلا للفهم وللحفظ، كما أن دارس القرآن يستعين بهذا الجانب للتغلب على صعوبات الحفظ وترويض الذاكرة على تخزين النص القرآني وفق تقنيات منها الإيقاع الصوتي المتآلف للفواصل.

[1] عادل مناع، نحو النص اتجاه جديد في دراسة النصوص اللغوية، ص 200.

2- البنية الصرفية:

أ-انتقاء الألفاظ:

عرف العرب بفصاحتهم وحسن اختيارهم لكلماتهم وشرف معانيها حتى يعتلوا مراتب البيان والبلاغة ويتنافسوا فيها، فأمّا فيما يخص «اللفظة المفردة فيجب أن تكون كريمة متخيرة في جنسها كما يجب أن يكون اختيارها معجميا يناسب موقعها في التركيب مع مراعاة أثرها في نفس المتلقي».[1]

وقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، بألفاظ عربية فصيحة، اكتسبت تميّزا وسحرا خاصين في هذا النص المعجز، رغم وجودها قبله وحديثِ العرب بها قبل نزوله، «فكلماته فطرية موحاة من الله تعالى لآدم عليه السلام، قبل هبوطه إلى الأرض... وهبط بها إلى الأرض، حيث حافظت على هذه الكلمات أمّة أمية إلى أن نزل القرآن الكريم مصوغا من هذه المفردات».[2]

فالقرآن الكريم جاء بألفاظ معروفة عند العرب سابقا لكنّ كيفية صياغتها وتركيبها في النص القرآني مجهولة بالنسبة إليهم، لأنهم وقفوا أمام البنية اللغوية المتكاملة لكلام الله تعالى كأنّهم يسمعون العربية لأول مرّة رغم قدم عهدهم بأساليبها.

وقد حرص الله تعالى في القرآن الكريم على الانتقاء الدقيق لمفرداته، ووضع كل كلمة موضعها الذي يناسبها وتناسبه، فتلامس المعاني وتحققها كما أرادها سبحانه وتعالى، «وهكذا كان القرآن ينتقي من كلمات العربية ما هو أبلغ في الدلالة على المعنى، بقطع النظر عن القبيلة التي تستخدم هذه الكلمة، ومن هنا اتّسمت كلمات القرآن بالبلاغة والدّقة المتناهية في الدلالة على المعنى المراد».[3]

وهذا الانتقاء الدقيق والوضع المحكم للكلمات في القرآن الكريم، هو ما جعل التعبير القرآني متينا عجيبا ممتنعا عن العرب أنفسهم، الذين تمكنوا من أبنية العربية وأساليبها.

ولأنه دقيق كل هذه الدّقة فإن كلمة منه لا يمكن أن تقوم مقام الأخرى أو تعوّضها، وهذا ما يؤدّي إلى القول بنفي وجود ظاهرة الترادف في النص القرآني، وهذا ما يراه اللغويون العرب، فمثلما نفوا دلالة اللفظ على أكثر من معنى، كذلك قالوا بعدم جواز دلالة اللفظين على معنى واحد، لأن هذا من الغلوّ والتكثير في اللّغة بلا فائدة.[4]

---

[1] عز الدين عماري، مقاربة تأصيلية لقضايا أسلوبية في البلاغة العربية، مجلة المقري للدراسات اللغوية النظرية والتطبيقية، المجلد: 03، العدد: 05، جامعة المسيلة، الجزائر، ديسمبر 2019، ص 53.

[2] عدنان الرفاعي، المعجزة الكبرى معجزة إحدى الكبر، ص 422.

[3] محمد رواس قلعه جي، لغة القرآن، لغة العرب المختارة، ص 70.

[4] ينظر: أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص 23.

وهذا كلّه من عناية الله عزّ وجل بهذه اللّغة الشريفة واختياره لها لينزل القرآن الكريم بكلماتها، التي جُعلت في مواضعها المناسبة للسياقات التي وردت فيها. (وما قيل عن النص القرآني ينطبق تماما على النصوص القصصية والحوارية).

ب-دور السياق في تحديد معاني الألفاظ:

إن الاختيار الدقيق للألفاظ ووضعها في التراكيب والآيات القرآنية الكريمة دليل على مراعاة السياقات المناسبة لها والتي ترد فيها، وهذا لتؤدّي معانيها كاملة وعلى درجة من الوضوح والدّقة والمتانة والروعة، ويتأكّد أنْ «يحدّد السياق معنى الوحدة الكلامية على مستويات ثلاثة متميزة في تحليل النص، فهو يحدّد أولا أية جملة تمّ نطقها، ثانيا يخبرنا عادة عن أيّة قضية تمّ التعبير بها... ثالثا إنه يساعدنا على القول أن القضية تحت الدرس قد تم التعبير عنها بموجب نوع معين من القوة الكلامية دون غيرها».[1]

فيتّحد اللفظ والمعنى معا لرسم الصور وتقديم الرسالة بمنتهى البيان والبلاغة، «فالسياق الدّقيق هو الذي يحدّد اللفظ المناسب، المناسبَ بحروفه وجرْسه وإيقاعه، والمناسبَ بمعناه المتفق مع معاني الألفاظ الأخرى مجتمعة، السياق هو الذي يحدّد اللفظ المفرد والجمع، أو المعرفة أو النكرة، أو اللفظ المقارب له بمعناه، أو التعبير في موضع بلفظ وفي موضع آخر بلفظ آخر... السياق القرآني هو الحَكم في كلّ هذا».[2]

إنّ السياق هو الذي يحدّد طبيعة وصيغة الكلمة المختارة، فالله سبحانه وتعالى يجعل كلمة ما في سياق يراها أنسب له من بقية الكلمات، فلو استبدلناها أو غيّرنا صيغتها سنجد المعنى مرتبكا ولا شك، لذا كل ما في القرآن الكريم من ألفاظ مقدّر حق قدره لا مجال للاجتهاد فيه.

ت-منتخبات لفظية:

1- الفعل "قال":

نلاحظ ترابط الحوار القصصي في سورة الكهف، وتعلّقه بما قبله وما بعده، وإن لم توجد قرينة لفظية رابطة كحرف العطف مثلا، ويتمثل هذا في فعل القول الذي يتصدّر كل الجمل الحوارية، فيضعنا به الله سبحانه وتعالى في جوّ الحوار والمتحاورين، وليشهدنا على الشخصيات وهي تتحدّث وتتفاعل، «إلا إذا انتقل من محاورة إلى أخرى».[3] ومثاله قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ

[1] نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث، ص 221.

[2] صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ص 132.

[3] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 1، ص 125.

مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾.[1]

وقوله أيضا: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾.[2]

نلاحظ أن فعل القول في هذين المقطعين الحواريين غير متصل بأي حرف، ومع ذلك نجد الحوار متماسكا، يُفهم منه الطرح والجواب في آن واحد، وهذا دليل على واسع قدرته وعلمه بخبايا هذه اللغة الجليلة وأسرار استعمال ألفاظها، بما يبهر المتلقي ويعجزه ويجعله يحسّ في هذا النص بعظمة القائل والمَقول معًا.

2- الفعل "اسطاع" و"استطاع":

أورد الله سبحانه وتعالى هذا الفعل مرة بالتاء ومرة دونها، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾[3] وقوله أيضا: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾[4] وقوله أيضا: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.[5]

وهذا من باب التنويع وعدم إيراد الفعل بلفظه نفسه وصيغته نفسها دفعا للتكرار والملل، «وتسطع مضارع اسطاع بمعنى استطاع، حذف تاء الاستفعال تخفيفا لقربها من مخرج الطاء، والمخالفة بينه قوله: سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا للتفنن تجنبا لإعادة لفظ بعينه مع وجود مرادفه، وابتُدئ بأشهرهما استعمالا وجيء بالثانية بالفعل المخفّف لأن التخفيف أولى به لأنه إذا كرّر "تستطع" يحصل في تكريره ثقل».[6]

ويمكن ربط استنتاج العلاقة بين خفة وثقل هذه الصيغة للفعل **استطاع** وبين السياق الذي ترد فيه بالتاء أو دونها، فقد ترد صيغة "اسطاع" في سياق فعله يسير، بينما "استطاع" ترد في سياق فعله شديد

---

[1] سورة الكهف، الآية: 19.

[2] سورة الكهف، الآيات: 61-64.

[3] سورة الكهف، الآية : 67.

[4] سورة الكهف، الآية : 78.

[5] سورة الكهف، من الآية: 82.

[6] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 16، ص 15.

وثقيل، وذلك في مثل قوله تعالى في قصة ذي القرنين: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾.[1]

وهذا في حديث الله تعالى عن يأجوج ومأجوج والسدّ الذي بناه ذو القرنين، **فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ** أي «إنهم ما قدروا على أن يصعدوا فوق هذا السدّ ولا قدروا على نقبه من أسفله، ولمّا كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلّا بما يناسبه».[2]

فقد خُفّف الفعل بحذف التاء ليصبح "اسطاعوا" تبعا ليسر فعل الصعود أو الظهور عليه وسهولته مقارنة مع فعل النقب الذي فيه ثقل وصعوبة، فصعود السّد المصنوع من الحديد والنحاس أيسر من نقبه، لذلك جاء الله تعالى بصيغة "استطاعوا" التي فيها طول وثقل للدلالة على ثقل وطول عمل أو فعل النقب.[3]

إن انتقاء الله تعالى للألفاظ لم يبق في حدود تفضيل لفظة على أخرى لقوة تعبيرها وبيانها فحسب، بل تجاوزه إلى حسن انتقاء الصيغة الصرفية ووزنها ملاءمة للسياق الذي ترد فيه، فتعبّر عن المعنى تعبيرا دقيقا تبعا لانتقائها ووضعها الدقيق أيضا.

3- **كلمة "الوصيد":**

وردت هذه الكلمة في قصة أصحاب الكهف، في قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.[4]

---

[1] سورة الكهف، الآيتان: 96، 97.

[2] عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، اعتنى به وخرّج أحاديثه: محمود بن الجميل أبو عبد الله، ط 2، دار الإمام مالك، باب الوادي، الجزائر، 1430 هـ/ 2009 م، ج 3، ص 153.

[3] ينظر: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن زبير الثقفي الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص ص 323، 324.

[4] سورة الكهف، الآية: 18.

فقد وردت كلمة "الوصيد" عند الزمخشري بمعنى الفناء أو العتبة أو الباب،[1] دون فصل في معناها الأصلي أو تحديد المعنى الأقوى من بين المعاني التي تدلّ عليها، غير أننا نجدها في "مفاتيح الغيب" بمعنى الفناء أو الباب، ثم يبين المفسّر الاحتمال الأقرب إلى المعنى الأغلب لهذه الكلمة، فالكهف لا باب له ولا عتبة، لذلك أراد الله تعالى بالوصيد أن الكلب كان من الفتية في موضع كموضع العتبة من البيت.[2]

ويبدو الكلب في هذا الموضع وعلى هذه الحالة في هذا المشهد كأنه يحرس الفتية على عادة الكلاب، فلا يتوسطهم ولا يكون وراءهم وإنما في فناء الكهف، فتترسّخ الصورة في ذهن المتلقي، وتظهر جلية حقيقية يمليها الواقع ويفرضها السياق.

4- كلمة "ردما":

وردت هذه الكلمة في قول الله تعالى في قصة ذي القرنين: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾.[3] فقد طلب القوم المضطهدون من ذي القرنين بناء سدّ بينهم وبين يأجوج ومأجوج، فاستجاب لطلبهم، وأجابهم بأنه سيجعل بينهم ردما ولم يقل سدّا.

قد يكون ذلك لأن «الرّدم أبلغ من السدّ، إذ السد: كلّ ما يسدّ به، والردم: وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه، حتى يقوم من ذلك حجاب منيع، ومنه: ردَّم ثوبَه، إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض».[4]

فالفرق في المعنى بين السدّ والردم جعل الله تعالى يختار الثانية لأنها تحمل معنى أكبر للقوة والمناعة، وكأنّ ذا القرنين أبدى استعداده لبناء ما هو أقوى وأضخم مما طلبه منه القوم المستضعفون، وهذا من باب كرم هذا الرجل واستقامته وصلاحه وحبه الإصلاح في الأرض، والله أعلم بالمقصود.

ث-الصيغ الاسمية والفعلية:

دقة انتقاء الكلمة تنطبق تماما على انتقاء بنيتها، فالاسم مقدّر حق قدره وكذلك الفعل، كلّ منهما يوضع في الموضع المناسب والمؤدّي للمعنى المراد في غاية الوضوح والجمال والبيان.

فإذا كان الاسم في النحو هو «ما دلّ على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة... والفعل ما دلّ على معنى في نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة».[1]

---

[1] ينظر: الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 614.

[2] ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج 21، ص 102.

[3] سورة الكهف، الآية: 95.

[4] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 13، ص 383.

فإن دلالة الفعل هي الحركة والحدوث والتجدّد، ودلالة الاسم هي الثبوت والجمود والاستقرار على هيئة أو حالة معينة.[2]

وقد تفنّن الله تعالى في استعمال هاتين البنيتين استعمالا فنيا يدلّ على معرفة ومراعاة عميقة لدلالة وسياق كل منهما.

ومثال ذلك ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ﴾[3] حيث نلاحظ غلبة الأسماء على الأفعال، وذلك لاستقرار الفتية على حالة واحدة هي النوم وعدم القيام أو الحركة، ومن ذلك كلمة "**باسط**" فلم يأت الله تعالى بالفعل في الماضي أو المضارع: بسط أو يبسط وجاء باسم الفاعل للدلالة على ثبوت واستقرار الكلب على تلك الوضعية، خاصة أنّ التقليب كان للفتية وأنّ الشمس مُنعت عنهم فهي «لا تصيبهم اختصاصا لهم بالكرامة».[4]

بينما في قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾.[5]

نلاحظ غلبة الأفعال مع عودة الفتية إلى الحياة، فنرى الحركة تدبّ في الكهف بعد نوم طويل، يتساءلون ثم يطلبون من صاحبهم الذهاب إلى المدينة والإتيان بالطعام والحرص على عدم انكشاف أمره، كل هذا دلّ عليه الله سبحانه وتعالى بأفعال تدلّ على الحدوث والتجدّد: بعثناهم، يتساءلوا، قال، لبثتم، قالوا، لبثنا، قالوا، لبثتم، ابعثوا، لينظر، ليأتكم، ليتلطّف، لا يشعرنّ.

وجاءت الأفعال المضارعة: لينظر وليأتكم وليتلطّف مقترنة بلام الأمر، أي فيها طلب القيام بالفعل، وهو ما يستدعي الحركة والنشاط والانتقال.

---

[1] ابن هشام الأنصاري، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص ص 18، 19.

[2] ينظر: فاضل صالح السمرائي، التعبير القرآني، ص 22.

[3] سورة الكهف، الآية: 18.

[4] الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 614.

[5] سورة الكهف، الآية: 19.

وفي قول الله تعالى أيضا: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾.[1]

نلاحظ استعمال اسم الفاعل "ظالم" فلم يقل سبحانه وتعالى: وهو يظلم نفسه، أو وقد ظلم نفسه، بل دلّ على أن ظلمه لنفسه حاصل وثابت منتهٍ.

أما في الآية الكريمة: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾[2] فقد استعمل الله تعالى الفعل "يقلّب" بدلا من الاسم للدلالة على تجدّد حركة التقليب وتكرارها، للتعبير عن الشعور بالندم.

والأمثلة على هذا الاستعمال المقدّر حقّ قدره للاسم والفعل كثيرة ومتعدّدة، فكان وضع الفعل في سياق الحركة والتجدّد والحدوث، ووضع الاسم لتأكيد الحصول مناسبا لسياق الجمود والثبوت على هيئة أو حالة واحدة.

ج-خصائص الكلمة القرآنية:

ما رصدناه من خصائص للكلمة القرآنية في محاورات ومجاوبات قصص سورة الكهف، ينطبق على خصائص الكلمة القرآنية في غير سياق القَص، ذلك أن المفردة في القرآن الكريم لها خصوصية الاستعمال والانتقاء الدقيق، والدلالة التامة والقوية على المعنى المقصود، فنراها شفافة تارة وكثيفة تارة أخرى، حسب السياق الذي ترد فيه، كلّ بقدره وما يناسبه، وتتلخص هذه الخصائص فيما يلي:

1- الإيقاع الموسيقي والنغم الرنان:

تحدّثنا عن الجانب الموسيقي للكلمة القرآنية المنبعث من الأصوات، وبتآلف الأصوات تصبح كلمات، وبالتالي يحصل النغم للكلمة ما دام حاصلا للصوت أو الحرف، ومن جهة أخرى قد ينشأ إيقاع الكلمة من حسن ودقة اختيارها ووضعها في الموضع المناسب لها.

2- التموقع الحسن في التركيب وملاءمة السياق:

عرفت ألفاظ القرآن الكريم تموقعا دقيقا ولطيفا في تراكيب آياته الكريمة، وذلك من خلال مراعاة نظمها للسياق والمعنى، فأحيانا نجد لفظة تتقدم على أخرى، وأحيانا تحذف، وأحيانا تتجاور مع غيرها مما

[1] سورة الكهف، الآية: 35.

[2] سورة الكهف، الآية: 42.

يلائمها صوتا ومعنى وإيقاعا، قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.[1]

فاستعمال الأعداد بطريقة مميزة فيها إيقاع واحتفاظ بالمعنى أو العدد الحقيقي لله وحده، وقد خاض الله تعالى في الحديث عن الشك في عدد الفتية قبل أن يحسم أمرهم وينهى نبيه الكريم عن الجدال فيه مع المشركين، «لقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة، فإنّ أحدا من البلغاء لا تمتنع عليه فصح هذه العربية متى أرادها، وهي بعد في الدواوين والكتب، ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في كلامه، وإن اتفقت له نفس هذه الألفاظ بحروفها ومعانيها، لأنها في القرآن تظهر في تركيب ممتنع فترَف به، ولهذا ترتفع إلى أنواع أسمى من الدلالة اللغوية أو البيانية التي هي طبيعية فيها، فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية في اللغة».[2]

فإنّ قارئ القرآن ومتلقيه يتوفّر له من الثروة اللفظية والمتعة النفسية والصحة العقلية بألفاظ عربية ما لا يتوفرّ له من نصوص أخرى بالألفاظ نفسها واللغة نفسها، فالسر إذاً في خصوصية النص القرآني وتميّزه بقدرته على الارتفاع بالمتلقي إلى مستويات عليا من الرقي في الفهم والإدراك والمتعة.

3- الإشعاع الدلالي ودقة أداء المعنى:

فكلام الله تعالى يملأ النفس لفظا ومعنى وبهجة وحيرة وراحة في آن واحد، وكلماته تشع جمالا وتغدق عطاء بدلالاتها وإيحاءاتها المتجدّدة بما فيها من ذلك «الإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النفس مرّة وموادعتها مرة، واستيلائها على محضها بما يورد عليها من وجوه البيان، أو يسوق إليها من طرائف المعاني».[3]

فالمفردة القرآنية تزخر بشحنات دلالية عالية، مما يكفل قيامها بدور التبليغ والإفهام والتصوير، «فكأن اللغة مجموعة شحنات معزولة والأسلوب هو إدخال بعضها في تفاعل مع البعض الآخر كما لو كان ذلك في مخبر كيمياوي».[4]

---

[1] سورة الكهف، الآية: 22.

[2] مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 186.

[3] المصدر نفسه، ص 182.

[4] نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث، ص 222.

فاللفظة مفردة لا إشعاع لها في ذاتها وإنما بتجاورها مع ألفاظ أخرى في أسلوب واحد يستمد هو الآخر إشعاعا وشحنة دلالية تزداد قوة وتنقص بالنظر إلى الكلمة وهي الوحدة التي يتشكّل منها.

4- القدرة على التصوير:

تظهر هذه القدرة العجيبة على التصوير في الألفاظ القرآنية، فهي تجعل الصور محسوسة وتنقلها كأنها ماثلة بألوانها وترسم الشخصيات بحركاتها وانفعالاتها، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾.[1]

فالكلمات في هذه الآية الكريمة تقوم بمهمة التصوير الدقيق لحركة الشمس العجيبة، وهي تميل عن الكهف ولا تصيبهم، ونرى معجزة التصوير من البداية في اختيار كلمات بعينها دون غيرها من الكلمات، مثل كلمة "تزاور" و"تقرضهم" و"فجوة".

لقد صوّرت الكلمات الشمس تميل عن الكهف إذا طلعت وتتجاوز أجسادهم إذا غربت، إنهم «في ظل نهارهم كلّه لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرّض لإصابة الشمس لولا أن الله يحجبها عنهم».[2]

هذه الكلمات الثلاث: "تزاور" و"تقرضهم" و"فجوة" لم تؤدّ المعنى على أكمل وجه فحسب بل إنها «تضطلع بالتصوير وبالحركة في كل هذه السهولة».[3]

فقد صوّرت المشهد وجعلته حيّا متحركا بحركة الشمس المدروسة بقدرة إلهية خاصة.

3-البنية النحوية:

لما نصل إلى عنصر النحو والتركيب نجد أنه يتكوّن من تلك الحروف أو الأصوات، وتلك الكلمات المعجزة بكل ما فيها وبكل ما يميزها من خصوصية في التموقع والدلالة ومجاورة غيرها من

[1] سورة الكهف، الآية: 17.

[2] الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 614.

[3] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 192.

الحروف والكلمات في ألق دائم وسحر لا ينتهي، فكل كلمة وضعت الموضع الحسن واللائق بها لتؤدّي ما عليها من معاني، «ومن هذه الكلمة البليغة الدالة على المعنى أدقّ وأبلغ دلالة صُنعت الجملة القرآنية وهي جملة موحية معبّرة بتركيبها».[1]

وإذا أردنا دراسة التركيب في النصوص الحوارية في قصص سورة الكهف سنجد عدّة ظواهر تميزه وتحيط به، جعلها الله سبحانه وتعالى لحكمة أو غاية أرادها وهو –جلّ شأنه–عالم بها.

أ– الجمل الفعلية والجمل الاسمية:

سبق لنا الحديث عن الصيغ الاسمية والصيغ الفعلية، ودلالة كل منهما في معرض دراسة البنية الصرفية، وعرفنا أن الفعل يدل على الحدوث والتجدّد، أما الاسم فيدل على الثبوت والجمود.

وقد تراوحت الجمل الحوارية في قصص سورة الكهف بين النوعين، أي بين الجمل الفعلية والجمل الاسمية للدّلالة نفسها، فالجملة الفعلية فيها حركة ووقوع حدث ما، أما الجملة الاسمية ففيها استقرار وثبوت على حال معينة.

غير أن الملاحَظ هو غلبة الجمل الفعلية، واستعمال الاسمية عندما يكون السياق دالا على الحدث غير المتجدّد الثابت الذي لا يتغير، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في قصة أهل الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾.[2]

فالمركبات الفعلية غالبة في هذه الآية الكريمة لكنّ مقول القول: "رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" ورد اسميا؛ لأن معنى الجملة يدلّ على حقيقة ثابتة لا يمكن تغيّرها، أو تغيير القناعة بها، مما يثبت قوة إيمان الفتية وثبات عقيدتهم.

ومثل هذا نجده في قصة صاحب الجنتين، حيث قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾.[3]

فقد ثبت ظلم الرجل لنفسه فجاء الحديث عنه بصيغة اسم الفاعل: "ظالم"، ولم يكن بصيغة الفعل "يظلم"، لأن الرجل أخذ هيئة أو حالة ظلم نفسه عند دخول جنته، فالجملة "وهو ظالم لنفسه" جملة حالية،

[1] محمد رواس قلعه جي، لغة القرآن لغة العرب المختارة، ص 71.

[2] سورة الكهف، الآية: 14.

[3] سورة الكهف، الآية: 35.

بمعنى «وهو مشرك مكذّب بالبعث بطر بنعمة الله عليه»،[1] فقد ظلم الرجل نفسه لأنه لم يؤمن بالله وقدرته، ولأن متاع الدنيا غرّه وأعمى بصيرته.

وعندما نأتي إلى قصة سيدنا موسى والعبد الصالح نجد غلبة الجمل الفعلية على الاسمية واضحة جليّة، فمنذ البداية تظهر القصة مفعمة بالحيوية ومليئة بالأحداث المتتالية والكثيرة والتي نحس بتتابعها وتسارعها رغم وجود فواصل بينها. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾.[2]

فهذه الآية وحدها فيها العديد من الأحداث التي يستشعر معها المتلقّي حركة ونشاطا من خلال الأفعال الآتية: انطلقا، أتيا، استطعما، فأبوا أن يضيفوهما، وجدا، يريد أن ينقضّ، فأقامه، قال...

أما إذا أردنا رصد الجمل من حيث الطول والقصر فإننا نجدها تتراوح بين هذا وذاك دون الحاجة إلى إحصاء أو حصر لها، لأن تمام الجملة عند تمام معناها، ويكون هذا وفق ما يتطلّبه السياق، فقد تكون الجملة طويلة أو قصيرة أو شرطية، وقد ترد عدّة جمل معطوفة، كل ذلك بمقدار وطريقة بناء محكمة ومتميزة.

إن تأليف القرآن ذو بنية متسقة الأجزاء منسجمة المعاني والمحتويات، بِلغة وكلمات مألوفة لكنها غريبة النظام حيث خرجت عمّا ألفه العرب، إلى طريقة تركيب موجّهة ومقدّرة «على تركيب الحواس النفسية في الإنسان تقديرا يطابق وضعها وقواها وتصرّفها، وذلك إيجاد لا قبل للناس به».[3]

فلننظر إلى الآيات الحوارية الآتية من قصة ذي القرنين: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾.[4]

لنرى ونستشعر كيف كان تركيبها بديعا وسبكها محكما قويا، من ضم الحرف إلى الحرف والكلمة إلى

[1] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 320.

[2] سورة الكهف، الآية : 77.

[3] مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 195.

[4] سورة الكهف، الآيات: 94-98.

الكلمة لتكون جملها غاية في الدقّة والترابط، لنظل ممسكين بحبل المعنى مدركين علاقة زبر الحديد بالقوة التي طلبها ذو القرنين من أولئك القوم، وهذا الأمر ينطبق على القرآن جميعا.

ب- التقديم والتأخير:

الحديث عن ظاهرة التقديم والتأخير في حوارات القصّة القرآنية وخاصة ما جاء منها في سورة الكهف، يكون معه الحديث عن رتبة عناصر الجملة، فتقديم عنصر يعني تأخير عنصر آخر، ومنه غياب الترتيب الأصلي للكلمات في تركيب معين، وعليه فإن «التقديم والتأخير ظاهرة لطيفة، وفن بلاغي رفيع في التعبير القرآني، يعتبر دليلا واضحا على الإعجاز البياني في القرآن»،[1] دون نسيان حاجة السياق التخاطبي أو اللغوي إلى تغيير رتب العناصر فيتقدّم بعضها ويتأخر الآخر.

وقد حافظ الله سبحانه وتعالى في جلّ الآيات الحوارية الكريمة في سورة الكهف على رتب عناصر الجملة، غير أن هذا لا يمنع وجود أمثلة على ظاهرة التقديم والتأخير، كما في قول الله تعالى: ﴿قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾.[2]

ففي هذه الآية الكريمة تأخّر المفعول به "قطرا" والذي فصل بينه وبين فعله "آتوني" فعل جواب الطلب "أفرغْ"، «وإنما جعلنا ذلك فصلا مع أن الفاصل جملة تامة التكوين، لأنها على رغم تمام تكوينها لم تستوف شروط الجملة المعترضة، وبخاصة شرط كونها أجنبية عن السياق ولا محل لها من الإعراب، ومن الواضح أن الفعل "أفرغ" مجزوم في جواب الأمر، ومن ثم يكون جوابا لا اعتراضا».[3]

فرتبة المفعول "قطرا" بعد فعل الأمر "آتوني"، لكن الله سبحانه وتعالى فصل بينهما بجملة جواب الطلب كاملة، وفي تفسير الكشاف ورد أن "قطرا" مفعول به منصوب للفعل "أفرغ"، وللفعل "آتوني" غير أنّ الأول حُذف لدلالة الثاني عليه.[4]

ولتمّام حسان قراءة في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾،[5] فيما يخص الضمير المنفصل "هو" الذي يتوسط اسم لكنّ وخبرها، ولا يليها ويسبقهما معا، فدلّ ذلك على إرادة التأكيد بقرينة مبنوية.[1]

---

[1] صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدرة الرباني، ص 261.

[2] سورة الكهف، الآية: 96.

[3] تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ص 178.

[4] ينظر: الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 630.

[5] سورة الكهف، الآية: 38.

فلو كان الضمير في الرتبة الأصلية لكان التركيب كالآتي: "لكنّ الله هو ربي" أو لكان اتصل بلكن مباشرة: "لكنه الله ربي".

وفي العديد من الآيات القرآنية الكريمة التي ورد فيها الحوار بين الشخصيات في قصص سورة الكهف قدّم الله سبحانه وتعالى الجار والمجرور أو شبه الجملة على العنصر الذي حقّه التقديم، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.[2] ففي هذه الآية الكريمة تقدّم الجار والمجرور "من لدنك" و"من أمرنا" على المفعول به "رحمةً" و"رشداً"، ولهذا التقديم والتأخير غرض تركيبي يكمن في اتساق نظم الآيات على هذا النحو وجماله أحسن من المحافظة على الرتب الأصلية للعناصر، كما نجد غرضا آخر لهذه الظاهرة في هذه الآية وهو الغرض الصوتي ومراعاة الإيقاع وموسيقى الفواصل، فإنّ العلماء والدارسين «في التقديم والتأخير قالوا برعاية الفاصلة»،[3] وهذا واضح لأن الآيات التي تلي هذه الآية مباشرة تنتهي بحرف الدال.

وفي قوله تعالى في الآيات التالية: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾[4] ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾[5] ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾[6] ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾.[7] ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾[8] ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾[9] كان التقديم والتأخير (المشار إليه بما تحته خط) لمناسبة السياق، وللاهتمام بأمر المقدَّم لأنه أهم وأولى بالظهور في المرتبة المتقدّمة، فتقديم الجار والمجرور "من دونه" على المفعول به

---

[1] تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ص 213.

[2] سورة الكهف، الآية: 10.

[3] عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن الكريم، ص 258.

[4] سورة الكهف، الآية: 14.

[5] سورة الكهف، الآية: 19.

[6] سورة الكهف، الآية: 25.

[7] سورة الكهف، الآية: 38.

[8] سورة الكهف، الآية: 66.

[9] سورة الكهف، الآية: 70.

"إلها" كان لأهميته خاصة أن الهاء المتصلة تعود على الله سبحانه وتعالى، وتقديم "بكم" على لفظة "أحدا" للغرض نفسه، للحرص على عدم انكشاف أمر الفتية في المدينة، والأمر نفسه في الآيات الأخرى، فإنّ «السياق في كل موضع يقتضي ما وقع –كما تقدّمت الإشارة إليه–وإمّا لقصد البداءة والختم به للاعتناء بشأنه».[1]

فكلمات القرآن الكريم سواء أ كانت في رتبها الأصلية أم مقدّمة ومؤخرة فهي تُبِينُ عن تأليف متميز غير مألوف رغم أنه مكوّن من المألوف لدى العرب وهو ألفاظ وأصوات هذه اللغة العربية العريقة، وكلّ ما ورد في آياته سبحانه وتعالى من ظاهرة التقديم والتأخير كان لحكمة لا تنبو عن هدف تبليغ المعنى المراد في أحسن صورة واقعا في النفس أحسن موقع ومترسخا فيها.

ت–منتخبات إعرابية:

1– صيغة اسم الفاعل العاملة:

اسم الفاعل من الصيغ المشتقة وهو «ما اشتق من فعل لمن قام به على معنى الحدوث كضارب ومُكرِم»،[2] فهو يدلّ على من قام بالفعل.

وقد ورد اسم الفاعل في العديد من آيات سورة الكهف دونما غلبة أو طغيان، ومن الأمثلة على هذه الصيغة نذكر: "المهتدِ" و"مرشدًا" في قوله تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾.[3]

و"قائلٌ" في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾[4] و"ظالم" في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥﴾[5] و"مؤمنين" في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠﴾[6] و"صالحا" في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا

[1] جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، المجلد: 1، ص 128.

[2] ابن هشام الأنصاري، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، ص 413.

[3] سورة الكهف، الآية: 17.

[4] سورة الكهف، الآية: 19.

[5] سورة الكهف، الآية: 35.

[6] سورة الكهف، الآية: 80.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾[1] و"مفسدون" في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾.[2]

غير أن هذه الصيغ كلها غير عاملة وتكتفي بإعرابها حسب مواقعها في الآيات السابقة دون وجود معمول لها يليها.

لكنّ هذا لا يمنع وجود صيغة اسم الفاعل العاملة في موضعين اثنين، أحدهما في قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.[3]

فاسم الفاعل هو "باسط" ومعموله (المفعول به) هو "ذراعيه"، واسم الفاعل يعمل فيما بعده إذا كان في معنى الاستقبال، وفي هذه الآية الكريمة: «﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ حكاية حال ماضية؛ لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضي»،[4] وفي هذه الآية عمل في الاسم الذي بعده وجاء منصوبا على المفعولية، لأن ذراعيه مبسوطتان وستظلان مبسوطتين طول مدّة نوم الفتية ووجودهم في الكهف «ولذلك لم يذكر التقليب لكلبهم بل استمر في مكانه باسطا ذراعيه شأن جِلسة الكلاب».[5]

وإن يكن فإن هذا من بديع الأساليب القرآنية، وحسن نظمه وتأليفه.

أما الموضع الثاني ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾.[6] حيث نجد اسم الفاعل هو "فاعلٌ" ومعموله هو اسم الإشارة "ذلك" فكل شيء وكل فعل يحدث بمشيئة الله تعالى، لذا لا يمكن أن يقول إنسان: إني فاعل ذلك غدا، وغدا أي مستقبلا والغد والمستقبل من الغيب الذي علمه عند الله وحده.[7] ولهذا إذا عزم الواحد منا على شيء ليفعله في المستقبل يعقّب بقوله: إن شاء الله، وهذا ما

---

[1] سورة الكهف، الآية: 82.

[2] سورة الكهف، الآية: 94.

[3] سورة الكهف، الآية: 18.

[4] الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 614.

[5] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 281.

[6] سورة الكهف، الآية: 23.

[7] ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ص 2265.

كان من سيدنا موسى عليه السلام حين قال للخضر: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩﴾.[1]

ففي هذه العبارة ما يدلّ على الاستعانة بالله عز وجل وحسن الظن به والتوكّل عليه.

2- الفعل "اضرب":

ورد هذا الفعل بصيغة الأمر "اضرب" في موضعين أو آيتين من آيات سورة الكهف حين كان الخطاب في سياق ضرب الأمثال، الأول في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾[2] والثاني في قوله: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾.[3]

ففي الموضع الأول كان الفعل "اضرب" متعدّيا إلى مفعولين، فنصب الأول: "مثلا" والثاني: "رجلين"، لأن الفعل "ضرب" إذا استعمل في المثل نصب مفعولين،[4] أما في الموضع الثاني فقد نصب مفعولا به واحدا هو: "مثلَ" وجاء مضافا، والمضاف إليه هو: "الحياةِ".

3- الفعل "أنسانيه":

ورد هذا الفعل في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣﴾[5] و"أنسانيه" فعل متعدٍّ إلى مفعولين لأنه مزيد بهمزة التعدية، والمفعول الأول هو ياء المتكلم التي تعود على فتى موسى، والمفعول الثاني هو الهاء أمّا النون فللوقاية.

وضمير الهاء ليس عائدا على الحوت فالنسيان المقصود هنا هو نسيان ذكر الإخبار به، أي إعلام سيدنا موسى عليه السلام بأمر إفلات الحوت منه، وعودته إلى الماء.

---

[1] سورة الكهف، الآية: 69.

[2] سورة الكهف، الآية: 32.

[3] سورة الكهف، الآية: 45.

[4] تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ص 194.

[5] سورة الكهف، الآية: 63.

والجملة "وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره" معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه،[1] فالجملة المعطوفة هي "نسيت الحوت" والمعطوفة عليها هي "اتخذ سبيله في البحر عجبا" بحرف العطف "الواو"، و"أن أذكره" «بدل من الهاء في "أنسانيه" أي: وما أنساني ذكره إلا الشيطان».[2]

فنسيان الإخبار بأمر الحوت على أهميته لا بدّ أنه ليس من نفس الفتى وإنما من الشيطان لأنه متربّص دائما ببني آدم.

4- أمْ:

ورد هذا الحرف في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾[3] وهو بمعنى الإضراب الانتقالي من غرض إلى آخر، ولأهمية هذا المقصد كان نقطة انتقال من المقدّمة إلى لبّ الموضوع أو المقصود، فمما كان يصرف المشركين عن الإيمان عدمُ تصديقهم لإحياء الموتى، فجاء الله تعالى بذكر قصة أهل الكهف لتكون دليلا ومثالا لقدرة الله وتمكّنه من البعث.[4]

فالآيات التي سبقت هذه الآية تضمّنت تكذيب الكفار وشركهم بالله وتقوّلهم عليه، حيث قال الله تعالى: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.[5]

وتحتمل "أم" معنى همزة الاستفهام،[6] فتقوم مقامها وكأنّه سبحانه وتعالى يقول: "أ حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا عجبا من بين كلّ آياتنا؟" مع أن هناك آياتٍ أعجب من نوم أصحاب الكهف وبعثهم، «فإن إماتة الأحياء بعد حياتهم أعظم من عجب إنامة أهل الكهف، لأنَّ في إنامتهم إبقاءً للحياة في أجسامهم وليس في إماتة الأحياء إبقاءٌ لشيء من الحياة فيهم على كثرتهم وانتشارهم، وهذا تعريض بغفلة الذين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم بيان قصّة أهل الكهف لاستعلام ما فيها من العجب بأن سألوا عن عجيب وكفروا بما هو أعجب».[7]

---

[1] ينظر: الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 625.

[2] المصدر نفسه، ص 625.

[3] سورة الكهف، الآية: 9.

[4] ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 258.

[5] سورة الكهف، الآيات: 4- 6.

[6] ينظر: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تأويل مشكل القرآن، علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه: إبراهيم شمس الدين، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007، ص 291.

[7] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 259.

وفي هذا حجة دامغة على المشركين المكذبين الغافلين عن آيات الله وقدرته، والمنشغلين بمساءلة النبي صلى الله عليه وسلم بغية تعجيزه وإضعاف دلائل نبوّته.

5- الواو:

الواو حرف من حروف المعاني، التي يكثر استعمالها في اللغة العربية، وتتنوع معانيه حسب السياق الذي يرد فيه وحاجة المتكلم إليه.

- **واو العطف:**

العطف أكثر وأشهر معنى للواو، وهي تربط بين اسم واسم، أو بين فعل وفعل، أو بين جملة وجملة، ولا يمكن حصر أو ذكر الآيات التي وردت فيها الواو جميعا بهذا المعنى وإنّما نُدلي له ببعض الأمثلة مثل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦﴾[1] وقوله تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾[2] وقوله أيضا: ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨﴾.[3]

والأمثلة كثيرة على الواو العاطفة في آيات سورة الكهف وهي الغالبة، فقد عطفت أجزاء القصص على بعضها، وكذلك المشاهد والأحداث، وهذا من مستلزمات السرد حيث يكون مترابطا متماسكا يشدّ ذهن وعاطفة المتلقي إلى نهاية القصة.

- **واو الحال:**

تتصدّر واو الحال جملة تقع حالا لما قبلها، وتكون رابطا في الجملة الحالية.[4] والجدول الآتي يبين أهم المواضع التي وردت فيها هذه الواو:

الآية الكريمة	واو الحال+ الجملة الحالية
﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾.[1]	وهم رقود.

[1] سورة الكهف، الآية: 26.

[2] سورة الكهف، الآية: 33.

[3] سورة الكهف، الآية: 88.

[4] ينظر بالتفصيل: ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، المجلد 1، ج 2، ص 520.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾.[2]	وهو يحاوره.
﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾.[3]	وهو يحاوره.
﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾.[4]	وهي خاوية على عروشها.

جدول رقم (3) يبين مواطن واو الحال في سورة الكهف.

وبيان الهيئات والأحوال من مؤشرات الوصف والتصوير، إذ تتضح ملامح الشخصية وظروفها في عمليتي السرد والحوار من خلال ذكر ما تبدو عليه من حالات مصاحبة للفعل أو الحدث.

4-البنية الدلالية:

دراسة البنية الدلالية بصفة عامة تهتم بدراسة الكلمات بمعانيها ودلالاتها وتعالقها فيما بينها، والحقيقة أن دراسة المستويات الأسلوبية لأي نص أو أثر لا تخلو من الدراسة الدلالية في كل مستوى من المستويات، ذلك أننا نشير إلى دلالات الأصوات منفردة أو مجتمعة، فنحدّد معاني الصيغ والأوزان الصرفية بعدها، ثم الأحكام النحوية في الأسماء والأفعال والجمل وما يعتريها من حذف وتقديم وتأخير وتكرار... إلخ.

أ-الحقول الدلالية:

ومع كل ما سبق فإننا في هذا المستوى الدلالي نفضّل التطرق إلى الحقوق الدلالية الشائعة في النص أو مدونة الدراسة، لما لهذا التصنيف من أهمية في رصد المعاني ومقاصد المبدع، وقبل ذلك نشير إلى أنّ الحقول الدلالية هي «مجموعة من المعاني أو الكلمات المتقاربة التي تتميز بوجود عناصر أو

[1] سورة الكهف، الآية: 18.

[2] سورة الكهف، الآيتان: 34، 35.

[3] سورة الكهف، الآية: 37.

[4] سورة الكهف، الآية: 42.

ملامح دلالية مشتركة، وبذلك تكتسب الكلمة معناها في علاقاتها بالكلمات الأخرى، لأن الكلمة لا معنى لها بمفردها بل إنّ معناها يتحدّد ببحثها مع أقرب الكلمات إليها في إطار مجموعة واحدة».[1]

فكل كلمة مفردة معزولة عن سياقها لا يمكن تحديد معناها، ووفق هذه النظرية يمكن أن يكون لها معنى في إطار اشتراكها مع ما يجاورها من كلمات أخرى في دلالات مشتركة واقعة في سياق معين، وبمعنى أدق «الكلمة الواحدة في أية لغة تندرج تحتها مجموعة تطول أو تقصر من الألفاظ... فكل لفظ من هذه الألفاظ يضمّ عددا من الأفراد أو الأحداث جمعت تحت عنوان واحد، وكوّنت صنفا واحدا، ولذلك كانت مفردات كل لغة من اللغات ضربا من التصنيف للموجودات الذي يعدّ أساسيا في فهم العلاقة بينها، وهو إدراك لنظرية الحقول الدلالية».[2]

فإذا عدنا إلى المخزون اللغوي للإنسان نجد قاموسه مصنفا إلى حقول دلالية: كحقل العائلة وحقل الأثاث وحقل الحيوانات وحقل الطبيعة، والألوان والمأكولات... إلخ.

والمقام هنا لا يسعنا لتفصيل الحديث عن تاريخ هذه النظرية وبداياتها وتبلورها، وإنما المهم هو مدى قابليتها للتطبيق على النصوص القصصية في سورة الكهف، غير أن جذورها موجودة عند العرب في عدد من مؤلفاتهم خاصة تلك المعاجم التي سمّوها معاجم الموضوعات، وإن كانت تفتقد الدقة والمنهج، نذكر منها المخصّص لابن سيدة الاندلسي، وكتاب الخيل والإبل للأصمعي، وكتاب الحشرات لابي خيرة الأعرابي، وكتاب الحيات والعقارب لأبي عبيدة، وكتاب النحل والعسل لأبي عمرو الشيباني...[3]

وقد وجدت آراء تدّعي بعالمية هذه الحقول وانطباقها على كل اللغات[4] وذلك لاشتراك البشر في العديد من الأمور في حياتهم ومحيطهم وطبيعتهم، وحتى في انفعالاتهم وعواطفهم...

ب-الحقول الدلالية في قصص سورة الكهف:

لا يمكن ضبط دراسة الحقول الدلالية في قصص سورة الكهف إلا بتصنيفها في إطار محدّد هو القصة من حيث هي تركيبة لغوية وسردية منفصلة عن بقية القصص، مما يسمح بتحديد البعد الدلالي لكلّ قصة على حدة.

---

[1] حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا اللغة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1970، ص 20.

[2] محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دراسة تحليلية مقارنة وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد، ط 7، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1971، ص 307.

[3] ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ط 5، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1998، ص 108.

[4] ينظر: المصدر نفسه، ص 96.

ولعلّ التصنيف الأشهر والأنسب والأشمل هو ما ذُكر في معجم: Greek New Testamentالذي يقوم على أربعة تصنيفات هي: حقل الموجودات (Entities)، وحقل الأحداث (Events)، وحقل المجرّدات (Abstracts)، وحقل العلاقات (Relations).[1]

وتندرج تحت هذه الحقول الكبرى حقول أصغر منها وحقول أخرى فرعية، وتشكّل كلَّ حقل مجموعةٌ من الألفاظ التي تصب في مجال معنوي واحد، أما فيما يخص قصص سورة الكهف فإنّنا سنجعل كل قصة مع حقولها الدلالية في جدول توضيحي كما سيأتي:

1- قصة أهل الكهف:

الحقل الدلالي	الألفاظ التي تندرج تحته
أ-الموجودات:	الله، أصحاب، الكهف، الرقيم، الفتية، آذانهم، قلوبهم، السماوات، الأرض، إلها، قومنا، آلهة، الشمس، فجوة، كلبهم، ذراعيه، الوصيد، ورقكم، المدينة، طعاما، رزق، بنيانا، مسجدا.
ب-الأحداث:	أوى، قالوا، ضربنا، بعثناهم، أحصى، لبثوا، نقصّ، آمنوا، زدناهم هدى، ربطنا، اتخذوا، اعتزلتموهم، فأووا، ترى، طلعت، تزاور، غربت، تقرضهم، يهد، يضلل، نقلّبهم، باسط، لطلعت، لبثتم، فابعثوا، فلينظر، فليأتكم، وليتلطّف، يرجموكم، يعيدوكم في ملتهم، يتنازعون، ابنوا، لا تمار، واذكر، نسيت، يهدين، لأقرب، ليتساءلوا، نعلم، أعلم، يعلمهم، ليعلموا.
ت-المجرّدات:	آياتنا، رشدا، سنين، أمدا، فتية، هدى، شططا، سلطان، افترى، كذبا، ما يعبدون، المهتد، أيقاظا، رقود، يوما، بعض يوم، ملّتهم، حق، الساعة، ثلاثة، رابعهم، خمسة، سادسهم، سبعة، ثامنهم، غدا، ثلاث مائة وازدادوا تسعا.
ث-العلاقات:	مِن دونه، هؤلاء، اليمين، الشمال، ذلك، هذه، يشعرنّ، كذلك، أنّ، لنتّخذن، هذا.

جدول رقم (4) يوضح الحقول الدلالية العامة في قصة أهل الكهف.

2- قصة صاحب الجنتين:

[1] ينظر: المصدر السابق، ص 87.

الحقل الدلالي	الألفاظ التي تندرج تحته
أ- **الموجودات:**	مثلا، رجلين، أعناب، نخل، زرعا، أُكُلها، شيئا، نهرا، ثمر، صاحبه، مالا، نفرا، تراب، نطفة، رجلا، ولدا، السماء، صعيدا، ماؤها، كفيه، فئة، نبات، الأرض، الرياح.
ب-الأحداث:	اضرب، جعلنا، حففناهما، آتت، فجّرنا، قال، يحاوره، دخل، ظالم، تبيد، رددت، لأجدنّ، كفرتَ، خلقك، لا أشرك، ترن، يؤتين، يرسل، أُحيط، يقلّب، أنفق، ينصرونه، أنزلناه، فاختلط، تذروه.
ت- المجرّدات:	أكثر، الساعة، قوة، أقل، خيرا، خاوية، منتصرا، الحق، هشيما، مقتدرا.
ث-العلاقات:	بينهما، خلالهما، هذه، لأجدنّ، لكنّا، من دون، هنالك.

جدول رقم (5) يوضح الحقوق الدلالية العامة في قصة صاحب الجنتين.

3- قصة سيدنا موسى عليه السلام مع العبد الصالح:

الحقل الدلالي	الألفاظ التي تندرج تحته
أ-الموجودات:	موسى، فتاه، البحرين، حوتهما، البحر، غداءنا، الصخرة، الشيطان، عبدا، شيء، أُحدث، السفينة، أهلها، غلاما، قرية، جدارا، أجرا، مساكين، ملك، أبواه، المدينة، كنز، أبوهما.
ب-الأحداث:	لا أبرح، أبلغ، أمضي، نسيا، اتخذ، جاوزا، لقيا، أوينا، أذكره، فارتدّا، أنسانيه، فوجدا، آتيناه، علّمناه، أتبعك، تعلّمن، فانطلقا، ركبا، خرقهما، تُغرق، لقيا، قتله، أتيا، استطعما، أبوا أن يضيّفوهما، ينقض، أقامه، سأنبّئك، يأخذ، غصبا، أردنا، يبدلهما، يستخرجا، أعيبها.
ت-المجرّدات:	فتاه، حقْبا، نصبا، رحمة، رُشدا، صبرا، صابرا، إمرا، لا ترهقني، زكية، نُكرا، مساكين، أعيبها، ملِك، مؤمنين، يرهقهما، خيرا، أقرب رُحما، غلامين، يتيمين، صالحا، رحمة.

ث-العلاقات:	مَجْمَع، لمّا، بينهما، هذا، ذلك، عندنا، لدنّا، إنّك، إذا، بعدها، بيني، وبينك، تحته، ذلك.

جدول رقم (6) يوضح الحقول الدلالية العامية في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح

4-قصة ذي القرنين:

الحقل الدلالي	الألفاظ التي تندرج تحته
أ-**الموجودات:**	ذي القرنين، الأرض، الشمس، عين، مَن آمن، من ظلم، قوم، السّدين، يأجوج ومأجوج، خرْجا، سدّا، ردْما، زُبُر الحديد، نارا، قِطرا، الكافرين، أعينهم.
ب-الأحداث:	سأتلو، ذكرا، مكّنا، آتيناه، بلغ، وجدها، تغرب، تعذّب، تتخذ، سنقول، تطلع، قولا، نجعل، آتوني، جاء، تركنا، عرضنا، لا يستطيعون، سمعا.
ت-المجرّدات:	سببا، فأتبع سببا، حمئة، حُسنا، صالحا، نُكرا، الحسنى، مفسدون، مكّنّي، خير، بقوة، رحمة، حقّا، يومئذ.
ث-العلاقات:	إنّا، مغرب، عندها، إذا، إذا، مطلع، دونها، كذلك، بين، على أن، بيننا وبينهم، هذا.

جدول رقم (7) يوضح الحقول الدلالية العامية في قصة ذي القرنين.

ت-تحليل الجداول:

يمكن رصد بعض الملاحظات من خلال تصنيف مفردات القصص في الحقول الدلالية منها:

- تتسع الحقول الدلالية بدءا من حقل الموجودات ثم تضيق نوعا ما شيئا فشيئا.
- العلاقات الدلالية تقع بين مفردات الحقل الدلالي الواحد، مثل علاقة التضاد بين كلمتي: أيقاظ ورقود.
- يغلب في قصة أصحاب الكهف وقصة موسى مع العبد الصالح حقل الأحداث، وهذا طبيعي ومتماش وسيرورة القصتين، لأنهما حافلتان بالأحداث والمفاجآت ومبنيتان عليها.
- في قصة ذي القرنين يوجد توازن ظاهر بين الحقول الدلالية، وهذا يعود دلاليا إلى الارتباط بتوازن وقوة وحكمة شخصية ذي القرنين وحسن تصرفها ومعالجتها لمختلف الوضعيات التي وجدها في طريقه.

- تتكرّر بعض الكلمات في الحقوق الدلالية لكل قصة، كأسماء الإشارة التي ذُكرت تقريبا بالألفاظ نفسها في حقل العلاقات لكل قصة، وبعض الألفاظ الأخرى مثل: الأرض، السماء، رجل، آتى، قال، وكذلك.
- رأينا إضافة التأكيد والاستدراك إلى حقل العلاقات كونهما من العمليات العقلية التي يبذلها الإنسان للإقناع، وهذا إضافةً إلى التعليل والاستنتاج.
- تتفرع الحقول الدلالية الأربعة الموضّحة في الجداول السابقة إلى فروع أصغر منها، لينتقل التصنيف إلى مرحلة أدقّ وأكثر حصرا.

ث-الحقول الفرعية:

ارتأينا تمثيل كل حقل بتفرّعاته المختلفة في مخطط مستقل تحرّيا للوضوح ولصعوبة جمعها في مخطط واحد، فكانت كما يأتي:

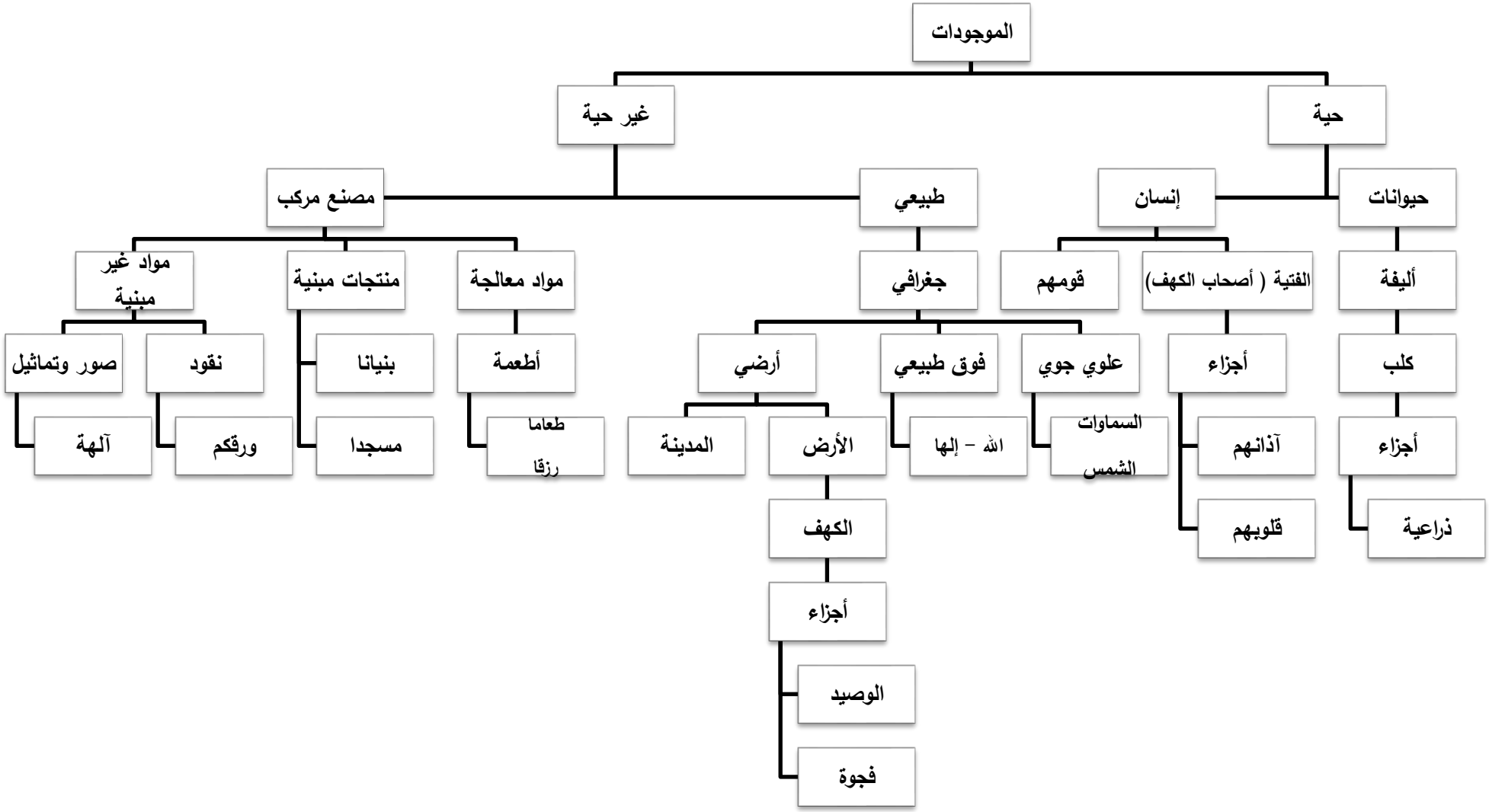

مخطط رقم (1) يوضح الحقول الدلالية الفرعية لحقل الموجودات.

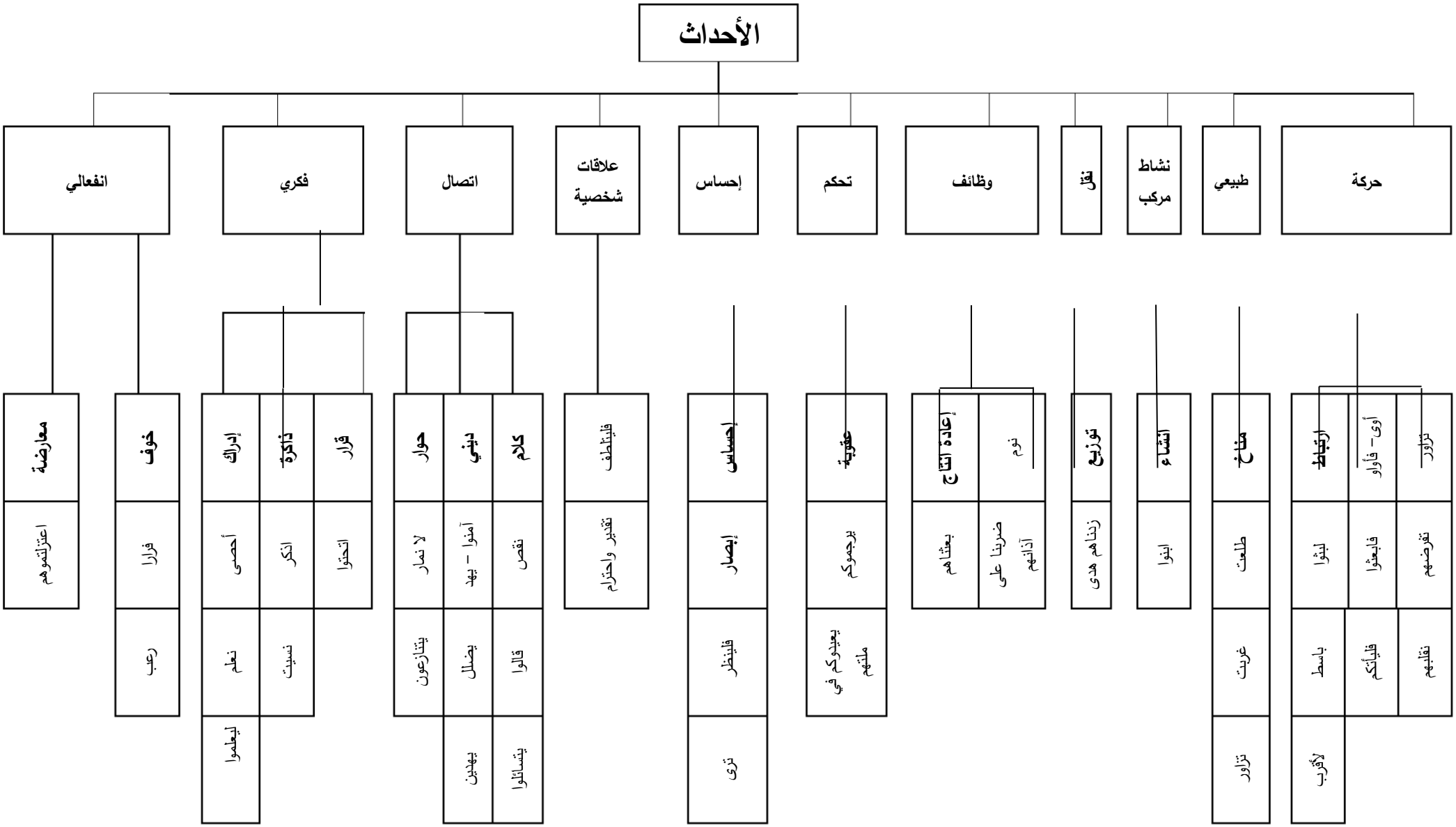

مخطط رقم (2) يوضح الحقول الدلالية الفرعية لحقل الأحداث.

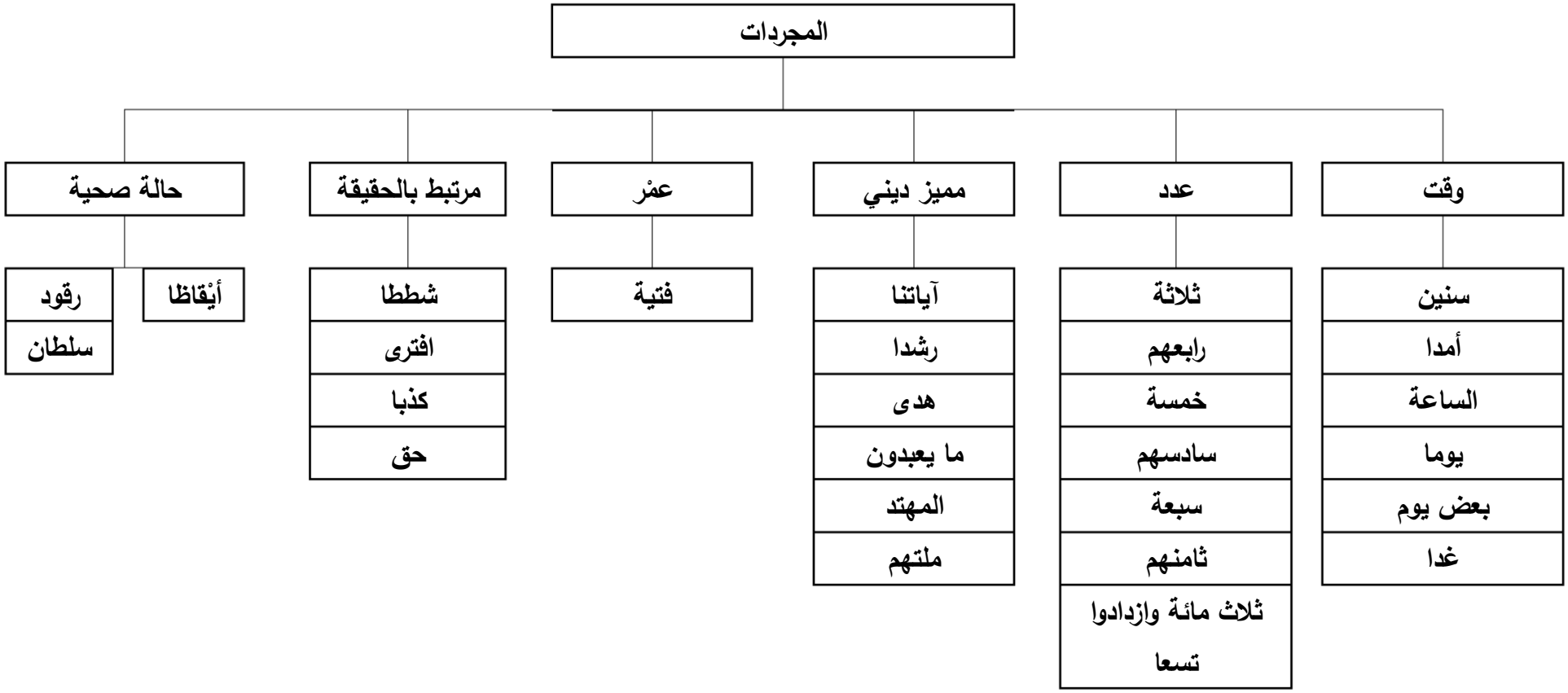

مخطط رقم (3) يوضح الحقول الدلالية الفرعية لحقل المجردات.

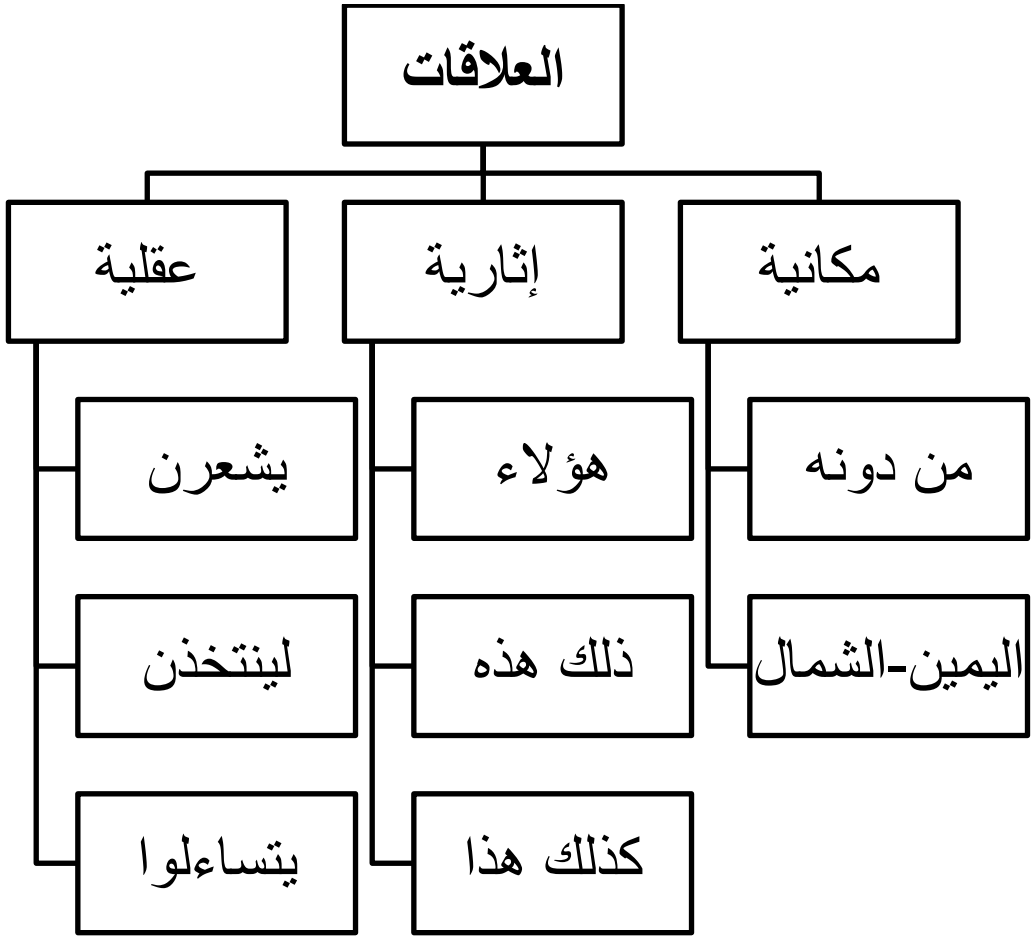

مخطط رقم (4) يوضح الحقول الدلالية الفرعية لحقل العلاقات.

يمكن أن نستنتج بوضوح قابلية النصوص القصصية لتطبيق الحقول الدلالية جميعا عليها إذ اشتملت واستوعبت الدراسة الدلالية بوفرة المفردات وإمكانية تصنيفها وإدراجها في الحقول الأربعة، ثم تفرّع كل حقل إلى عدد من الحقول الفرعية.

كما أنّ النص القرآني يثبت في كل مرة تصدّيه لأية نظرية واستيعابه لها لثرائه وتنوع مفرداته، وإن كان هناك أي قصور أو عجز فهو من الدّارس أو النظرية، ويعدّ هذا الاتساع والشمول دليلا على ذلك.

مع ملاحظة أنّ ثراء النص القرآني بمزيد من المفردات جعلنا ندرج بعضها في حقل الارتباط الفرعي تقريبا للدلالة لا خضوعا للحقل لعدم وجود حقل مناسب لها في تصنيف معجم: Greek New Testament مثل الحدث لبثتم، وباسط.

وللإشارة فإن المخططات الفرعية تساهم في ضبط التصنيف أكثر، وتجعله دقيقا حيث يلتبس الأمر في البداية بين الحقول الأربعة الشاملة ثم يتضح بإخضاع الألفاظ للحقول الفرعية فتخرج ألفاظ ظنناها في حقل العلاقات مثلا لنُلحقها بحقل الأحداث.

ج-العلاقات الدلالية:

ضمن الحقول الدلالية تندرج مفردات تمثلها وتدخل في المعنى الذي يؤديه كل حقل سواء أ كان حقلا أساسيا أم فرعيا، وبين تلك المفردات توجد علاقات دلالية تساهم هي الأخرى في أداء المعنى أو توضيحه أو تأكيده.

وتتمثل هذه العلاقات الدلالية في: الترادف، الاشتمال أو التضمن، علاقة الجزء بالكل، التضاد والتنافر.[1]

وللتوضيح أكثر جاءت دراسة مختلف العلاقات الدلالية التي تتضمنها الحقول الدلالية السابقة الذكر في جدول توضيحي كالتالي:

القصص	العلاقات الدلالية	الألفاظ التي تمثلها
1-قصة أهل الكهف	**الترادف:** أ= ب في المعنى	(سنين، أمدا)، (رشدا، هدى)، (افترى، كذبا)، (وعد الله، الساعة).

[1] ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 98.

	الاشتمال: أحد اللفظين يتضمن الآخر	(رزق، طعاما)، (بنيانا، مسجدا).
	علاقة الجزء من الكل	(آذانهم جزء من الفتية)، (ذراعيه جزء من الكلب).
	التضاد: أ يعاكس ب في المعنى	(اليمين، الشمال)، (يهدِ، يُضلل)، (أيقاظا، رقود)، (اذكر، نسيت).
	التنافر: لا يمكن أن يكون أ هو ب أو يجاوره.	(السماوات، الأرض)، (الله، آلهة).
2-قصة صاحب الجنتين	**الترادف.**	(الله، ربي).
	الاشتمال.	(جنتين: أعناب، نخل، ثمر، نهَر).
	علاقة الجزء من الكل.	(النبات، الأرض)، (كفيه جزء من صاحب الجنتين).
	التضاد.	(أكثر، أقل)، (كفرت، لا أشرك).
	التنافر.	(السماء، الأرض).
3-قصة موسى مع العبد الصالح	**الترادف.**	(نصبا، ترهقني).
	الاشتمال.	(البحر، حوتهما)، (عبدا، علما)، (قرية، أهلها)،(الجدار، كنز).
	علاقة الجزء من الكل.	(غلامين جزء من أبيهما)
	التضاد.	(نسيت، أذكره)، (ينقض، أقامه)، (أتّبعك، فراق)، (لا أبرح، أمضي).
	التنافر.	(مَلِك، مساكين).
	الترادف.	(سدّا، ردما).

4-قصة ذي القرنين	**الاشتمال.**	(بين السدّين، قوما).
	علاقة الجزء من الكل.	(أعينهم جزء من الكافرين).
	التضاد.	(تعذّب، حسنا)، (ظلم، آمن)، (مغرب الشمس، مطلع الشمس).
	التنافر.	///

-جدول رقم (8) يوضح العلاقات الدلالية في قصص سورة الكهف.-

نلاحظ وجود علاقة التضاد في كل قصة بنسبة أكبر من بقية العلاقات نوعا ما، ولعل هذا راجع إلى أن المعاني تتضح بأضدادها، فالكلمة لا تملك هويتها إلا في مقابل كلمة تمثل نقيضتها، وهي لا تتحدّد إلا على أنها "الأخرى" بالنسبة إلى الكلمة "الأخرى".[1]

كما أن التضاد «يقوم على علاقات الكلمة ضمن النص، ويبين ريفاتير بحق أن الإشارات لا تملك قيما مطلقة، لكنّها تنتج عن معارضة الإشارات والاتصال بها».[2]

ويعدّ التضاد ظاهرة بلاغية بديعية معروفة في اللغة العربية مع ما لها من دور في ترابط المعاني وتأكيدها، وللإشارة فإن هذه العلاقات تحدث بين مفردات الحقل الواحد، أي كل حقل تتفاعل مفرداته في بينها داخل حدوده لا تتعادها كحقل الموجودات مثلا أو الأحداث.

[1] ينظر: جون كوين، اللغة العليا النظرية الشعرية، ص 120.

[2] بيير جيرو، الأسلوبية، ص 124.

ثالثا: الوظيفة البلاغية:

1- بلاغة الحذف (الفراغات النصية):

أ- مفهومه:

عرف العرب الحذف وبرز في لغتهم بصفته ظاهرة لغوية يحتاجها المتكلم، فهي ضرورية في مواقف عديدة، وقد حُذف الحرف وحذفت الكلمة والجملة، وعُدّ هذا من جماليات وخصائص اللغة العربية، إنه «باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنّك ترى به ترك الذِّكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أَزْيَد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكون بيانا إذا لم تبن».[1]

إن هذا التفسير المحكم لظاهرة الحذف، يعبّر عن غرابة هذه اللغة التي يحدث فيها المعنى وإن نقص أحد عناصره، ويفهم المقصود وإن غابت إحدى وحداته.

والحذف عادة يكون بدليل لأمن اللبس، والدليل على العنصر المحذوف قد يكون قرينة لفظية أو عقلية أو معتمدا على دلالة السياق، وبهذا يرتكز الحذف على أساسين هما: المرجعية والتكرار.[2]

ويمكن تلخيص مفهوم الحذف في القول بأنه «استبعاد العبارات السطحية التي يمكن لمحتواها المفهومي أن يقوم في الذهن أو أن يوسع أو أن يعدّل بواسطة العبارات السابقة».[3]

فالعناصر ممكنة الحذف هي تلك التي تُفهم دون ذكر، أو التي تُزاد دون أن تضيف شيئا إلى المعنى.

ب- أنواعه:

قد يكون العنصر المحذوف حرفا أو كلمة أو جملة، لكن دون حصول أي خلل في التركيب أو إبهام في المعنى، ومثال حذف الحرف قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾.[4]

فقد ورد الفعلان: "ترن" و"يؤتين" بحذف الياء من كليهما.

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 146.

[2] ينظر: عادل مناع، نحو النص اتجاه جديد في دراسة النصوص اللغوية، ص 111.

[3] روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص 340.

[4] سورة الكهف، الآيتان: 39، 40.

والظاهرة نفسها تتكرر في قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾[1] فالفعل "نبْغ" الذي أصله "نبغي" حذفت ياؤه، وهذا راجع إلى مناسبة الإيقاع الصوتي، «فلو مددت ياء نبغي كما هو القياس لاختل الوزن نوعا من الاختلال».[2] وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾[3] الياء في الفعل "تعلّمن" حقها الوجود لكنها محذوفة.

ومما لا شك فيه أن عملية الحذف لا تحدث جزافا أو دون قصد، وإنما تكون مدروسة موافقة لمقاصد الله عز وجل ومناسبة للسياقات التي ترد فيها، ذلك أنّ «السياق القرآني المعجز هو الحكَم، فهو الذي يشير إلى ذكر الحرف أو إلى حذفه، فقد يكون الأنسبُ –من حيث الأسلوب والمضمون–ذكرَ الحرف في آية، لأنّ هذا يتفق مع سياقها التعبيري والمعنوي، وقد يكون الأنسب حذفَ الحرف نفسه في آية أخرى مشابهة، لأن هذا الحذف يتّفق مع السياق الآخر التعبيري والمعنوي».[4]

فتفسير هذه الظاهرة لا بدّ فيه من العودة إلى السياق، فقد يكون داعيا إليها، بالإضافة إلى العلم بالأساليب القرآنية ودراستها.

ولنأت بقول الله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾.[5]

فنرى أن الياء قد حذفت من اسم الفاعل "المهتدي"، وهذا لأنّ المقام مقام إيجاز لا تطويل، فناسبه الاجتزاء بالكسرة عن ذكر الضمير، فقد ذكر الهداية عرضا في قصة أهل الكهف،[6] ولم يكن بصدد التطويل لأن سرد ما وقع لأهل الكهف أهمّ وهو الهدف، خاصة أن المناسَبة هي الجواب على سؤال المشركين، وبالتالي إثبات صدق النبي صلى الله عليه وسلم ونبوته بأخبار غيبية لا يعلم تفاصيلها إلا الله عز وجل.

أما حذف الكلمة فمثاله أن «تحذف المضاف وتقيم المضاف إليه مقامه وتجعل الفعل له».[7]

---

[1] سورة الكهف، الآية: 64.

[2] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 106.

[3] سورة الكهف، الآية: 66.

[4] صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ص 186.

[5] سورة الكهف، الآية: 17.

[6] ينظر: فاضل صالح السمرائي، التعبير القرآني، ص 85.

[7] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص 133.

ويظهر هذا النوع من الحذف في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾.[1]

حذف مفعول الفعل "ضربنا"، وهو الحجاب، وتقدير الكلام ضربنا على آذانهم حجابا.[2]

وفي قوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾.[3]

وقع الحذف في قوله: " وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا " فقد حذفت كلمة "وجود" وهي في الأصل اسم مجرور بالباء وهو مضاف، والضمير "كم مضاف إليه"، فتقدير كلام الله عز وجل: «ولا يخبرنّ بوجودكم أحدا، فهنا مضاف محذوف دلّت عليه دلالة الاقتضاء فيشمل جميع أحوالهم من عددهم ومكانهم وغير ذلك».[4]

ولأن المضاف حُذف (وجود) تعلّق حرف الجر "الباء" مباشرة بالضمير المتصل "كم"، والذي يقع في الأصل مضافا إليه (مضاف إلى كلمة وجود)، لكنه بعد الحذف صار اسما مجرورا بالباء.

ومن أمثلة الحذف الواردة بكثرة حذف القائل، أو فاعل الفعل قال من مقدمات الجمل الحوارية، وهذا الحذف للعلم بالمحذوف، لذلك لا يترك استفهاما ولا حيرة لدى المتلقي، ومثاله قول الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾.[5]

فرغم حذف القائل إلا أننا نعلم أنه الفتى في الآية الأولى، وموسى عليه السلام في الآية الثانية.

وفي قوله أيضا: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾.[6]

فالقائل المحذوف هو العبد الصالح ثم موسى عليه السلام، وهو واضح لا يحتاج بحثا أو تتبعا، وهذا من حكمة الله عز وجل وعظمة أساليبه ورقيها.

---

[1] سورة الكهف، الآية: 11.

[2] ينظر: الزمخشري، تفسير الكشاف، ض 613.

[3] سورة الكهف، الآية: 19.

[4] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 286.

[5] سورة الكهف، الآيتان: 63، 64.

[6] سورة الكهف، الآيات: 67- 70.

ت- دور الحذف في التماسك النصي الحواري:

الحذف من العوامل التي تحقق التماسك النصي، فأن ينقص عنصر أو كلمة من الآية القرآنية أو أي تركيب بصفة عامة، لا يعني نقص المعنى أو حدوث ثغرة معنوية أوتفكك بناء النص، وإنما يساهم الحذف في تحقيق التماسك النصي ويُشرك المتلقي في بحث العلاقة بين ما هو مذكور وما هو محذوف، فيمكنه ملء الفراغ الناتج عن الحذف.[1]

ولقد تفطّن العالم الجليل جلال الدين السيوطي لهذا الدور، وسماه بالاحتباك،[2] وهذا من مظاهر السبق الفكري والمعرفي الذي عرفه علماء العرب القدماء، إذ وجدت أفكارهم ضمن النظريات والاتجاهات الحديثة لدراسة الظواهر اللغوية.

إنّ ظاهرة الحذف في القرآن الكريم عموما وفي سورة الكهف خصوصا تساهم في وضوح المعنى وقوته ومتانة أجزائه، فقد يحذف الله تعالى عدّة كلمات أو عناصر «ثم تراه في الوقت نفسه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ في تأدية المعنى كلّه بجلاء ووضوح، وفي طلاوة وعذوبة، حتى يخيل إليك من سهولة مسلك المعنى في لفظه أنّ لفظه أوسع منه قليلا».[3]

بالحذف إذاً يزول الحشو والتكرار، ويحصل المعنى وتصل الرسالة في غياب العناصر المحذوفة الحاضرة في ذهن المتلقي بدليل ما، وبهذا يشارك هذا المتلقي في الربط والاستنباط.

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾.[4]

فعبارة "إما أن تعذب" حذف المفعول به لفعلها "تعذّب" لكنه تقدّم الدليل عليه حين قال عز وجل: "وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ" ممّا لا يدع مجالا للشك أو اللبس أو البحث عن المعذَّبين.

لقد زخرت سورة الكهف بالعديد من مواضع الحذف، مع العلم أن الطابع القصصي غالب عليها، إذ ضمّت أربع قصص كما ذكرنا سابقا، و«طبيعة القصة تقتضي في لغة القرآن المعجز عدم التفصيل

[1] ينظر: عادل مناع، نحو النص اتجاه جديد في دراسة النصوص، ص 124.

[2] ينظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 3، ص ص 182، 183.

[3] محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص 173.

[4] سورة الكهف، الآية: 86.

الشديد، إذ إنها تركز على الخطوط العريضة للقصة، ثم تترك الأمور الثانوية التي يمكن للمتلقي أن يدركها خلال سياق القصة وتعاقب أحداثها، وهذا يبرز التفاعل المستمر بين النص والمتلقي».[1]

فإذا كان الحذف يُنتج نوعا من التماسك المعنوي بين أجزاء التركيب أو الآية أو السورة، فإنه صار ينتج تماسكا بين النص والمتلقي بحكم العلاقة التي تنشأ بينهما، فيظل هذا الأخير مشدودا إلى القصة أو المشهد الذي يجد فيه فراغا فيستمر بالتفكير فيه، وهو ما تناولناه بالدراسة تحت مصطلح: الفجوات.

وقد تتسع دائرة التماسك لتصبح ثلاثية الأقطاب فيكون هذا التماسك بين المنتج والمتلقي والنص،[2] الذي يبقى النقطة التي تصل المنتج بالمتلقي.

ث-الفجوات:

رأينا أمثلة عن مواضع الحذف الذي قد يطال عناصر معينة في المقاطع الحوارية، لكن قد يصادفنا حذف مشهد أو مقطع كامل فتنتج عنه فجوة تهزّ ذهن المتلقي وتخلخل تفكيره، مما يزيد النص جمالا والقَصّ تشويقا، «وفضل القرآن هنا إنما يظهر في ملء تلك الفراغات التي تقع بين ثنايا الحوار، وذلك على الوجه الذي يجعل للقارئ منافذ ينفذ منها إلى القصة ليملأ الفراغات التي تُركت عن حكمة وتدبير، ليتحرك فيها بعقله وبخياله، وليكون له في القصة موقف ما، يصله بها ويشدّه إليها».[3]

فالموقف الحواري تتخلله فجوات أو فراغات تستوقف المتلقي ليمعن النظر في حدَث فاته أو موقف غير مذكور، وليحرّك خياله فيتصوّر هذا المشهد الضائع بين المتحاورين، ومجرد وقوفه هذه الوقفة يعني استفزاز ذهنه وبحثه عن المشهد الغائب، فما ذُكر في الآيات الكريمة قد حصلت منه الفائدة المعنوية، لكنّه ترك تعطّشا نفسيا ولهفة لتحصيل المزيد.

وهذه الفجوات في النص القرآني عامة والنص الحواري خاصة، والتي تكون بين المشاهد القصصية تؤدي ما يؤديه إسدال الستار في المسرح الحديث، وما يؤدّيه انتقال الحلقة في الأفلام والمسلسلات، حيث تُترك فجوة بين المشهد والمشهد، أو بين الحلقة والحلقة، ليملأها خيال المتلقي أو المتفرّج الذي يصل بطريقة ما بين المشهدين.

والأمثلة على وجود هذه الفجوات في محاورات قصص سورة الكهف كثيرة، فها هي القصة الأولى: قصة أهل الكهف تُروى، وشخصياتها تتحاور وتنسج الأحداث، لكننا نجد انتقالا مباشرا من مشهد إلى آخر بقفزة تلقائية فنية متجاوزة مشهداً موجودا في الحقيقة، لكنّه غير مذكور، قال الله تعالى:

---

[1] صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج 2، ص 233.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص 233.

[3] عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص 124.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.[1]

فها هم الفتية المؤمنون ثابتون على إيمانهم ويتشاورون في أمرهم، ليهتدوا إلى اللّجوء إلى الكهف، «بهذا ينتهي المشهد ويسدل الستار أو تنقطع الحلقة على أحدث الطرق التي اهتدى إليها المسرح والسينما في القرن العشرين، فإذا رفع الستار مرّة أخرى وجدناهم قد نفّذوا ما استقرّ عليه رأيهم، فها هم أولاء في الكهف، ها هم أولاء نراهم رأي العين فما يدع التعبير هنا شكّا في أنّنا نراهم يقينا».[2]

نعم، يُرفع الستار لنرى مشهدا آخر، فبعدما تركنا الفتية في المشهد الأول يتشاورون نجدهم في المشهد الثاني نائمين في الكهف محاطين برعاية الله آمنين في نومهم من شرور الظواهر الطبيعية والمكائد البشرية، قال الله تعالى: ﴿* وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.[3]

ثم فجأة يُبعث الفتية ويحيون من جديد بعد نوم طويل، قال لله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.[4]

---

[1] سورة الكهف، الآيات: 14- 16.

[2] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 191.

[3] سورة الكهف، الآيتان: 17، 18.

[4] سورة الكهف، الآيتان: 19، 20.

لقد استيقظ الفتية وتساءلوا عن المدّة التي لبثوها في ذلك الكهف، ويبدو أنهم جائعون فأرسلوا واحدا منهم إلى المدينة ليحضر طعاما، وحذّروه من مغبّة انكشاف أمره للناس، وبين هذا المشهد والمشهد التالي له فجوة، ففي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۗ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾[1] نجد أمرهم قد انكشف، ثم مات الفتية في مشهد غير موجود في القصة، لأنّ «هنا فجوة متروكة للخيال، فنحن لا نجد إلاّ أن أمرهم كُشف وعَثر الناس عليهم، وإن كان الناس يومئذ مؤمنين لا كافرين... وهنا يبرز الغرض الدّيني من القصة، ولكنّ النصيب الفني كذلك قد استوفِي، فللخيال أن يتصور ما حدث عندما ذهب رسولهم وعندما كشف أمره أيضا». [2]

وللخيال أيضا أن يتصوّر جدال الناس حول كيفية تكريم الفتية بعد موتهم، ثم استقرارهم على رأي اتخاذ مسجد عليهم، وكذلك تكهّنهم بعددهم ليُترك الفصل في حقيقته لله تعالى عالم كل شيء، والذي لا تخفى عليه خافية، ويسدل الستار في الأخير بعد عدّة مشاهد بينها فواصل أو فجوات لتحريك ذهن المتلقي وتنشيط خياله.

وإذا انتقلنا إلى قصة سيدنا موسى عليه السلام مع العبد الصالح نجد النمط نفسه من مسرحة الأحداث، ونقل المتلقّي من مشهد إلى آخر مع إشراكه في ربطها وتصوّر ما جرى خارج المشاهد المذكورة، أي محاولة خلق مواقع لمشاهد متخيّلة لملء ما يجده من فراغات وفجوات، لأننا «قد نقف بين يدي مشهد طويل ولكن نرى فيه فجوات كثيرة، وخلخلات هنا وهناك، يحاول الإنسان ملأها بما بين يديه من مساقات القصة من دلالات وأمارات».[3]

ففي مشهد موسى عليه السلام مع فتاه في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا

[1] سورة الكهف، الآية: 21.

[2] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 193.

[3] عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص 125.

﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾[1] نجد مرافقة الفتى لسيدنا موسى إلى غاية لقاء العبد الصالح، والدليل هو الفعل "وجدا" المسند إلى ضمير المثنى "هما" أي موسى والفتى، لكن بعد هذه الآية لا نجد لهذا الفتى أثرا ولا وجودا مع موسى عليه السلام في رحلته مع الرجل الصالح، وهنا فجوة تستوقف القارئ ليتساءل: إلى أين ذهب فتى سيدنا موسى عليه السلام؟ فلم تحدث أية إشارة إليه، فهل بقي معهما أم فارقهما؟.

وحتى التصرّفات التي قام بها العبد الصالح تعتبر بالنسبة إلى سيدنا موسى فجوات في حينها، إذ يرى الحدث ولا يعرف تفسيره، فلم يصبر ولم يحتمل هذا الوضع (الفعل موجود والسبب مفقود).

ثم تأتي بعدها الآيات على لسان العبد الصالح تحمل التفسيرات متتالية، ليملأ بها الفراغات التي تركها سابقا في ذهن سيدنا موسى عليه السلام.

ولا شك في أن هذه الفجوات تجعل المتلقي يمسك بخيط السرد القصصي لا يُفلته، لأنه يقف بين المشهد الحاضر والغائب، وبين السابق واللاحق، يحاول الربط بينهما وجعل الانتقال من مشهد إلى مشهد آخر سلسا شيّقا مفعما بمتعة البحث والاستنتاج والتخيّل.

2-الأساليب البلاغية (الخبر والإنشاء):

تراوحت الجمل الحوارية في قصص سورة الكهف بين خبرية وإنشائية، حسب ما يدعو إليه السياق، وحسب حاجة الشخصيات في مقامات الحديث أو الحوار الذي دار بينها، وفي البلاغة العربية تدرس الأساليب ضمن علم المعاني، فيعرّف الخبر على أنه «هو الكلام المحتمل للصدق والكذب، أو التصديق والتكذيب».[2]

ويعبّر السكاكي عن الإنشاء بمصطلح الطلب ويفرق بين الخبر والطلب باحتمال الصدق والكذب،[3] الذي يوجد في الخبر ولا يوجد في الطلب أو الإنشاء.

أ-الأساليب الخبرية:

ورد الأسلوب الخبري في بعض الآيات الحوارية مناسبا وخادما لسرد الأحداث، كما في قوله تعالى:

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾

[1] سورة الكهف، الآيات: 60- 65.

[2] أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987، ص 164.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 165.

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾،[1] أو كما في قوله: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾.[2]

حيث أفاد الخبر في هذه الآية الكريمة تقرير المعلومة أو الحقيقة، وقد جاء هذا السرد في سياق الخطاب بين الله عز وجل ونبيّه الكريم للإجابة على تساؤلات الكفار بخصوص قصة أهل الكهف.

وبالإضافة إلى السرد فقد أدى الأسلوب الخبري دورا مهمّا في وصف الحالات أو الأشخاص أو الأماكن، فكثيرا ما يصاحب الوصف السردَ أو يلازمه ليتكامل العمل القصصي، ويتجلّى هذا في قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾،[3] حيث نجد وصفا دقيقا نافذا إلى أعماق صورة الفتية وهم في فترة نومهم داخل الكهف وعناية الله بهم.

كما نجد الوصف في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾[4] وأما في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.[5]

فيظهر تأكّد الرجل الغني من عدم زوال ثروته في المستقبل، ويستشرف دوامها مؤكّدا بحرف اللام ونون التوكيد الثقيلة: (لأجدنَّ).

وفي حوار سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر، يستشرف هذا الأخير متأكّدا أن نبيّ الله لن يحتمل منه ما سيراه من أفعال ستبدو له غريبة، وهذا في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ

[1] سورة الكهف، الآيات: 11- 15.
[2] سورة الكهف، الآية: 25.
[3] سورة الكهف، الآية: 18.
[4] سورة الكهف، الآيات: 32- 34.
[5] سورة الكهف، الآيتان: 35، 36.

﴿صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾[1] ويتحقق استشرافه بعد صحبته لموسى عليه السلام، ويتكرّر ذلك في قوله تعالى بصيغة الاستفهام المنفي: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾[2] وقوله أيضا: ﴿* قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾.[3]

وفي هذا تأكيد واضح على حدوث ما تنبّأ به الخضر، رغم وعد موسى له بالصبر، وهذا الخبر أو الوعد يأتي في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾.[4]

وفي مقام آخر نجد الغرض من الإخبار هو التحذير والحرص الشديد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.[5]

ومهما يكن فإن الله عز وجل قد أنزل هذه الأساليب منازلها وجعلها أين يجب أن تكون مؤدّية في كل مرة دورا أو غرضا، متداخلة في العديد من المواضع والآيات مع الأساليب الإنشائية، التي حرّكت الحوار هي الأخرى وأضفت عليه طابعا مسرحيا تتلون فيه المشاهد وتتغير الملامح بتلقائية وعفوية، فيرتسم الحدث ويَمْثل حيًّا، نكاد نحس بحركاته ونسمع أصواته خافتة كانت أم مدوّية.

ب- الأساليب الإنشائية:

تنوعت الصيغ الإنشائية وغلبت منها الطلبية على غير الطلبية، كما تنوعت أغراضها وأدوارها في الخطابات الحوارية، وفيما يلي أهم الصيغ الإنشائية الواردة في قصص سورة الكهف:

1- الاستفهام:

ورد الاستفهام في عدّة آيات حوارية من سورة الكهف، وتعدّدت أغراضه وصيغه، ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾،[6] وفي قوله أيضا: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾[7]

[1] سورة الكهف، الآية: 67.
[2] سورة الكهف، الآية: 72.
[3] سورة الكهف، الآية: 75.
[4] سورة الكهف، الآية: 69.
[5] سورة الكهف، الآية: 20.
[6] سورة الكهف، الآية: 37.
[7] سورة الكهف، الآية: 71.

و﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾،[1] يوجد استفهام بحرف الهمزة في قوله تعالى: "أ كفرت؟" و"أ خرقتها؟" و"أ قتلت؟"، وهو استفهام إنكاري في هذه الآيات القرآنية الثلاث، لأن كلّ الأفعال المستفهَم عنها سلبية وشنيعة بالنسبة إلى نبيّ الله موسى فأنكرها.

أمّا في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾[2] فهو استفهام منفي بالحرف "لم"، والجواب عليه يكون بحرف "بلى" لإثبات فحواه، والغرض منه هو «تقرير وتعريض باللوم على عدم الوفاء بما التزم، أي أ تقرّ أني قلت إنك لا تستطيع معي صبرا».[3]

ومن جهة أخرى فإن الاستفهام بالهمزة مع البداية فيه بالفعل يفيد الشك في الفعل نفسه، والغرض منه هو معرفة وجوده،[4] وهو ما كان في الآيات السابقة.

ونجد للاستفهام غرضَ النفي كما في قول الله تعالى: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾،[5] وقوله أيضا: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾.[6]

وفي قول الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾[7] استفهام بالحرف "هل"، لكن المضمون موجّه إلى معنى الشرط، والشرط هنا أدّاه حرف الجرّ "على"، فهو استعلاء مجازي، جعل الاتباع متوقفا على التعليم وأعلى منه لشدّة المقارنة بينهما، وهذه من صيغ الالتزام والتعاقد.[8]

2- الأمر:

خرج الأمر في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾[9] إلى غرض الدعاء، لأنه صدر من الأدنى إلى الأعلى منزلة، وهذا في خطاب الفتية اللهَ سبحانه وتعالى، فهو ليس أمرا حقيقيا فيه طلب للفعل وإنما فيه تضرع وتوسّل وإظهار للضعف.

---

[1] سورة الكهف، الآية: 74.

[2] سورة الكهف، الآية: 72.

[3] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 376.

[4] ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 111.

[5] سورة الكهف، الآية: 15.

[6] سورة الكهف، الآية: 68.

[7] سورة الكهف، الآية: 66.

[8] ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 370.

[9] سورة الكهف، الآية: 10.

وفي قوله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩﴾[1] دعوة الفتية بعضهم بعضا لإرسال واحد منهم إلى المدينة، وقد وردت أربعة أوامر هي: "ابعثوا" بصيغة فعل الأمر و"لينظر" و"ليأتكم" و"ليتلطّف" بلام الأمر الجازمة مع الفعل المضارع، وهي التماسات لا أوامر على وجه الاستعلاء والإلزام.

ومثل هذا نجده في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾[2] حيث يطلب موسى من فتاه الطعام ويدعوه لمشاركته لأنّ جوع وتعب السفر قد نال منهما؛ ولأنه تحدّث بضمير جمع المتكلّمين "نحن"، ولم يقل: "آتني غدائي..." وهذا تواضع ورفق منه عليه السلام.

3- النهي:

تعرف صيغة النهي باقتران حرف النهي الجازم "لا" بفعل مضارع مجزوم، وتفيد طلب الكفّ عن الفعل، كما في خطاب الله تعالى رسوله محمّدا صلى الله عليه وسلم: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢﴾.[3]

ويظهر النهي في عبارتي: "لا تمار" و"لا تستفت" حيث ينصح الله عز وجل نبيّه الكريم بعدم مجادلة المشركين في شأن أهل الكفر إلا جدالا ظاهرا دون تعمّق، وذلك بأن يقصّ عليهم ما أوحي إليه من قصّتهم دون زيادة، ودون تعنيف أو تجهيل لهم، ودون تحدٍّ لهم في السؤال عن هذه القصّة، وهذا من ضمن ما أوصاه به الله في دعوته بالتي هي أحسن وبالمداراة والمجاملة، فليس به حاجة إلى استرشاد أحد وقد أرشده الله إلى قصتهم في وحيه وقرآنه.[4]

وفي قوله تعالى على لسان العبد الصالح: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾[5] نهي: "فلا تسألني" واقع في جواب الجملة الشرطية: "فإن اتّبعتني"، وهو في الحقيقة جواب لشرط سابق ورد من سيدنا موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا

[1] سورة الكهف، الآية: 19.

[2] سورة الكهف، الآية: 62.

[3] سورة الكهف، الآية: 22.

[4] ينظر: الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 617.

[5] سورة الكهف، الآية: 70.

﴿عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾[1] فقد ردّ الخضر على النبي عليه السلام بشرط آخر وكأنه قال: "تصاحبني بشرط ألاّ تسألني عن شيء".

وفي قوله هذا استباقٌ لما سيحدث، لأنها أحداث استباقية سيقوم بها بناء على استشرافه لما سينجرّ عنها إذا لم يتصرّف فيها، لكنّ سيدنا موسى عليه السلام في كل مرة ينكر تلك التصرّفات حتى أزعج الخضر، فأخذ يستعطفه بأنْ ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.[2]

ففي هذه الآية نهي في موضعين: "لا تؤاخذني" و"لا ترهقني"، لكنّه «مستعمل في التعطّف والتماس عدم المؤاخذة، لأنّه قد يؤاخذه على النسيان مؤاخذة من لا يصلح للمصاحبة لما ينشأ عن النسيان من خطر».[3]

وهذا من حسن خلق المتعلّم وتأدّبه مع معلّمه، فيعتذر ويطلب العفو منه ويستمسك به للانتفاع بعلمه مظهرا شغفه واهتمامه، وبهذا يضرب لنا القرآن مثلا راقيا في التحلّي بمكارم الأخلاق، وترسيخ القيم الخلقية والإنسانية العالية.

4- الرجاء والتمني:

مؤشر الرجاء هو الفعل "عسى" الذي ورد في قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾.[4]

في هذه الآية الكريمة رجاء من الرجل الفقير الذي استضعفه الغني، والرجاء هو طلب ممكن التحقق، خاصة أنه توجّه به إلى الله سبحانه وتعالى، مؤمنا بقدرته على تغيير الأحوال، راضيا بنصيبه منه قلّ أو كثر، وهذه الآية جواب على سابقتها: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾[5] فكأنه يقول: «إن ترني أفقر منك فأنا أتوقّع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني لإيماني جنة "خيرا من جنتك" ويسلبك لكفرك نعمته ويخرّب بستانك».[6]

---

[1] سورة الكهف، الآية: 66.

[2] سورة الكهف، الآية: 73.

[3] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 376.

[4] سورة الكهف، الآية: 40.

[5] سورة الكهف، الآية: 34.

[6] الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 620.

وبهذا تحقّق توقّع الرجل الفقير المؤمن ورجاؤه، وقد أثبت الله تعالى هذا في قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾.[1]

حيث يتمنى لو أنه لم يشرك ولم يكفر بالله عز وجل لكن هيهات أن ينفعه التمني وهو طلب ما لا يتحقّق.

وياء النداء رافقت التمني وهي مستعملة «في التلهّف، و"ليتني" تمنٍّ مراد به التندّم، وأصل قولهم "يا ليتني" أنه تنزيل للكلمة منزلة من يعقل، كأنه يخاطب كلمة "ليت" يقول: احضُري فهذا أوانك».[2]

لقد خاب صاحب الجنتين وزالت ثروته وتخربت جنته، فندم بعدما كان يستبعد أن يلحق به الفقر والخسران بعد الغنى، فتحطّم أفق انتظاره ولم يعد ينفعه تمنّ ولا ندم.

5- التعجب:

ورد التعجب في قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦﴾.[3]

وهو وارد بصيغة قياسية على وزن: "أفعِلْ به"، ويظهر ذلك في العبارة: "أَبصِر به وأَسمِع" العائدة على الله سبحانه وتعالى، فقد دلّت على «التعجّب من إدراكه المسموعات والمبصرات، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حدّ ما عليه إدراك السامعين والمبصرين؛ لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها كما يدرك أكبرها حجما وأكثفها جرما، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر».[4]

وهذا راجع إلى عظيم قدرته وعجيب تفرّده بعلم كل شيء، في الحاضر والمستقبل، في العوالم الغابرة بما كان فيها وما حدث، فهو عالم الغيب والشهادة وصاحب أمر وتدبير ومُلك كل صغيرة مهما صغرت، وكلّ كبيرة مهما كبرت.

---

[1] سورة الكهف، الآية: 42.

[2] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 327.

[3] سورة الكهف، الآية: 26.

[4] الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 618.

الفصل الرابع: الخصائص الأسلوبية للحوار القصصي في سورة الكهف.

أولا: خصائص السرد القرآني.

1-آليات التصوير في النص الحواري القرآني.

2-الترغيب والترهيب.

3-الحجاج والإقناع.

ثانيا: بلاغة الحوار في السورة.

1-الالتفات.

2- الأمثال.

3- الانزياح والمفارقة.

أولا: خصائص السرد القرآني:

1-آليات التصوير في النص الحواري القرآني:

يصوّر الحوار القصصي الشخصية أو المشهد أو المكان أو الجو العام للحدث بدقة وليونة وعفوية تامة ليُلمّ في النهاية بمضمون الرسالة إلماما ممتعا ومفيدا في آن واحد.

ونقصد بالتصوير القرآني: «أن القرآن يعرض الموضوع بطريقة تصويرية متخيَّلة، فعندما يقرأ القارئ الآية ترتسم في خياله صورة فنية مجسَّمة متخيّلة للموضوع الذي تتحدّث عنه الآية، فكأنّ القارئ يرى مشهدا تلفزيونيا معروضا على شاشة خياله، فيتأثر ويتفاعل».[1]

وارتسام الصورة في ذهن أو خيال القارئ لا يعني اكتفاءه بتخيلها فحسب وإنما يستحضرها أمام عينيه كأنه يراها حقا، لتمتزج عدة أفعال في آن واحد وتتداخل، فيقفز فعل التمثل الحسي للصورة ليصبح الغالب والمهيمن، وذلك يكون مصحوبا بفعل القراءة والتخيل.

أ- تصوير الشخصية:

يقدّم الحوار الشخصية بملامحها وطباعها وانفعالاتها النفسية، وما يختلج فيها من مشاعر وخواطر، ما يريحها أو يزعجها، قال الله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾.[2]

فهذا الحوار بين موسى عليه السلام والعبد الصالح قد قام بدور «تصوير العواطف والانفعالات وإبرازها»،[3] وقد نقلت لنا هاته الآيات بعض جوانب شخصيتَي نبيّ الله وكليمه موسى والرجلِ العالم الحكيم، فتبدو الأولى متسرعة متلهّفة لمعرفة الحقيقة والحصول على الأجوبة، بينما يظهر تميز الثانية بالحكمة وبُعد النظر وسلامة الفكر واتزانه، وبالجدّية والصرامة.

---

[1] صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ص 138.

[2] سورة الكهف، الآيات: 71-78.

[3] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص195.

وهذا الوصف والتحديد يعرّفنا على الشخصية ويجسّد اتساقها في القصة، «واتساق الشخصية في القصة يعين القارئ الواعي على التنبؤ بالنتيجة النهائية، ومن ثم فإنه يتلهّف على معرفتها، ويتشوق إليها ليرى صدق حدسه وصحة نبوءته».[1]

إننا بالحوار نشكّل صورة شبه متكاملة عن الشخصية خاصة في الجانب المعنوي أو العاطفي، فنعيش معها الحدث ونغوص في عالمها ونستحضرها ماثلة تتحرك وتتلوّن تبعا للمواقف التي تمرّ بها، فتكون نهاية المشهد تابعة هي الأخرى لطبيعة كل شخصية وطباعها أو تحركاتها، أو تصرفاتها مع الشخصيات الأخرى «فكلّ تحليل لشخصية معينة يكون في ضوء علاقتها بالشخصيات الأخرى ومدى مساهمتها في تطوير الحدث».[2]

كما كان في قصة صاحب الجنتين، والنهاية التي آل إليها نتيجة طباعه وطريقة تفكيره.

ونحن لا نجد أوصافا جسدية مباشرة للشخصيات، وإنما جعلها الله سبحانه وتعالى داخلة في تصميم الحدث وتصويره، فاستحالت مفصلا متحرّكا من مفاصل الحركة العامة المساهمة في نمو الفكرة.[3]

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.[4] وقوله أيضا سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾.[5]

---

[1] عبده زايد، من أسرار النظم في القصص النبوي، ص 52.

[2] توفيق الزيدي، أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث من خلال بعض نماذجه، ص 140.

[3] ينظر: طول محمد، البنية السردية في القصص القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، ص 67.

[4] سورة الكهف، الآيتان: 19، 20.

[5] سورة الكهف، الآيات: 60-64.

ففي هذه الحوارات «نتلقّى الكلمات من فم أصحابها حيّة نابضة بالمشاعر والأحاسيس، فلا نسمع الكلمات حتى نجد صاحبها معها ينطق بها محمّلة بخلجاته ونبرات صوته، وما انطبع على وجهه من آثار».[1]

وقد التقينا في قصص سورة الكهف شخصيات عدّة كأصحاب الكهف وأهل مدينتهم، وسيدنا موسى مع فتاه ثم مع العبد الصالح، والمساكين الذين يعملون في البحر، والملك والغلام، وصاحب الجنتين والرجل المؤمن، وذي القرنين والأقوام التي لقيها، ويأجوج ومأجوج.

ومهما تنوعت هذه الشخصيات بين مؤمنة وكافرة، وبين صالحة وفاسدة ظالمة، أساسية كانت في تكوين وتطوير الحدث أم ثانوية، فإنها جميعا تَمثل أمامنا لتأدية أدوارها تاركة أثرها فينا، «ونحن هنا في محاولة دراسية للسير مع القَصص القرآني الذي قدم لنا هذه النماذج من خلال الحوار لتكون لنا –في الحاضر والمستقبل–عبرة ودرسا ومثلا نحتذيه أو نبتعد عنه في ملامحهم المتكرّرة بامتداد الزمان والمكان».[2]

فالمتلقي بوعيه وبقراءته الجدية يمكنه أن يستنتج المواعظ ويستفيد من القصص في سورة الكهف أو غيرها من السور، خاصة أن المشهد _بفضل الحوار وتقنية السرد القصصي القرآني_ يتحرّك أمامه مجسَّدا ينبض بالحياة والحركة.

وبشكل تلقائي نلمس الشخصية نفسها وقد تغيرت من حال إلى حال ومن وضع إلى وضع، كأصحاب الكهف الذين دعوا الله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾،[3] لنجدهم وقد ناموا سنين طوالا بإذن ربهم الذي سرد مشهد نوم الفتية مباشرة في الآية التي تعقب دعاءهم في حالة من الوعي والاستيقاظ، قال الله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾،[4] ثم نراهم وقد بعثوا من جديد في مشهد تميز بتسارع سرد الأحداث ودقة وصفها وإحكام ربط خيوطها بمواقفَ حواريةٍ تنوّعت أطرافها.

وهكذا نلمح أن الشخصية القرآنية بصفة عامة وفي سورة الكهف بصفة خاصة «لا تقف عند اتجاه معين بل يتمثل فيها كثيرا عنصر التطور والاستجابة لما حولها من ملابسات، ولا شك أن تطور

[1] عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص 130.

[2] محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص 330.

[3] سورة الكهف، الآية: 10.

[4] سورة الكهف، الآية: 11.

الشخصية بهذا المفهوم يُكسبها جمالا ويولّد فيها الحركة والحيوية حتى تثمر ثمرتها وتعطي العبرة والعظة كاملة».[1]

ومثال هذا التطور في سورة الكهف نجده أقوى في شخصية سيدنا موسى عليه السلام، الذي تحول من شخصية قائدة متبوعة لمّا كان مع فتاه، إلى شخصية تابعة تبغي العلم وتطلبه من رجل أعلم منه، بالإضافة على استجابته ومطاوعته للأحداث والمفاجآت.

من هنا نجزم أن شخصية القصة القرآنية ماثلة بحركاتها وسكناتها وتعابير وجهها وتطور حالها ودورها في سير الأحداث، وهذا التطور والنمو الإيجابي من الآليات التي انتهجها القرآن الكريم في تصوير مختلف الشخصيات في مختلف القصص ومنها ما ورد في قصص سورة الكهف.

ب- تصوير المشهد والحدث:

يُضفي السرد القرآني وحواره على المشهد أو الحدث في القصة القرآنية لمسة فنية جمالية لا تقل أهمية ولا رونقا عن تلك التي يضفيها على الشخصية، بجعلها حيّة تتحرك وتتفاعل مع مختلف معطيات الموقف، ذلك أنّ التربية القرآنية «تجعل السامع أو القارئ لا يرى نفسه مجرد راوٍ لما يقرأ أو يستمع إليه، وإنما يرى نفسه كأنه إحدى شخصيات حواره، لما فيه من الحركة والحيوية وقوة التصوير للمعاني ودقّة تشخيصه للحوادث وفنية تمثيله لشخصياتها».[2]

إن المشهد القرآني يمثل أمام ناظري القارئ وكأنه حاضر فيه أو مشارك في حواره، وهذا عن طريق استثارة العواطف ومنح المشهد جوا عاما يدخل فيه القارئ ويعيشه ويتعاطى معه بشكل يوحي بقدرة خارقة على التأثير المزدوج في العاطفة والعقل معا، فبالعاطفة يصول القارئ ويجول ويتعاطف مع شخصية معينة ويمتعض من أخرى، وبالعقل يبقى مركزا ممسكا بزمام الحكاية محللا مستنبطا وباحثا في الكثير من الأحيان.

نعم قد يصل القارئ إلى مستوى معين من تلمّس ذلك التجسيد الحسي الذي يقفز ويهيمن على ذهنه وهو يتابع الحوار القرآني[3] بشغف بين شخصيتين أو عدة شخصيات.

---

[1] عمر محمد عمر حاذق، الجانب الفني في قصص القرآن الكريم، ط 1، دار المأمون للتراث، بيروت، لبنان، 1413هـ/1993 م، ص 131.

[2] الحسين جرنو محمود جلو، أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم، ص 258.

[3] ينظر: خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية منهجها وأسس بنائها، ص 243.

ومثال ذلك ما نجده في قصة ذي القرنين، الذي اكتسب قوة وقدرة على التأثير في الشخصيات الحاضرة معه من القوم الذين استنجدوا به، بفضل حكمته وقوته الجسدية والمادية والنفسية، لنجد هذا التأثير يمرّ مباشرة إلى نفس المتلقي الذي يعيش المشهد ويتأثر به وبذلك النجاح المبهر الذي وصلت إليه شخصية ذي القرنين، حتى لربّما يتمنى أن يكون مثله أو يجعله قدوة له ومثالا للقوة وحسن التصرف والتواضع.

أما عن آلية تصوير المشهد فقد تكون بالاعتماد على الحقيقة أو الخيال، أو بالتحول من سياق إلى آخر، وقد يكون لغويا معتمدا على «كلمة أو جملة».[1]

فمثال الحقيقة قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾.[2]

كل ما ورد في آيات قصة أهل الكهف حقيقة خاصة في بدايتها، فلا مجال للتكذيب ولا للتخيّل لأن الصور المعروضة كلها حقيقية، تعبّر عن المراحل التي مرّ بها الفتية وهم يهربون بدينهم ويتجاوزون طغيان قومهم، تتجلّى فيها خطوات بناء أية قصة فنية من بداية فتطور للأحداث ثم نهاية تشرح صدر المتلقي نظرا إلى نيل الفتية ما يستحقون من ثواب الله سبحانه وتعالى الذي يفي المؤمنين ما يعدهم به، ووعده كان دائما حقّا، (situation initiale, déroulement des évènement, situation finale)

وأما الخيال فلا يقصد به الحديث عن أشياء لا توجد في الحقيقة أو أحداث وشخوص خيالية، وإنما الاعتماد في التصوير على قوة إعمال الخيال لدى المتلقي «فالصور القرآنية المتخيلة معروضة بطريقة حية مؤثرة، ويكاد القارئ المتخيّل يراها وهي تتحرك كالإحياء».[3]

ومثال ذلك الآيات التي تتضمن أخبارا غيبية، أو تلك التي تتحدث عن أهوال يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى

[1] الحسين جرنو محمود جلو، أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم، ص 258.

[2] سورة الكهف، الآيات : 9- 13.

[3] عثمان فوزي علي، مباحث في الإعجاز القرآني، ص 171.

بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾.[1]

فنار جهنم من الحقائق الغيبية التي يؤمن بها الإنسان المسلم وجودا وإثباتا لتحقق وعد الله تعالى لعباده الكافرين المعرضين عن ذكره وعن سبيل الحق في الدنيا، وهذا الإيمان يسكن المؤمن من خلال ما ذُكر في القرآن الكريم وليس بحكم التجربة أو الرؤية العينية، كما أن تصوير الخالق لقسوة مشاهد جهنّم يجعل المتلقي يتخيلها بل وقد يتحسس حرّها ويسمع عويل من يصلاها.

ومثال التحول من سياق إلى سياق آخر مختلف قولُه تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾،[2] فهنا يتحول السياق من السرد بالوصف إلى الخطاب «فكأنما المشهد حاضر اللحظة شاخص نراه ونسمع ما يدور فيه ونرى الخزي على وجوه القوم الذين كذّبوا بذلك الموقف وأنكروه... هذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يحيي المشهد ويجسّمه كأنّما هو حاضر اللحظة، لا مستقبَل في ضمير الغيب في يوم الحساب».[3]

إن هذا الانتقال السلس من نمط سردي إلى آخر يجعل المتلقي هو الآخر ينتقل من حالة شعورية إلى أخرى، فالخطاب يُدخله في مضمون الحوار ويصبح كأنه طرف فيه، وكأنما الخطاب موجّه إليه ويعنيه، كل هذا التصوير العجيب والتأثير القوي نجده يستحوذ على ذات القارئ ويتمكن منها دون عناء أو تكلّف، وبعيدا عن أي تصنّع للألفاظ والتعابير.

أما عن الآلية اللغوية المتمثلة في التصوير والإثارة بكلمة أو جملة فيمكن أن يتداخل الحديث عنها مع ما تناولناه في عنصر سابق تطرقنا فيه إلى حسن انتقاء الألفاظ وقوة تعبيرها عن مدلولاتها، ففي تصوير مشهد الخوف من تعرّض أهل المدينة لأصحاب الكهف يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾،[4] ويوظف الله سبحانه وتعالى لفظة: "يرجموكم" بالتحديد للتعبير عن قسوة ما يتوقعه الفتية من بطش أهل المدينة الكفار

[1] سورة الكهف، الآيات: 98-102.

[2] سورة الكهف، الآية: 48.

[3] سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ص 2274.

[4] سورة الكهف، الآية : 20.

إذا رأوهم أو اكتشفوا أمرهم، فالرجم يكون باستعمال الحجر، وهذا فيه ألم إضافي مما يصوّر المشهد المتخيّل بدقّة مصحوبا بمشاعر الخوف والحذر في أفق انتظار الفتية، وهذا التصوير الدقيق الملامس للوجدان والتفكير تحقق بفضل كلمة "يرجموكم".

ومثال التصوير القرآني اللغوي بالجملة قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾.[1]

فهنا يستعمل الله سبحانه وتعالى جملة "تذروه الرياح" وهي من الناحية النحوية جملة فعلية واقعة في محل نصب نعت للمنعوت "هشيما"، فكلمة "هشيما" هذه وحدها كافية لنقل صورة الهشاشة والتشتت والتفرق، لكن التعبير القرآني أراد أن يُتبعها بصورة حية تصل أنظار وأذهان المتلقي فقال تعالى: "تذروه الرياح"، فذلك النبات المهشّم يتطاير في الهواء، وتتلاعب به الرياح لضعفه وخفة وزنه بعد تشتته وانقسامه وتفتته.

نعم، هذا هو القرآن الكريم بقصصه وإعجازه، وهذه هي السور القرآنية بتعابيرها التي لا مثيل لها؛ فالكلمة إلى الكلمة والجملة إلى الجملة لتشكّل مجموعة من الصور الخلابة «وتنضمّ الصور بعضها إلى بعض لتؤلف المشهد القرآني، والمشهد القرآني فيه الصور وفيه الحركة وفيه الفكرة، فهو ليس بمشهد عبثي وهو في كل ذلك قد بلغ القمة».[2]

لقد بلغ المشهد القرآني القمة في التصوير والابتكار في توليد الصور من الكلمات والحركات ومن كل ما يحيط بالشخصية وملابسات الحدث في القصة القرآنية.

2-الترغيب والترهيب:

من الخصائص الأسلوبية اللافتة في القرآن الكريم بصفة عامة وفي سورة الكهف بصفة خاصة: أسلوبا الترغيب والترهيب، ونعرف أن لكل منهما مواقفه وأغراضه الخاصة به التي يحققها.

وفي قصص سورة الكهف نجد الترغيب والترهيب صادرين عن الله سبحانه وتعالى أو عن شخصيات القصص في الحوار الذي يدور بينها، فالغرض من القصة ليس مجرد عرض الأحداث

[1] سورة الكهف، الآية: 45.

[2] محمد رواس قلعه جي، لغة القرآن لغة العرب المختارة، ص 76.

والمعطيات التاريخية لنقْل صورة عن الواقع، خاضعة في ذلك لقوانين الفن القصصي وقواعده، وإنما ترتبط القصة القرآنية بغرض أسمى وأكبر هو الدعوة إلى الله وتوجيه الناس وهدايتهم إلى الحق والإيمان.[1]

ولتحقيق هذه الهداية انتهج الله تعالى في قصصه عدة سبل ومسالك منها أسلوبا: الترغيب والترهيب.

أ- الترغيب والترهيب في قصص سورة الكهف:

لا شك في أن الترغيب يكون في شيء أو عمل محبّب وإيجابي ونتائجه تعود بالمنفعة على الفرد ومحيطه، والعكس بالنسبة إلى الترهيب فهو تخويف وتحذير من أمر مضرّ أو فيه كفر، ويترتب عليه ذنب.

ويمكن ضبط مفهوميهما بأنّ «الترغيب وعد يصحبه تحبيب وإغراء بمصلحة أو لذّة أو متعة آجلة مؤكّدة خيّرة خالصة من الشوائب، مقابل القيام بعمل صالح أو الامتناع عن لذة ضارة أو عمل سيء ابتغاء مرضاة الله، وذلك رحمة من الله لعباده، والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو دنب مما نهى الله عنه أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به».[2]

قد يبدو الترغيب والترهيب بمفهومين متضادين متعاكسين لكنهما يلتقيان عند نقطة تقاطع بينهما هي: الهدف المشترك المتمثل في تحقيق مصلحة وسعادة ومنفعة العبد في الدنيا والآخرة من وراء امتثاله لأوامر الله تعالى وانتهائه عن نواهيه.

ولا يخفى ما في هذين الأسلوبين من آثار نفسية مريحة للمسلم حين يشعر بالرضى وحسن العمل الذي يؤدي إلى رضى الله عنه، ناهيك عن أخذ العبرة من الخطإ والتوبة منه، وغالبا ما يتبع الترغيبَ جزاءٌ وثواب، وفي المقابل يتبع الترهيبَ إثمٌ وعقاب.

والترغيب والترهيب أسلوبان غالبان في القرآن الكريم، وفي حوارات سورة الكهف نجدهما موجّهين من الله تعالى إلى عباده، كما نجدهما في الحوارات المتبادلة بين مختلف الأطراف.

فمن آيات الترغيب قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾.

[1] ينظر: محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص ص 229، 230.

[2] عبد الرحمان النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، ط 25، دار الفكر، 1428 هـ/ 2007 م، ص ص 229، 230.

ففي هذه الآية الكريمة يأتي الجزاء بالرحمة والأمان مقابل الامتثال للترغيب في اللجوء إلى الكهف، ومن آيات الترهيب قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.[1]

يبدو هنا الحذر والتحذير فيما بين الفتية بعد خروجهم من الكهف «أن ينكشف أمرهم ويعرَف مخبؤهم فيأخذهم أصحاب السلطان في المدينة فيقتلوهم رجما–بوصفهم خارجين عن الدين لأنهم يعبدون إلها واحدا في المدينة المشركة–أو يفتنوهم عن عقيدتهم بالتعذيب... فما يفلح من يرتدّ عن الإيمان إلى الشرك، وإنها لَلخسارة الكبرى».[2]

فالترهيب هنا والتحذير من أمر إذا وقع كانت له عقوبة وخيمة، أو بالأحرى عقوبتان: أولاهما القتل من طرف أهل الشرك، والثانية: خسارة الدين والعقيدة وهي أكثر شيء يخافه الفتية.

ومن أمثلة وجود الترغيب والترهيب معا أو متتابعين ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.[3]

فالآية التاسعة والعشرون فيها ترهيب وتخويف من تبعات جريمة الكفر، والتي ذكر الله تعالى هنا أقساها وأكثرها ألما وهي النار في وصف مخيف يسعى من خلاله إلى الردع والزجر عن الكفر الذي يعدّ ظلما للنفس وللغير، وعادة «يُزجَر الناس شرعا من ارتكاب ما فيه الأذى والضرر بعدّة أنواع من

[1] سورة الكهف، الآيتان: 19، 20.

[2] سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ص 2264.

[3] سورة الكهف، الآيات: 29–31.

الزواجر–صيانة للمجتمع من الفساد والهتك، وتطهيرا للنفوس من الذنوب–وتتفاوت هذه الزواجر بتفاوت الجنايات من حيث الشدّة أو الأثر الذي تحدثه الجناية في المجتمع».[1]

ولا أشدّ على الكافر من عقوبة كالنار تشويه، ولا يجد فيها مخرجا ولا مهربا، ولا يملك مغيثا يخلّصه أو يخفف عنه، إلا ما يزيد من ضغطه وعذابه، وفي المقابل وبينما هؤلاء يلاقون العذاب نجد المؤمنين الذين عملوا الصالحات في جنات عدن ينعمون بالسعادة وجمال المنظر واعتدال النسيم.[2]

وقد تعاقب أسلوبا الترهيب والترغيب ليُعقَد نوع من المقارنة بين عقوبة الكفر وثواب الإيمان، وشتان في ذلك بين النار والجنة.

ب–الحكمة من اختتام سورة الكهف بأسلوبي الترغيب والترهيب:

مما يشدّ الانتباه ومما يدل على عناية القرآن الكريم بأسلوبي الترغيب والترهيب أن الله سبحانه وتعالى ختم بهما سورة الكهف –وإن لم يردا في سياق حواري– والأجمل من هذا كله أنه يكرّر ذكر مصير الكفار والمؤمنين من نار وجنة، تأكيدا على أهمية الامتثال لما يخدم الدين والفرد والمجتمع من أعمال صالحة وإيمان وعبادة، وفي المقابل ضرورة ترك كل ما من شأنه إبعاد العبد عن ربه، وبالتالي يبعد عن جنة خلده.

وليس التكرار والتأكيد سوى قرائنَ وآليات لتحقيق الإقناع الذي من مداخله «محاولة التغيير في البناء النفسي للفرد، بإثارة حاجياته أو دوافعه أو اتجاهاته، ومن ضمن الأنواع الشائعة في هذا المجال هو إثارة توقعات المتلقي بأن قيامه بسلوك معين سوف يجنبه أخطارا ما أو حرمانا أو يؤدي إلى فقدانه القبول الاجتماعي، حيث يركّز المحتوى في هذه الحالة على الأخطار أو النتائج غير المرغوبة إذا لم يستجب المتلقي لتوصيات الرسالة الإقناعية».[3]

ويمكن اعتبار الترغيب في الإيمان والعمل الصالح لنيل الجنة، والترهيب من الكفر والظلم لاتقاء النار رسالةً إلهية إقناعية، تهدف بالدرجة الأولى إلى تغيير سلوك فاسد وتقويمه لتصلح حال العبد المسلم ومن وراء صلاحه يصلح المجتمع.

---

[1] الحسين جرنو محمود جلو، أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم، ص 40.

[2] ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ص 2269.

[3] معتصم بابكر مصطفى، من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، ط 1، كتاب الأمة، سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ع 95، قطر، 1424 هـ/ 2003 م، ص 78.

وإذ نلاحظ هنا تداخل الأساليب بين ترغيب وترهيب مع آليات الإقناع للوصول إلى الجانب الخفي من الإنسان وخدمته وهو الجانب النفسي، فإننا نقف عاجزين أمام هذا التكامل الأسلوبي والروحي لمعاني القرآن الكريم ومضامينه.

وعموما يمكن إجمال ما سبق في أن أساليب القرآن الكريم منها ما تتوافر فيه عناصر الإقناع الفكري والعقلي، ومنها ما يتّجه إلى الترغيب وما ينتج عنه من تشويق وتعزيز إيجابي، ومنها ما يشتمل على الترهيب والتحذير مما يوجب العقاب أو ما يعرف بالتعزيز السلبي.[1]

وأيّا يكن الأسلوب أو الطريقة أو الآلية فإن الهدف واحد وهو رسم طريق قويم تسير عليه البشرية جمعاء، لتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة.

3-الحجاج والإقناع:

القرآن الكريم كلّه حجة الله التي تصدّى بها نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم للمشركين، وهو معجزته تبارك وتعالى اللغوية والعلمية والبيانية والقصصية والغيبية... والحجاج إنما يهدف إلى الإقناع وكثيرا ما يستهدف العقل والمنطق ليقع الإيمان والتصديق في النفس موقعا قويا ومتينا.

وكل هذا انطلاقا من أنّ الاسلام رسالة إلى الناس كافة وسيلتها الإعلامية هي القرآن الكريم بكل ما يحمله من مضامين ورسائل تؤثّر على مستقبِليها أيَّما تأثير، ذلك أن «القرآن الكريم يعتبر رسالة إقناعية خاطبت العقل البشري من خلال استراتيجيات محدّدة وأساليب إقناعية معروفة في عالم اليوم، وبهذا فإنه مثلما سبق القرآن الكريم الاكتشافات العلمية الحديثة بعشرات القرون، فهو أيضا يسبق مرتكزات النظرية الإعلامية بذات القدر».[2]

فالقرآن الكريم يعدّ وسيلة إعلامية حملت قصصا لأمم وأنبياء، كما حملت أخبارا وصورا وسيرا مختلفة، ونظريات ومعلومات علمية سابقة لهذا العصر، فهي إذًا حجج على صدقه وإعجازه ومصدره الإلهي.

فالحجاج في القرآن الكريم وُجد بأسسه وآلياته وأساليبه قبل أن يوجد في ثنايا البلاغة والخطابة، وقبل أن يدرّس بوصفه نظريةً «وضع أسسَها اللّغوي الفرنسي أزفالد ديكرو (O.Ducrot) منذ سنة 1973 نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم، وذلك

[1] ينظر: الحسين جرنو محمود جلو، أساليب التشويق والتعزيز، ص 158.

[2] معتصم بابكر مصطفى، من أساليب الإقناع في القرآن الكريم 'كتاب الأمة'، ص 77.

بقصد توجيه خطابه وجهة ما تمكّنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية، ثم إنها تنطلق من الفكرة الشائعة التي مؤدّاها: "أنّنا نتكلم عامة بقصد التأثير"، هذه النظرية تريد أن تبين أن اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفةً حجاجية».[1]

ولعل التأثير المقصود هنا هو الإقناع، أي إذْعان ذهن المتلقي لمضمون رسالة المتكلم، وهذا يتوقف على قوة الخطاب الحجاجي ومدى قبول الحجج المتضمّنة فيه.

أ-مفهوم الحجاج:

بناءً على ما سبق وموافقة له يمكن تعريف الحجاج على أنه «بذل الجهد لغاية الإقناع، إنه طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد إلى استمالة المتلقي إلى القضايا التي تُعرَض عليه أو إلى زيادة درجة تلك الاستمالة».[2]

ولا تحدث الاستمالة إلا باستهداف العقل أو العاطفة أو استهدافهما معا، كما رأينا ذلك في أساليب الترغيب والترهيب.

أما "بْرِلْمان" و"تيتيكاه" فقد عرّفا الحجاج عدة تعريفات أهمها قولهما: «موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرَض عليها من طروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم».[3]

من الواضح أن كل ما تقدّم من مفاهيم للحجاج يتقاطع بعضه مع بعض مع اختلاف طفيف في التحديد، وخدمةً لما نحن بصدده، نذكر تعريفا يلخّص مضمون وهدف الحجاج وهو ما جاء فيه أن الحجاج هو: «تقديم الحجج والأدلة المؤدّية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى يتمثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها هو بمثابة الحجج اللّغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها».[4]

---

[1] أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ط 1، الدار البيضاء ،2006، ص 114.

[2] حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، الحجاج حدود وتعاريف، ط1، عالم الكتب الحديث، اريد الاردن، ج 1، 1431هـ/ 2010م، ص 4.

[3] عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط 2، دار المعرفة للنشر، الجمهورية التونسية، 2007، ص 27.

[4] أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 16.

وفي هذا تأكيد على أنّ وسيلة الحجاج هي اللغة التي من وظائفها الوظيفة الحجاجية، وأن مضمون الخطاب الحجاجي هو مجموعة من الحجج تساق لبلوغ نتيجة محددة هي الإقناع والتسليم بمخرجات الخطاب.

وبما أن موضوعنا ينحصر في دائرة الحوار فإننا اتجهنا إلى تحديد مجال الدراسة في مجموع الحوارات الحجاجية في سورة الكهف أو بالأحرى في قصص سورة الكهف.

ب-آليات وأساليب الحوار الحجاجي في سورة الكهف:

1- الحجج والبراهين:

يستند القرآن الكريم في سرد القصص عموما وقصص سورة الكهف خصوصا إلى مادة واقعية حادثة في أزمان غابرة، وبما أنها أحداث واقعية فإنها حقيقية وهذا ما يبحث عنه الإنسان ويستوعبه عقله، والبداية في هذه السورة كانت بقصة أهل الكهف، وعلى الرغم من عجائبيتها والخوارق التي تطفح بها إلا أن المتلقي لا يملك من أمره إلا التسليم بها وتصديق ما جاء فيها، وذلك راجع إلى قوة الحجج والبراهين التي عرضها الله تعالى على رسوله والمسلمين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾[1] الذي يعقب مباشرة قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾،[2] المختوم بكلمة "عجبا" ليكون برهان العجب في شأن أهل الكهف أنهم أووا إلى ذلك الكهف، وناموا سنوات طوالا ثم استيقظوا وبعثوا بعد ذلك.

ثم يسوق الله سبحانه وتعالى حججا أخرى وبراهين لكنها تثبت قدرة الله تعالى وتدل على عظمته التي تجلّت في قصة أهل الكهف، فقد أحاطهم بعنايته الإلهية طول فترة نومهم، وبفضله لم يصبهم أذى في أجسادهم، بل كانوا نائمين ملء جفونهم «وهم في هيئتهم هذه يثيرون الرّعب في قلب من يطلع

[1] سورة الكهف، الآيات: 10-12.

[2] سورة الكهف، الآية : 9.

عليهم، إذ يراهم نياما كالأيقاظ، يتقلبون ولا يستيقظون وذلك من تدبير الله كي لا يعبث بهم عابث حتى يحين الوقت المعلوم».[1]

وهذا ممّا لا يدع للكفار مجالا لتكذيب هذه القصة لأنّ سردها مبنيّ على أحداث حقيقية واقعية يثبتها الله عزّ وجل بأسلوب أخّاذ يدعو إلى الخشوع والتعظيم، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾.[2]

ولعل من أقوى المواقف التي كانت فيها الحجج ضرورة ملحّة حتى يتضح الغموض وتهدأ النفس: ما كان في قصة سيدنا موسى والعبد الصالح الذي قام بتصرفات بدت لموسى عليه السلام غريبة أو غير صائبة، فاحتاج الخضر إلى تبريرها والبرهنة على صحة ما قام به بعدما نفد صبر سيدنا موسى، ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۡۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾.[3]

وعموما يمكن القول إنه لا يخلو خطاب ولا حوار ولا سرد قرآني من حجج دامغة وبراهين تثبت وتعزّز مكانة القرآن الذي ظهر في زمن كانت فيه اللّغة العربية حجةَ العرب وفنَّهم، فكان القرآن الكريم أقوى حجة تثبت وتعلن اعتلاءه عرش اللّغة وعدوله عن المألوف بين العرب من أساليبها.

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ص 2263.

[2] سورة الكهف، الآيتان: 17، 18.

[3] سورة الكهف، الآيات: 79-82.

2- استقراء تسلسل الأحداث:

في سرد قصص سورة الكهف تأتي الأحداث مرتبة، فلا يتقدم حدث على حدث جاء قبله؛ ففي قصة أهل الكهف تبدأ الأحداث من لجوء الفتية إلى الكهف مؤمنين بالله تعالى داعين إيّاه أن يؤتيهم رحمة ورشدا، فنومهم مدة ثلاثمائة وتسع سنين قضوها في كنف الله وحفظه، فلم تصبهم شمس ولا برد، ولم تتعفن أجسادهم، ثم بعثهم من جديد ليتوفاهم عز وجل بعد انكشاف أمرهم، «ونفهم أن أهل المدينة اليوم مؤمنون، فهم شديدو الحفاوة بالفتية المؤمنين بعد أن انكشف أمرهم بذهاب أحدهم لشراء الطعام، وعرف الناس أنه أحد الفتية الذين فرّوا بدينهم منذ عهد بعيد».[1]

وعودة الفتية إلى الظهور بعد هذه القرون الطويلة حجة في حد ذاتها على قدرة الله عز وجل وعظمته، وعلى صدق وعده ونصرته لعباده الصالحين والمؤمنين.

كما نجد التسلسل أيضا في باقي القصص: قصة صاحب الجنتين، وقصة سيدنا موسى مع العبد الصالح وفي الأخير قصة ذي القرنين، حيث لا يسبق حدث حدثا آخر، بل تأتي الأحداث مرتبة من بدايتها إلى احتدامها ثم نهايتها.

3- التأكيد والتعليل:

نجد التأكيد في كلام الله سبحانه وتعالى كما نجده في كلام البشر، كما يمكن ألا نجده، وهذا ما يعني أن استعمال هذا الأسلوب يكون في جملة ولا يكون في أخرى.

والتوكيد القرآني أيضا يكون بحسب الحاجة فهو «كلّه وحدة متكاملة منظور إليه نظرة شاملة، وقد روعيت في ذلك جميع مواطنه؛ فهو يؤكّد في موطن ما مراعيا موطنا آخر قَرُبَ أو بَعُدَ، فتدرك أنه أكّد في هذا الموطن لسبب اقتضى التوكيد، ولم يؤكّد في موطن آخر يبدو شبيها به لانعدام موجِبِه».[2]

والمؤكدات في اللغة العربية كثيرة ومتنوعة قد يُستخدم منها مؤكّد واحد وقد تكون الحاجة إلى أكثر من مؤكّد أو مؤكّدين، «فالكلام يدور بين احتمالات ثلاثة: خلو الذهن من الحكم، أو التردد في قبوله أو إنكاره كلّية، والصياغة تأخذ خواصها التركيبية في كل حالة باستخدام الأدوات اللغوية».[3]

---

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 4، ص 2264.

[2] فاضل صالح السمرائي، التعبير القرآني، ص 125.

[3] محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص 261.

وهذا ما يظهر في القرآن الكريم الذي يراعي المعنى وحاجة المقام إلى توكيد الكلام بدرجات مختلفة ومتفاوتة، ذلك أنّ «التوكيد وعدمه واضح في البيان القرآني، يحكمه السياق الذي وردت فيه الجملة القرآنية، ويراعى فيه حاجة السياق إلى نوع التوكيد، ويتم ذلك كلّه بالتوازن الدقيق المقصود».[1]

وأكثر توكيده سبحانه وتعالى في سورة الكهف بالأداة "إنّ" يعقبها تعليل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾[2] وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣﴾[3] وقوله أيضا: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝٢٠﴾.[4]

والأمثلة على استعمال "إنّ" كثيرة بالإضافة إلى "إنّما" كما جاء في الآية الأخيرة التي يقول فيها تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾[5] فقد ضمّنها على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تأكيدا على أنّه بشر أوحي إليه أن يدعو الناس كافة إلى توحيد الله وعدم الشرك به.

وتأتي في المقام الثاني نون التوكيد الثقيلة المتصلة بآخر الفعل المضارع المصحوبة بالتعليل، كما في قول الله عز وجلّ: ﴿...وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾.[6]

ففي هذا القول أمر باللام والفعل المضارع، عُطف عليه نهي مؤكّد بنون التوكيد الثقيلة، للتّشديد على ضرورة الحرص على عدم إشعار وإعلام أهل المدينة بأمر الفتية حتى لا ينالهم أي بطش أو عقاب، «وقوله "بكم" متعلق بـ "يشعرنّ"، فمدخول الباء هو المشعور أي المعلوم... والمراد بعض أحوالها، والتقدير: ولا يخبرنّ بوجودهم أحدا، فهنا مضاف محذوف دلّت عليه دلالة الاقتضاء فيشمل جميع أحوالهم من عددهم ومكانهم وغير ذلك، والنون لتوكيد النّهي تحذيرا من عواقبه المضمّنة في جملة: "إنهم إن

[1] صلاح عبد الفتاح، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ص 271.
[2] سورة الكهف، الآيتان: 7، 8.
[3] سورة الكهف، الآية: 13.
[4] سورة الكهف، الآية : 20.
[5] سورة الكهف، الآية : 110.
[6] سورة الكهف، من الآية: 19.

يظهروا عليكم يرجموكم" الواقعة تعليلا للنهي وبيانا لوجه توكيد النهي بالنون، فهي واقعة موقع العلة والبيان».[1]

والتعليل مع التأكيد يزيد قوة الخطاب من جانب المتكلم، ويزيد قوة التأثير على المتلقي وإقناعه بالرسالة.

وقد يكون التعليل بأكثر من مؤكّد واحد، كما في قصة صاحب الجنتين في قوله تعالى ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾[2] الذي جاء بعد عتاب صاحبه له على كفره وتذكيره بخلق الله له وبمراحل هذا الخلق، فقد «أكّد إثبات اعترافه بالخالق الواحد بمؤكّدات أربعة وهي: الجملتان الاسميتان وضمير الشأن في قوله: "لكنّا هو الله ربي" وتعريف المسند والمسند إليه في قوله: "الله ربي" المفيد قصر صفة ربوبية الله على نفس المتكلم قصرا إضافيا بالنسبة لمخاطَبه، أي دونك إذ تعبد آلهة غير الله، وما القصر إلا توكيد مضاعف، ثم بالتوكيد اللفظي للجملة بقوله: "ولا أشرك بربي أحدا"».[3]

ومما نجد فيه التأكيد بالمفعول المطلق ما جاء في الآيتين الكريمتين: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨ * وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ﴾[4] فقد ذكر الفعل "جمعناهم" ومصدره "جمعا"، والفعل "عرضنا" ومصدره "عرضا" من نفس لفظ الفعل تأكيدا له، وللوقوع على صفة معينة وثابتة كما أرادها الله سبحانه وتعالى.

4- التكرار:

بما أن التكرار من آليات التأكيد نفسه فإنه ولا شك يمكن إدراجه ضمن آليات الحجاج، فكما يوجد الإيجاز والحذف، يوجد في مقابلهما التكرار، وفيه زيادة في اللفظ بغرض زيادة في المعنى، والتكرار لإرادة التوكيد والإفهام وهو من مذاهب العرب في الكلام كما هو شأن الاختصار لإرادة التخفيف والإيجاز، وهذا

[1] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 266.
[2] سورة الكهف، الآية: 38.
[3] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 323.
[4] سورة الكهف، الآيتان: 99، 100.

من باب التنويع والتفنن في استخدام الأساليب، وخروج المتكلم أو الخطيب عن شيء إلى شيء حتى لا يقتصر على فن واحد أو طريقة واحدة.[1]

ونحن إذ نتعرض لهذا العنصر في هذا الموضع فإننا لا نقصد التكرار الذي معناه إعادة ذكر القصة نفسها أو الخبر نفسه في عدة سور أو مواضع من القرآن الكريم، كتكرار قصة سيدنا موسى مع فرعون مثلا أو تكرار قصة سيدنا آدم مع إبليس ... وإنما نقصد التكرار بوصفه عاملا لغويا يسهم في تأدية معنى التأكيد القائم على تحقيق غرض إقامة الحجّة والبينة على شخص أو عدة أشخاص بغرض إقناعهم.

ومثال التكرار في سورة الكهف ما ورد في قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح من تكرار عبارة: "إنك لن تستطيع معي صبرا" ثلاث مرات، وعبارة "ما لم تستطع عليه صبرا" مرتين مع حذف التاء من الفعل تستطع في المرة الثانية، وهو تكرار كما يبدو للعبارة نفسها وبالألفاظ عينها للتأكيد على عدم صبر موسى على صحبة الخضر واستحالة ذلك.

وهذا يتفق مع مفهوم التكرار المقصود كما ذكرنا سابقا أنه «إعادة اللفظ نفسه في سياق واحد ولمعنى واحد، فإذا لم يتوافر هذان الشرطان أي إذا لم يكن المُعاد اللفظ نفسه، أو إذا ذكر اللفظ أكثر من مرة ولكن لكل موضع سياقه الخاص ومعناه الخاص فإن ذلك لا نسميه تكرارا أبدا».[2]

نلاحظ أنّ هذا التعريف موافق تماما لتكرار العبارتين السابقتين كما يتفق مع تكرار عبارة " أتبع سببا" في قصة ذي القرنين ثلاث مرات في السياق نفسه وللغرض ذاته وبالمعنى عينه، وهو إتيانه قوة وسلطة من الله عز وجلّ، ومؤهلات تجعله قادرا على التغلب على أيّة أزمة.

وفي القصة نفسها نجد مضافا ومضافا إليه يتكرران مرتين: "وعد ربي" في آية واحدة وسياق واحد، حيث قال الله تعالى ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾.[3]

[1] ينظر: ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص 149.

[2] فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، ص 71.

[3] سورة الكهف، الآية: 98.

وقد تكرر لفظ الجلالة الله عدة مرات بلفظه أو مرادفه: "الرب" كما في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾.[1]

وهذا التكرار للتأكيد وتقوية المعنى أكثر وترسيخ فائدة الآية ومضمونها من ناحية، ومن ناحية أخرى «يحقق التماسك على مستوى الآية الواحدة، وأكثر من آية».[2]

كما نجد تكرار كلمة الكهف في أولى قصص السورة مساهما في تماسك أجزاء القصة نفسها، فكثرة ورود هذه الكلمة جعلت ذلك المكان الذي أوى إليه الفتية راسخا ومحوريا، حتى جُعل مضافا إلى أبطال القصة الذين تمحورت حولهم الأحداث وشاركوا فيها فسميت: "قصة أهل الكهف" وللتغليب سميت السورة كلها بسورة الكهف.

وعلى ذكر التماسك النصي، أو وظيفة التماسك التي يؤديها التكرار جاء تعريف هذه الظاهرة على أنها «إعادة ذكر لفظ أو جملة أو فقرة، وذلك باللفظ نفسه أو بالترادف وذلك لتحقيق أغراض كثيرة أهمها تحقيق التماسك النصي بين عناصر النص المتباعدة».[3]

وهذا ما وجدناه في قصص سورة الكهف، فهي لم تخل من تكرار لفظ أو جملة تكرارا تاما أو جزئيا باللفظ نفسه أو بمرادفه، وأيا كان نمط ذلك التكرار، فقد أدى وظيفة التأكيد من جهة ووظيفة الربط والتماسك النصي والدلالي من جهة أخرى، أي له وظيفة على مستوى المعنى، وأخرى على مستوى البناء نفسه.

وبما أننا بصدد دراسة الخاصية الحجاجية للسرد القرآني في قصص سورة الكهف، فإننا نقول إن التكرار من آليات الحجاج، فكلما كرّر المتكلم أو الخطيب كلمة أو عبارة دلّ على أنه يركّز عليها ويشدّ انتباه المتلقي إليها، فتُرسم في ذاكرته وتقع في نفسه موقع صدق وتصديق، وتحصل الغاية من رسالة الحجاج وهي الإقناع.

[1] سورة الكهف، الآيتان: 38، 39.

[2] صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، ج 2، ص 45.

[3] المصدر السابق، ص 20.

وعموما فإن القرآن الكريم بأكمله حجّة «وهو رسالة اتصالية صُمِّمت كأساس للإقناع من خلال الطرح الرباني المتكامل الذي لا تشوبه شائبة، أو ينقصه شيء، ونحن في القرن الحادي والعشرين علينا أن نستفيد من السياق الرباني لبعث الإسلام في نفوس المجتمعات المسلمة من جديد، وفي نشر دعوة الله إلى العالم كافة على أساس من الحجة والإقناع».[1]

نعم، هو حجة بتكامله من جميع نواحيه، وما ورد في قصصه عامة وقصص سورة الكهف خاصة ورد مقنعا رغم أنّه غيبي، والدليل على ذلك أن الأجيال تتلقاه عبر العصور بنفس درجة الإقناع لأنه نص معجز صالح لكل زمان ومكان.

فالمتلقي يشعر بأنّ هناك قوة وراءه وأخرى أمامه وثالثة تملؤه، ولا تكون النتيجة إلا إذعانه واقتناعه بما يتلقاه، مع ما يأخذه من عبر أو ما يتخذه من قدوات في حياته من وراء احتكاكه بهذا النص.

هذه القوة الضاغطة على الذهن والتي تتمثل فيها عملية الإقناع بمختلف آلياتها ووسائلها العقلية والمنطقية، كما تتمثل فيها عملية الإمتاع بتلوين الكلام ببعض اللمسات الوجدانية والمؤثرات العاطفية.[2]

ولا بدّ أن هذه القوة في النص القرآني نجدها مضاعفة لأنها في الحقيقة مجموعة من القوى اللغوية والإبداعية والإقناعية والبلاغية، بالإضافة إلى القوة النفسية التي يستمدّها المتلقي من القرآن الكريم على وجه العموم، لكنّه يعجز عن وصفها فيعترف غالبا بما يحققه له هذا النص المتفرّد من راحة نفسية.

[1] معتصم بابكر مصطفى، من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، ص 102.

[2] ينظر: محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ط 1، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، 1994، ص 235.

ثانيا: بلاغة الحوار في السورة:

1- الالتفات:

أ-مفهومه:

إن الدّارس أو المتمعن في النص القرآني الكريم يجد أنه يعجّ بالظواهر اللغوية والخصائص الأسلوبية المميّزة له لا في وجودها ومواضعها فحسب، وإنما في طرق توظيفها ونسجها على منوال خاص متفرّد ليس له نظير.

ومن بين هذه الظواهر نجد ظاهرة لغوية بلاغية كثيرةَ الورود والتردّد في سور القرآن الكريم هي الالتفات، وقد تعدّدت آياتها وتنوعت استعمالاتها واختلفت طرائقها من آية إلى أخرى.

والالتفات في اللغة هو الانصراف وجذره: لفت، يقال: «لفت وجهه عن القوم: صرفه والتفت التفاتا والتلفُّت أكثر منه. وتلفت إلى الشيء والتفت إليه: صرف وجهه إليه».[1]

فالالتفات هو تحويل وجهة الشخص من ناحية إلى أخرى ومن جهة إلى جهة مختلفة ويكون عادة بالرأس، «وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا».[2]

ومما يوافق هذا المعنى في القرآن الكريم قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾.[3]

فهنا معنى وَلَا يَلْتَفِتْ هو لا يغيّر اتجاه الرأس أو الوجه، وفي قوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾[4] عبارة لِتَلْفِتَنَا جاءت بمعنى: لتصرفنا عما نحن فيه.

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، م 2، ص 84.

[2] ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط 2، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مصر، م 2، ص 167.

[3] سورة هود، الآية: 81.

[4] سورة يونس، الآية: 78.

أما في الاصطلاح فالالتفات يرتبط في أبسط معانيه «بالتنقل في الكلام من صيغة إلى صيغة وبالتحوّل من أسلوب إلى أسلوب آخر»،[1] فهذا المفهوم يحمل مصطلحين يشبهان الالتفات في المعنى وهما: التحول والتنقل أو الانتقال، وهناك مصطلحات أخرى مشابهة كالانصراف والعدول.

وهو من الظواهر البلاغية المدروسة قديما والتي اتفق بعض علماء البلاغة على أنها تحويل الضمير من سياق أصلي كالغيبة مثلا إلى سياق مغاير كالتكلم أو الخطاب، وقد ورد هذا التعريف عند جمهور أهل البلاغة واللغة كالزمخشري والسكاكي والخطيب القزويني والزركشي والسيوطي.[2]

ومثاله قول الله تعالى في بداية قصة أهل الكهف: ﴿وَإِنَّا لَجَعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾.[3]

ففي الآية الثامنة كان الحديث بضمير المتكلم "نحن": "إنّا"، وفي الآية التّالية لها تحوّل الحديث إلى الخطاب: "أم حسبتَ".

وإذا كان توجّه هؤلاء البلاغيين منحصرا في التحول من ضمير إلى آخر بإحدى الطرق الثلاثة: التكلم والخطاب والغيبة، فإنّ مفهومه قد يتسع ليشمل كل تحوّل أو انكسار في نسق التعبير بحيث لا يُحدث تغييرا في المعنى أو البنية العميقة له، على حدّ اصطلاح التحويليين[4] بقيادة رومان جاكوبسون. وعليه قسّمه ابن الأثير إلى ثلاثة أقسام تكون الضمائر واحدا منها يضاف إليها التحوّل في صيغ الأفعال وأزمنتها وفي العدد إفرادا وتثنية وجمعا.[5]

ب-أنواعه:

الالتفات أسلوب يضاف إلى ما لا يعدّ من أسرار وجماليات النص القرآني العزيز وفنّياته ما ظهر منها وما بطن، وفيما يلي بعض أمثلته في سورة الكهف لبيان أنواعه في جداول توضيحية كما يلي:

---

[1] يوسف عبد العزيز الشبل، أسلوب الالتفات في القرآن الكريم، مجلة الدراسات القرآنية، مجلة علمية دورية محكمة تصدر عن الجمعية العلمية "تبيان" السعودية للقرآن الكريم، العدد: 2، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1429 هـ/ 2008 م، ص 135.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص 138.

[3] سورة الكهف، الآيتان : 8، 9.

[4] حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة العربية، دار الفكر، القاهرة، مصر، 1418 هـ/ 1998 م، ص 55.

[5] ينظر: ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، م 2، ص 167.

1- التفات الضمير:

الآية القرآنية الكريمة	نوع الالتفات	شرحه
﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣﴾.	من التكلّم إلى الغيبة.	ورد ضمير المتكلّم في قوله: "نحن نقصّ" ثم تحوّل إلى ضمير الغائب: "هم آمنوا".
﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ ...١٩﴾.	من الغيبة إلى التّكلم.	ورد ضمير الغائب "هو" في قوله: "من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"، ثم تحول إلى ضمير المتكلم "نحن" في قوله: "إنا أعتدنا".
﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧﴾.	من التكلّم إلى الخطاب إلى التكلّم.	ورد ضمير المتكلم "نحن" في الفعل "نسيّر" فتحوّل إلى ضمير المخاطَب "أنتَ" ثمّ إلى ضمير المتكلّم "نحن" في الفعل "حشرناهم".

جدول رقم (9) يوضح التفات الضمير.

2- التفات صيغ الفعل:

الآية القرآنية الكريمة	نوع الالتفات	شرحه
﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ ٣١﴾.	تحوّل صيغة الفعل من المبني للجهول إلى المعلوم.	محلّ الشاهد في الفعل "يُحلَّون" المبني للمجهول، والفعل "يلبَسون" المبني للمعلوم.
﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾.	تحول صيغة الفعل من الماضي إلى المضارع.	محلّ الشاهد في صيغة الفعل الماضي "أنفق" الذي تحوّل إلى صيغة المضارع "يقول".
﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا	تحوّل صيغة الفعل من	محلّ الشاهد في صيغة الفعل المضارع "نسيّر" الذي تحوّل إلى صيغة الماضي

﴿٤٧﴾.	المضارع إلى الماضي.	"حشرناهم".
﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾.	تحوّل صيغة الفعل من المضارع إلى الماضي.	محل الشاهد في صيغة الفعلين المضارعين "يقولون" و"لا يغادر" التي تحوّلت إلى الماضي في الفعل "وجدوا".

جدول رقم (10) يوضح التفات صيغ الفعل.

3- التفات العدد:

الآية القرآنية	نوع الالتفات	شرحه
﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾﴾.	من الجمع إلى الإفراد	ورد الجمع في قوله تعالى: "هؤلاء" "قومنا" "اتخذوا"... "يأتون"، ثم تحوّل الحديث عنهم إلى صيغة المفرد: "افترى".
﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾﴾.	من التثنية إلى الإفراد	ورد المثنى في قوله: "كلتا" "الجنتين"، ثم أخبر عنهما بالمفرد: "آتت" "أكلها".
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾.	من الجمع إلى الإفراد.	ورد الجمع في قوله: الذين آمنو وعملوا ثم تحوّل إلى المفرد: أحسن، فهؤلاء المؤمنون هم الذين يحسنون عملا.

جدول رقم (11) يوضح التفات العدد.

ت-فائدة الالتفات:

الالتفات ظاهرة بلاغية ولغوية وجدت في القرآن الكريم وزادت من جمال أساليبه، والمؤكّد أن استعمال الله تعالى لهذا العدول من أسلوب إلى أسلوب لم يكن «لتحقيق أغراض بلاغية ودلالية وأسلوبية فقط، بل لتحقيق -أيضا-غرض نفسي مؤثر لما تتطلبه صيغة هذا الفن من الانتقال من أسلوب إلى

أسلوب، وفي ذلك استجلاب للنفوس واستمالة للقلوب، فضلا عما يبثّه من لمحات مضيئة في "أدب الخطاب" و"أسلوب الحوار" حسبما يقتضيه مقام المتحدّث والمتلقي ومقتضى الحال».[1]

كما في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾[2] ففي هذه الآية الكريمة لدينا انتقال من صيغة الفعل الماضي في الفعلين: أصبح وأنفق مناسبة لما كان من حال الرجل في الماضي من غرور وتبذير إلى صيغة المضارع في الفعل: "يقول" مناسبة لمقتضى حاله في الحاضر وما أصبح عليه من حسرة وتمنّ لو أنه لم يشرك بالله أحدا، لئلا يلحقه ما ناله من عقاب في الدنيا.

ويرى ابن الأثير أن حصر أو تحديد فوائد الالتفات غير ممكن، فمن كل التفات يحدث أثر مختلف عن غيره، وفي كل موضع تحصل فائدة مغايرة لفائدة موضع آخر.

يقول في مثله السائر: «وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب غير أنها لا تحد بحدّ، ولا تضبط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها ليقاس عليها غيرها».[3]

وهذا ما يتفق مع دور السياق ومقتضى حال المتخاطبين والمقام الذي يحيط بهم في تحديد المعاني وتوجيهها.

والواضح في أمر هذه الظاهرة أن الانصراف أو الانتقال من ضمير إلى ضمير أو من صيغة فعل إلى صيغة أخرى لا يحدث تشنّجا لدى السامع ولا انقلابا في ذوقه وإنما ينعكس ذلك على النفس إيجابا «ليزيدها تنبها وإيقاظا أو هزا أو تحريكا، وأنه لا يكون إلا لفائدة اقتضته».[4]

فالكلام لما ينعطف قليلا وينتقل من صيغة إلى أخرى يحمل المتلقي على الوقوف عنده وتذوقه. فالالتفات من أسرار القرآن الكريم وهو أيضا له أسرار وفوائد تميزت بالرصانة والقوة والدقّة ووضوح الدلالة على إعجاز القرآن الكريم،[5] الذي نجزم في كل موضع نصل إليه في الدراسة أنّ كل حرف بل كل نقطة فيه تدل على إعجازه فما بالكم بهذه الظواهر المتميزة والمميزة له عن باقي أنماط الكلام.

فنحن نجد التنويع ولطافة التراكيب ومداعبة واستفزاز الفكر بالانتقال والعدول من ضمير إلى ضمير ومن صيغة إلى أخرى دون تحسيس المتلقي بأي نشاز أو خلل أو غرابة.

---

[1] طالب محمد إسماعيل الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، ص 161.

[2] سورة الكهف، الآية: 42.

[3] ابن الأثير، المثل السائر، م 2، ص 169.

[4] عثمان فوزي علي، مباحث في الإعجاز القرآني، ص 75.

[5] ينظر: يوسف بن عبد العزيز الشبل، أسلوب الالتفات في القرآن الكريم، ص 140.

2-الأمثال:

لقد أفاض القرآن الكريم في ضرب الأمثال وإعطاء الأمثلة للناس لتقديم الدروس والعبر المستخلصة من تجارب الآخرين وحوادث حياتهم، والأمثال موجودة بوجود الإنسان منذ العهود القديمة، لكن أمثال القرآن الكريم تعلو على غيرها لعلو مصدرها وشرف مقاصدها وأهدافها خاصة في القصص القرآني، فالقرآن الكريم من خلالها «يقدّم للإنسان قضايا الحياة على صورة نماذج، يشعر معها بالوضوح الذي يجسد الفكرة، ويجعلها مثلا حيّا أمامه فكانت القصة من أكثر الأساليب قدرة على تحقيق هذا الهدف، بما تتيحه للفكرة من عرض حيّ في إطار حركة الأشخاص بدلا من تجريدها».[1]

وأمثال القرآن كثيرة تعدّدت وتنوّعت أغراضها حسب سياقاتها والخلفيات التي بنيت عليها، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.[2]

والمثل من المماثلة أي المشابهة، يقال: «هذا مَثَل الشيء ومِثْله، كما يقال: شَبَه الشيء وشِبْهه».[3]

فضرب مثل ما في مقام ما قائم على شبَه بين مورده ومضربه.

والمثل له مجالان في الإصطلاح: مجال عام يخص ما جاء من أمثال في القرآن الكريم، ويطلق فيه المثل على كل أمر ذي شأن سواء أ كان هذا الأمر قصة أم خبرا أم صفة، ومجال خاص بالأدباء يطلَق فيه المثل على جملة أو قول قيل في قصة أو حادثة فجرى على ألسنة الناس وتناقلوه لسهولته.[4]

والمثل القرآني وخاصة في سورة الكهف ورد وصفيا قياسيا لتوضيح فكرة ما عن طريق التشبيه والتمثيل، ويسمّيه البلاغيون: التمثيل المركب بهدف تقريب المعقول المجرد من المحسوس، أو لغرض تأديب وتهذيب المتلقي.[5]

قال الله تعالى: ﴿* وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ

---

[1] محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص 231.

[2] سورة الكهف، الآية: 54.

[3] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص 269.

[4] ينظر: فضل حسن عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ج 2، ص 294.

[5] ينظر: ابن القيم الجوزية، الأمثال في القرآن الكريم، تحقيق: سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981 م، ص ص 19، 20.

قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾.[1]

ففي قصة هذين الرجلين يضرب الله مثلا ويقدّم عبرة في نهايتها، تمثلت في أن هذه الحياة الدنيا زائلة فانية كالهشيم تذروه الرياح.[2]

فالرجل الطيب المؤمن في مقابل الرجل الغني المتكبّر المعتز بماله وولده، ومثّل الحياة الدنيا كمثّل هشيم متطاير متلاشٍ، فهي غير دائمة وأمرها بين يدي الله سبحانه وتعالى، «ومثّل النّفس المتعالية المغرورة كمثّل صاحب الجنتين الذي دلّ على صاحبه بما بين يديه، ونسي في غمرة فرحه بما يملك أنّ لا قوة إلا بالله، وغاب عن باله إنْ هذا المال إلاّ عرض زائل، إذا شاء الله أفناه بحسبان أو أرسل عليه كسفا من السّماء، وإذا شاء حطّمه بريح أو بما يشاء».[3]

إن ضرب الأمثال في القرآن الكريم لا يمكن أن يكون محدودا بهدف معين أو مجموعة من الأهداف، وإنما نستنتج العبرة والغاية من مضمون المثّل المُعبَّر عنه بقصة، لنقيس عليها بعد ذلك ما يرد معنا من شؤون الحياة وحوادث الدّهر التي يعيشها الناس، فيجدونها ربما مشابهة لما يرد في القرآن الذي يقدّم لهم المواعظ والأمثال، «ويقرّب إلى حسهم معانيه الكبرى بوضعها في صور ومشاهد ومحسوسات ذات مقومات وخصائص وأشكال على مثال هذا المثال».[4]

من أجل هذا كانت الأمثال في القرآن ذات طابع تربوي وعظي تهذيبي، تحث على الخير والاقتداء بالشخصيات الخيّرة سواء أ كانت لأنبياء أم لغيرهم، «ومن أجل هذا أيضا تناولت الأمثال القرآنية

[1] سورة الكهف، الآيات: 32-48.

[2] ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، م 4، ص 2268.

[3] خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، منهجها وأسس بنائها، ص 30.

[4] سيد قطب، في ظلال القرآن، م 4، ص 2297.

مجالات عدة، فمثّلت الإيمان ومثلت بالكفر وفضحت النفاق وحضّت على الإنفاق، ونادت بالخير وندّدت بالشر وصوّرت الطيب والخبيث والصالح والطالح وغير ذلك مما أشادت به وأشارت إليه».[1]

ففي قصة صاحب الجنتين يتحاور الرجلان، أحدهما مؤمن فقير والآخر كافر غني، فيُظهر حوارهما صوت العقل والحكمة والإيمان في حديث المؤمن وفي المقابل يبدو الكافر الغني مغرورا بماله جازما بخلوده، لكنّ الله تبارك وتعالى صوّر في تحاورهما للإنسان «بأجلى بيان كيف ينفخ الشيطان في أنوف أصحاب المال ويطغيهم حتى يدهورهم في مهادي العدم، وكيف يعلو الإيمان بنفس صاحبه ويهبه أعظم العلم بالحياة، وتكاليفها والأمور وتصاريفها، فيجعله مؤيّدا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة، ويجعل له حسن العاقبة في الدّارين».[2]

لذا على الإنسان أن يحكّم عقله وضميره ولا يجعل نفسه عبدا للمال، وإنما عليه أن يجعل المال وسيلة مسخّرة في يده لفعل الخير والتغلب على مختلف ظروف ومشاكل الحياة.

3- الانزياح والمفارقة:

أ-الانزياح:

1- مفهومه:

يعدّ الانزياح المحطة الأهم من بين المحطات السابقة المدروسة في خصائص أسلوب الحوار القرآني في سورة الكهف، ولعله يلتقي مع الالتفات في معنى الانتقال والتحول، لكنه يختلف عنه، لأن المقصود من دراسة الانزياح هو ذلك الحاصل في المعنى وليس في الشكل وبنية اللغة في العبارة أو الآية الكريمة.

فالانزياح هو الابتعاد كما جاء في لسان العرب، «نَزَحَ الشّيءُ ينْزَحُ نَزْحًا ونُزُوحًا: بعُد... ونزحت الدار فهي تنزِح نزوحا إذا بعدت».[3]

والمعنى نفسه ورد لمادة (نزح) في القاموس المحيط[1] ومنه انزياح اللفظة أو العبارة -مبدئيا-هو ابتعادها عن المعنى الموضوعة له أصلا.

---

[1] محمود بن الشريف، الأمثال في القرآن، ط 2، دار عكاظ، الرياض، ص 8.

[2] المصدر نفسه، ص 87.

[3] ابن منظور، لسان العرب، م 2، ص 614.

وفي معجم اللسانيات يعرفه جون ديبوا على أنه «حدث أسلوبي ذو قيمة جمالية يصدر عن قرار للذات المتكلمة بفعل كلامي يبدو خارقا لإحدى قواعد الاستعمال التي تسمّى معيارا (Norme)».[2]

فأي خروج عن المتعارف عليه في اللغة يعد انزياحا، وأية معارضة للمألوف من اللغة في أصواتها وتراكيبها ودلالاتها تعدّ انزياحا نظرا إلى أن «الأسلوبيين يقسمون اللغة إلى مستويين:

– المستوى العادي: ويتجلى في هيمنة الوظيفة الإبداعية على أساليب الخطاب.

–المستوى الإبداعي: وهو الذي يخترق الاستعمال المألوف للغة، وينتهك صيغ الأساليب الجاهزة، ويهدف من خلال ذلك إلى شحن الخطاب بطاقات أسلوبية وجمالية تُحدث تأثيرا خاصا بالمتلقي».[3]

إن هذا الاختراق أو الانتهاك الذي يحدث في الفعل الكلامي ليس إلا انحرافا عن معيار تقعيدي نمطي، إلى نمط آخر أو صياغة مختلفة، فإذا كان النحو يرعى القاعدة والأداء المثالي للّغة، فإن البلاغة تدرس انتهاك هذه المثالية،[4] والعدول عنها في التعبير الفني الذي يتجاوز التعبير العادي وينحرف عنه، فالنحو «هو مجال القيود والأسلوبية مجال الحريات».[5]

من هنا تتأصل فكرة الانزياح وتتموقع في اللغة بين الاستعمال المثالي المعياري والاستعمال الفني الجمالي والإبداعي، وبين هذا وذاك تبرز هذه الظاهرة في اللغة العربية بوصفها مبحثا من المباحث الأسلوبية التي تهدف إلى بيان ودراسة أوجه التميز في أساليب اللغة الأدبية المستعملة، وصولا إلى لغة النص القرآني الكريم، الذي يعد في حدّ ذاته انزياحا شاملا وكليا ليس من الناحية الشكلية فحسب وإنما حتى من ناحية المضامين والدلالات والمعاني؛ ذلك أنه عدل عن طرائق العرب في التعبير من جهة، وباين كل الأنواع الأدبية الشائعة آنذاك من جهة أخرى خاصة الشعر كونه ديوان العرب في تلك الحقبة، حتى إن المشركين اتّهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعر لكنّ الله تعالى يدحض عنه هذا بالحجة الدامغة في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾.[6]

فالقرآن الكريم شكّل انقلابة كبرى في حياة العرب الأدبية واللغوية والفنية، وانزاح عن مفاهيمهم وقدراتهم في مجال الإيقاع والكلمات المفردة والتراكيب وما يعتورها من ظواهر كالتقديم والتأخير والحذف

---

[1] الفيروزابادي، القاموس المحيط، ص 244.

[2] جون ديبوا، معجم اللسانيات، ص 172، نقلا عن: يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ط 1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2008، ص 205.

[3] نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث، ج1، ص 198.

[4] ينظر: محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص 269.

[5] عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص 56.

[6] سورة يس، الآية: 69.

والتكرار... لكنّ ما يعنينا بالدراسة هنا هو الانزياح في المعنى أي انحراف التركيب عن معناه المتوقع من نظمه، ليدل على معنى آخر يُستدل عليه بقرينة أو علاقة ما.

2- انزياح المعنى في حوارات سورة الكهف:

في إطار الحديث عن المألوف وغير المألوف في اللغة يمكن اعتبار الحقيقة كلاما مألوفا والخروج عنها كلاما غير مألوف، وقد نال هذان المبحثان نصيبا كافيا من الدراسة والبحث لدى البلاغيين العرب، فالمعروف أنه في اللغة لا بدّ «أن يكون لكل دال مدلول واحد ولكل مدلول دال واحد، غير أنّ جدلية الاستعمال تُرضخ عناصر اللغة إلى تفاعل عضوي بموجبه تنزاح الألفاظ تبعا لسياقاتها في الاستعمال عن معانيها الوضعية فضلا عما تدخله القنوات البلاغية من مجازات ليست هي في منظور اللغوي إلا انحرافات عن المعاني الوضعية الأولى، وجملة ما ينتج عن ذلك أن أيّ دال في لغة ما لا بدّ أن تتعدّد مدلولاته من سياق إلى آخر».[1]

وانزياح اللفظ أو التركيب عن معناه لا يكون إلا ضمن نسيج لغوي تتفاعل فيه الدوال ومدلولاتها مع السياق المناسب لها، على أن الحقيقة «هي كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع وقوعا لا تستند فيه إلى غيره... ويحدون المجاز هكذا: كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضع لملاحظة بين الثاني والأول».[2]

فيسلِّم المتلقّي بأن الصّورة الذهنية للدّال ليست تلك الحقيقية وإنّما تجاوزت الحقيقة إلى المجاز أو الخيال.

- **المجاز:**

نجد العديد من المجازات في سورة الكهف بمختلف أنواعها: المرسلة والعقلية واللغوية، غير أننا سنعقد عنصرا خاصا بالاستعارة فيما بعد.

فإذا كان معنى الأسلوب ملخصا في مقدار ما فيه من انزياحات بمعدل أو متوسط معين، بها تقاس درجة الكثافة الشعرية المتمثلة في المجاز والصور الأخرى،[3] فإن القرآن الكريم يعدّ انزياحا نصيا ولغويا وبلاغيا كليا عن كافة النصوص وفنون الكلام السائدة عند العرب قبل نزوله، لكن في المقابل يمكن التنويه بعدد من الانزياحات الجزئية أي الواردة في سورة الكهف متمثلة في بعض المجازات المرسلة، منها قوله تعالى:

---

[1] عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص 58.

[2] السكاكي، مفتاح العلوم، ص 361.

[3] ينظر: بشرى موسى صالح، نظرية التلقي أصول وتطبيقات، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2001، ص 117.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾.[1] فالمجاز واقع في كلمة: كَلِمَةً التي عبر بها الله سبحانه وتعالى عن خطاب المشركين المتضمن كفرهم وشركهم بالله قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا، وفي هذا يقول الزمخشري: «فإن قلتَ: إلام يرجع الضمير في "كبرت" قلتُ: إلى قولهم ﴿اتخذ الله ولدا﴾ وسميت "كلمة" كما يسمّون القصيدة بها».[2] معنى هذا أن الله تعالى استعمل الجزء (كلمة) وأراد به الكلّ (عبارة الكفر كاملة)، وهذا مجاز مرسل علاقته الجزئية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۝١٨﴾.[3]

يعرض الله جلّ وعلا مشهدا واقعيا عن الفتية الذين طالت مدة نومهم في كنف الله ورعايته، والذين صار منظرهم مخيفا للرائي، فعبّر عنه سبحانه وتعالى بلفظ الامتلاء، وهنا المقصود هو امتلاء القلب أي الجزء من الإنسان وليس الإنسان كاملا، فعلاقة المجاز كلية أريد بها الجزء فقط، «ورعبا: بالتخفيف والتثقيل وهو الخوف الذي يرعب الصدر أي يملؤه وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة».[4]

وهذا تأكيد على أن المُراد هو الجزء الذي يشعر بالخوف وهو الصدر أو القلب وليس الجسم كاملا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾[5] تنزاح كلمة ٱلْقُرَىٰٓ لتدلّ على أهل القرى، والمراد من المعنى هنا هو: وتلك القرى أهلها أهلكناهم، فذُكر المكان وأريد به من يقطن به، « أي تلك هي أخبار الأمم السالفة والقرون الخالية كقوم هود وصالح ولوط وشعيب أهلكناهم حين ظلموا».[6]

---

[1] سورة الكهف، الآيتان: 4، 5.

[2] الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 612.

[3] سورة الكهف، الآية: 18.

[4] الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 614.

[5] سورة الكهف، الآية: 59.

[6] محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ج 2، ص 181.

هذه الانزياحات ذائبة في ثنايا النص يكاد المتلقي لا يشعر بها إلا بعد التدبّر والتمعن لأنها غير مصطنعة بل تلقائية، يمازج الله بها التعابير والوقائع الحقيقية، وهذا هو الإعجاز نفسه: أن يصبح الذوق متعوّدا على الجمال والبريق الذي يراه ويتلمسه ويستشعره في كل مكان وعند كل كلمة، دون الحاجة إلى تفسيره أو سبر أغواره، وإنما يكفي أنه نص جميل ذو أسلوب أصيل لم يسبقه إلى هذا الرونق نص، ويستحيل أن يضاهيه أو يشابهه نص آخر من النصوص البشرية.

وفي قوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾[1] إسناد كامل: "كلتا الجنتين آتت أكلها"، وهو مجاز عقلي أسند فيه الفعل إلى غير فاعله الحقيقي، لكننا بالعقل ندرك أن الفاعل المقصود هو الأشجار في حين الفاعل المجازي هو الجنتان، فيكون بهذا المجاز العقلي هو «الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه، لضرب من التأويل إفادة للخلاف لا بوساطة وضع كقولك: أنبت الربيع البقل، وشفى الطبيب المريض، وكسا الخليفة الكعبة وهزم الأمير الجند، وبنى الوزير القصر...».[2]

والظاهرة المجازية نفسها تبدو في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ﴾ وكأنّ الجنتين قد أثمرتا فمنحتا صاحبهما ما كان ينتظره من خيرات، كونه يعتبره حقا له، فإذا لم تأتيا أكلهما على هيئة ما يريد فكأنّهما تحرمانه ذلك الحق، فاستعير الظلم لإقلال الإغلال واستعير نفيه للوفاء بحق الإثمار.[3]

وفي هذا الموضع الثاني أجرينا المجاز مجرى المجاز العقلي قياسا على المجاز في الموضع الأول.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾.[4] فقوله تعالى: ضَلَّ سَعْيُهُمْ بمعنى ضاع وبطل عملهم،[5] وإنما الضلال للإنسان الذي يعمل سوءا فيقال عنه: "ضال"، والسعي أيضا من صفات العباد لذلك الضلال للعبد المسيء «لأنّ الكفر لا تنفع معه طاعة».[6]

---

[1] سورة الكهف، الآية: 33.

[2] السكاكي، مفتاح العلوم، ص 393.

[3] ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 318.

[4] سورة الكهف، الآيتان: 103، 104.

[5] الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 632.

[6] محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج 2، ص 189.

من خلال الأساليب القرآنية السابقة نرى تجسيدا لقاعدة الخروج عن المألوف والعادي إلى غير المألوف واللاعادي، لكن المميز في الأمر أن هذا النص القرآني سابق بقرون لهذه الدراسات التي تتناول مفاهيمه وعناصره الإعجازية، وبهذا نرى استعمال الدوال لغير مدلولاتها وبالتالي كسر المعيار في استعمال اللغة، وبهذا فإنّ «الانزياح يعدم الوظيفة المرجعية للدوال ويحدث في المتلقي خيبة انتظار وقد عبّر "ريفاتير" عن ذلك بالمفاجأة».[1]

فيمتنع بهذا قصد المتكلم المعنى المباشرَ والحقيقي للخطاب، وفي المقابل يكرّس الأسلوب الفنّي واللغة المتعالية عن الواقع، فالمجاز «يتميز بخاصية انزلاق الإشارة بالتجاور السياقي فمن الطبيعي أن يعتمد تأثيره الأسلوبي على هذا الانزلاق ويمضي في اتجاهه، وبينما لا يقوى انزلاق إشاري واحد على أن يحدث سوى انطباع يسير لا يكاد المتلقي يشعر به فإن تتابع هذه الانزلاقات ووقوعها في نفس الاتجاه لا بدّ أن يحدث حركة تؤدي بدورها إلى وسم النص من خلال الكتابة المجازية بسمة خاصة مميزة في رؤية الواقع».[2]

ومن الطبيعي أن يأخذ التعبير منحى مختلفا عن التعبير العادي المباشر، ويصبح سمة أسلوبية في الخطاب القرآني، ينفرد ببعض تراكيبه المجازية التي تتألف من لغة مألوفة لكن الطريقة غير مألوفة، فالفعل اللغوي موجود والكيف معجز والخوض فيه مجرد مغامرة.

فالقيمة الأسلوبية للمجاز تكمن في «أنه يكمّل الوظيفة الإشاري العادية للغة في نفس الوقت الذي يبرز فيه الجوهر الشكلي للرسالة، مضيفا إلى تسمية الواقع الموصوف بيانا عن الشكل الخاص الذي يتصوّر به المتحدّث هذا الواقع؛ أي أن المجاز المرسل يعبّر عن طريقة رؤية الأشياء والإحساس بها فهو لا يبدأ [إذن] بالعملية اللغوية بل يسبقها ويكيّفها».[3]

فأثر المجاز يكمن في سمته الانزياحية ودلالته على القصد، لكن بكلمة أو إسناد يتخلّله انزلاق أي انحراف وخروج عن الطبيعة والمألوف.

-الاستعارة:

تكثر الاستعارة في الأسلوب القرآني كونها مظهرا أسلوبيا يبرز جمالية اللغة إلى جانب تعبيرها عن المعنى المراد بطريقة فنية، والاستعارة هي «أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدّعيا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به كما تقول في

[1] نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص 200.

[2] صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص 300.

[3] المصدر نفسه، ص 295.

الحمام: أسد وأنت تريد به الشجاع مدّعيا أنه من جنس الأسود، فتثبت للشجاع ما يخص المشبه به».[1] فالشّجاعة حقيقة مثبتة للرجل لكنّ التعبير عنها كان تعبيرا غير مباشر فيه شيء من الخيال، وبهذا يزداد الخطاب علوّا عن الواقع، ويزداد تفاعل وتأثر المتلقي بما يتلقّاه، في سياق مناسب ومقام ملائم، «فالوظيفة الإشارية التي تحيل إلى السياق وإلى الواقع الخارجي للمرسل والمرسَل إليه تخف وطأتها عندما تتجاوز التعبير المباشر إلى التعبير الاستعاري».[2]

فالاستعارة من حيث الوظيفة تلعب دورا تصويريا في الذهن بحيث ترتبط دلالة الدال بما يوحي إليه من صور ذهنية عن الواقع لكن عبر قناة الخيال، لذا تدخل في دائرة المجاز «وإنما الفرق أن المجاز أعمّ من حيث أن كلّ استعارة مجاز وليس كل مجاز استعارة».[3]

كما أن الفرق يكمن في العلاقات الموجودة في كل نوع، ففي الاستعارة العلاقة واضحة وهي التشبيه، بينما في المجاز تتعدّد العلاقات حسب اللفظ الذي وقع فيه، غير أنه «يمكن التسليم بحظوة الاستعارة وتربعها على عرش فنون البيان دراسة وتمحيصا آخذة حيزا كبيرا قديما وحديثا، ومرد هذا الاهتمام ما لها من أهمية في عملية الإبداع والخلق».[4]

ومن جهة أخرى تساهم الاستعارة في تشكيل الصورة ليست فقط المتخيلة في ذهن المتلقي وإنما أيضا تلك التي تتعلق بتعانق المفردات وتجاورها رغم التباعد الذي بينها.

- **من استعارات سورة الكهف:**

وردت الاستعارة في سورة الكهف ضمن ما ورد فيها من أسرار وفنون البيان اللغوي والبلاغي، ليضاف إلى سحر كلام الله سحر آخر، وإلى استحواذه على الأساليب الفنية المتميزة خصائصُ أسلوبية لا توجد في غيره، لتنعم بإعجازه وفرادته دون سواه.

ففي قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜۚ ١ ﴾[5] فالشاهد في هذه الآية موجود في كلمة عِوَجَاۜ التي ذكرها الله تعالى في معرض الحديث عن القرآن الكريم لينفي عنه أي انحراف أو خطإ أو اعوجاج، «والعوج–بكسر العين وفتحها وبفتح الواو–حقيقته: انحراف جسم ما عن

[1] السكاكي، مفتاح العلوم، ص 369.

[2] المصدر نفسه، ص 307.

[3] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 462.

[4] رضا بن صفية، عباس بن يحيى، تلقي الصولي والآمدي للاستعارة عند أبي تمام من خلال أفق التوقع، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد: 06، العدد: 02، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2022، ص 329.

[5] سورة الكهف، الآية: 1.

الشكل المستقيم، فهو ضد الاستقامة، ويطلق مجازا على الانحراف عن الصواب والمعاني المقبولة المستحسنة...».[1]

فقد استعيرت كلمة "عوجا" هنا للدلالة على انتفاء الغلط واللغط عن كلام الله تعالى، الذي شُبه بالشيء المادي المجسم الذي يمكن أن يبدو عليه الاعوجاج، في حين هو عبارة عن معان ورسائل يدركها الإنسان بقلبه وعقله وعواطفه وكل ما يتعلق بالنفس ودواخلها.

وفي قوله تعالى: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾[2] يذكّر الله تعالى عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويبشّرهم بأجر كبير يمكثون فيه لا يغادرونه، والمعروف أن المكوث يكون في الأماكن، لذا فقد شُبه الأجر بالمكان واستعيرت كلمة ﴿مَّاكِثِينَ﴾ للدلالة على دوام واستقرار حال المؤمنين السعيدة، ومنه فإن «المكث: الاستقرارُ في المكان، شبه ما لهم من اللذات والملائمات بالظرف الذي يستقر فيه حاله للدلالة على أنّ الأجر الحسن كالمحيط بهم لا يفارقهم طرفة عين».[3]

فقد يكون مستبعدا في العقل البشري أن يجعل علاقة مشابهة تجسّد المعنوي في صورة المادي بهذه الطريقة الفريدة من نوعها، حتى لكأن هذه اللغة التي برع فيها جهابذة العرب، قد طرأ فيها تغيير في الاستعمال والخطاب وحتى في استعارة كلمة مكان أخرى.

أما في قول الله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ۝١٤﴾[4] فنص الشاهد هنا في قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ إنما يُربط الشيء المادي لتثبيته أو منع إفلاته، فشُبه ربط القلب بالإيمان بربط الشيء المحسوس بالحبل، فهنا «الربط على القلب مستعار إلى تثبيت الإيمان وعدم التردّد فيه، فلمّا شاع إطلاق القلب على الاعتقاد استعير الربط عليه للتثبيت على عقده».[5]

---

[1] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 247.

[2] سورة الكهف، الآيتان: 2، 3.

[3] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 250.

[4] سورة الكهف، الآية: 14.

[5] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 272.

والربط فيه قوة وحزم، والله تعالى منح أولئك الفتية القوة بالصبر على هجر الأوطان والدنيا، والفرار بالدين إلى ذلك الكهف.[1]

وفي موضع آخر يقول الله سبحانه: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾[2] فهذه الآية الكريمة تنطق ببلاغة وحكمة هذا النظم المعجز الذي جعل للجدار إرادة وهو جماد لا حول له ولا قوة، لا يتحرك ولا يرى ولا يسمع، وهذا ما يحرّك الصورة الذهنية للجدار لدى المتلقي «لأن الإرادة من صفات العقلاء وإسنادها إلى الجدار من لطيف الاستعارة وبليغ المجاز».[3]

فمثل هذه الاستعارة تشغل الذهن وتلهم النفس وتبرهن أكثر على أن الاستعارات القرآنية مبنية بناء خاصا بحيث لا يصيبها الابتذال؛ فهي مستمرة ومتجدّدة في كل عصر لأن الله تعالى اعتمد فيها على حقائق وثوابت كونية وطبيعية وبيولوجية لا يمكن تغييرها عبر الزمن،[4] وهذا لكون هذا النص القرآني الكريم صالحا لكل زمان ومكان.

وفي قول الله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩﴾[5] يتحدّد وجه الاستعارة في قوله تعالى: بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ فقد استعار كلمة يَمُوجُ و«شبّههم لكثرتهم وتداخل بعضهم في بعضهم بموج البحر المتلاطم»،[6] ولا يخفى ما في هذه الصورة من دلالات على الاضطراب والتدافع والفوضى لكثرة العدد، فتتراءى تلك الجموع لمتخيّل المتلقّي في مشهد حي حركته كحركة الأمواج مدّا وجزرا، علوا وانخفاضا، لتكتسب قدرة على الإقناع والإلهام بالإبداع في آن واحد، وبالإضافة إلى ذلك فإن «الاستعارة تحقّق عامل الاقتصاد اللّغوي بما تتيح من صياغة مركزة لعناصر الدلالة المتعلّقة بالمعنى العادي لكلمة معينة، وتحقّق تلاؤمه مع المعنى الجديد الذي يفرضه السياق، والاختيار الذي يتم بين عناصر هذه الدلالة يجعل الاستعارة وسيلة لتخفّف القول من بعض العناصر غير الضرورية».[7]

---

[1] ينظر: الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 614.

[2] سورة الكهف، الآية: 77.

[3] محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج 2، ص 184.

[4] ينظر: عطية سليمان أحمد، الاستعارة القرآنية في ضوء النظرية العرفانية، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، 2014، ص 140.

[5] سورة الكهف، الآية: 99.

[6] محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج 2، ص 191.

[7] صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص 303.

وما الاقتصاد اللغوي في الكلام سوى إيجازه وتكثيف دلالاته، وهذا من آثار الانزياح في النص القرآني ومن أوجه إعجازه.

-الكناية في سورة الكهف:

إذا كان المجاز والاستعارة شكلين من أشكال الانزياح يعتمدان على العلاقات بين اللفظ المنزاح وبقية الألفاظ في نسق خطابي معين يحكمه سياق وملابسات معينة، فإن الكناية تنتفي فيها القرائن اللغوية والعلاقات الإشارية، لتدل على معنى غير مباشر كامن وراء العبارة أو الخطاب.

وإذا كان المجاز ينافي إرادة الحقيقة فإن الكناية لا تنافي ذلك، فلا يمتنع في قولك: طويل النجاد أن تقصد طول القامة حقا من غير ارتكاب تأويل لهذا المعنى فلا يراد غيره.[1]

وتعرّف الكناية على أنها «ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك».[2]

فالتكنية في الكلام هي التلميح وعدم التصريح بالمعنى المباشر، ونقل المقصود والمراد بطريقة غير مباشرة ومثاله قول الله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾.[3]

ففي هذه الآية الكريمة كنّى الله سبحانه وتعالى عن إنامة الفتية مدة طويلة وذلك بتعطيل حاسة السمع «لأن النوم الثقيل يستلزم عدم السمع، لأن السمع السليم لا يحجبه إلا النوم... وهذه الكناية من خصائص القرآن لم تكن معروفة قبل هذه الآية وهي من الإعجاز».[4]

فالمعنى حاصل لكن بالتلميح دون التصريح، وبربط المعنوي الخفي بالمادي الملموس من خلال وضع الغشاوة أو الحجاب على الآذان للدلالة على النوم العميق والطويل.

وبهذا فقد أحدث القرآن هذا الجزء من التغيير والتجديد عن طريق التعبير الكنائي ليس على مستوى اللغة فحسب وإنما على مستوى بنية النسق التصوري للمتلقي وربطه بتجاربه ونشاطاته اليومية حتى تكتمل الصورة الذهنية المجردة اعتمادا على ما يوجد في الواقع.[5]

وفي قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا

[1] السكاكي، مفتاح العلوم، ص 403.

[2] المصدر نفسه، ص 402.

[3] سورة الكهف، الآية: 11.

[4] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 268.

[5] ينظر: عطية سليمان أحمد، الاستعارة القرآنية في ضوء النظرية العرفانية، ص 140.

﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢﴾[1] موقع الشاهد على الكناية في قوله تعالى: وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا الذي يحاور به رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، بعد الحديث عن الفتيةِ الذين ناموا في الكهف وعددِهم غير المحدّد، فينهاه عن سؤال المشركين بشأن هذا الأمر سؤال متعنّت ولا سؤال مسترشد، لأن الله تعالى أوحى إليه بقصتهم،[2] لذلك لا حاجة به للسؤال أو الاستفتاء، «والمراد من النهي عن استفتائهم الكناية عن جهلهم بأمر أهل الكهف، فضمير "منهم" عائد على ما عاد إليه ضمير "سيقولون ثلاثة" وهم أهل مكة الذين سألوا عن أمر أهل الكهف».[3]

لقد آثر الله سبحانه وتعالى التلميح لنبيّه الكريم عن طريق النهي بعلمه –صلى الله عليه وسلم– بالقصة من وحيه تعالى، وبجهل المكّيين بها.

أمّا في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾[4] فانزياح المعنى بالكناية واقع في قوله تعالى: يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ، وهذه الحركة علامة ودليل على الندم والحسرة، وجمالية هذه الكناية تكمن في اقترانها بالحقيقة، فهذا الشعور بالحسرة كثيرا ما نراه مصحوبا بتقليب اليدين والتصفيق بهما أحيانا، ومنه فهذه الكناية لا تستفز متخيَّل المتلقي بل «يمكننا تصوّر كل هذه الأشياء معتمدين على ثقافتنا وتجاربنا وإدراكنا وطبيعتنا النفسية».[5]

وبناءً عليه يمكن القول إن القرآن الكريم ليس حياة للروح والعقل والنفس فحسب وإنما هو حياة للغة والأساليب، التي ظلت منذ قرون مصدر إلهام للعرب ولغيرهم نظرا إلى مجاورتها وملامستها للحياة بمختلف جوانبها وبأدقّ تفاصيلها.

ومجمل القول فيما سبق من أشكال الانزياح القرآني في المعنى أن المعنى نفسه في النص القرآني بيّن وبليغ إن كان مباشرا أو غير مباشر، فنجد أنّ «الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأنّ للاستعارة مزية وفضلا، وأنّ المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة».[6]

---

[1] سورة الكهف، الآية: 22.

[2] ينظر: الزمخشري، تفسير الكشاف، ص 617.

[3] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 294.

[4] سورة الكهف، الآية: 42.

[5] عطية سليمان أحمد، الاستعارة القرآنية في ضوء النظرية العرفانية، ص 140.

[6] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 70.

فلا نرى ألفاظه إلاّ وهي تسابق معانيه، ولكنّ المعاني تحصل وتقع في النفس مؤثّرة فيها قبل تمام البناء اللغوي اللفظي، في اتساق وارتباط وانسجام معجز يوازن بين المنطق والوجدان، بين الحقيقة والخيال وبين المألوف وغير المألوف.

وكل هذا التلوين الأسلوبي جاء وطرأ على بيئة أدبية أكثر ما تحفَل به هو الأسلوب وألوان البيان، وإن دراسة الأساليب مثلما تكون لغوية تكون أيضا نفسية واجتماعية لا فصل فيها بين المبدع والمادة الإبداعية، ولا مناص من تأكيد دور المتلقي الذي يتفاعل مع النص بإحساسه، هذا الإحساس الذي يصب المبدع عليه اهتمامه ليجعل هذا المتلقي حاضرا في التجربة وإن لم يعشها.[1]

فكيف الحال والمبدع هو الله سبحانه وتعالى؟ والإبداع هو القرآن الكريم، الذي وضع كل شيء موضعه، وجعل لكل لفظ قيمته ولكلّ تركيب إشعاعه، وحتى الانزياح والانحراف عن المعنى لأداء المعنى نفسه الذي أراد الله سبحانه وتعالى تبليغه بالانحراف عنه، كل هذا كان لهدف آنيّ في حقبة الرسول صلى الله وسلم، لكنه استمر إلى يومنا متجدّدا بتجدّد الزمن، فالأثر ثابت والإنسان بتحولاته وثقافته ودرجات استيعابه هو المتغير.

ب-المفارقة:

1-مفهومها:

من الصعب تحديد مفهوم واحد ومضبوط للمفارقة، وذلك لاتساعها وتعدّد ميادينها، فهي تتضمن التناقض والتضاد لكن ليس على مستوى اللفظ والمعنى فحسب وإنما أيضا على مستوى السياق والموقف.

وقد وجدت المفارقة في دراسات علماء الغرب الذين جعلوا من مبادئها التناقض، مثل شليجل الذي «عدّ التضاد أو ما سمّاه بالنقيضة الأمر الأساسي لوجود أي مفارقة، أما هاينز فرأى أهمية تعدّد القراءات واعتبر تجاور المتنافرات أمرا لا بدّ منه، فالحياة مبنية على التنوع والتعدّد، وهذا ما وافق رؤية رودوي الذي يؤمن بازدواجية المعنى للنص الواحد».[2]

مبدئيا نلاحظ أن وجود تعاكس في المعنى بين الألفاظ من المفارقة، لكن من الناحية الأدبية والفنية ليست بهذه البساطة، «إنما المفارقة لعبة لغوية ماهرة وذكية بين طرفين: صانع المفارقة وقارئها، على نحو يقدّم فيه صانع المفارقة النص بطريقة تستثير القارئ وتدعوه إلى رفضه بمعناه الحرفي، وذلك لصالح

[1] ينظر: محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص ص 234، 235.

[2] رنا أحمد عبد الحليم، جماليات المفارقة في القصص القرآني، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، 2015، ص ص 20، 21.

المعنى الخفي الذي غالبا ما يكون المعنى الضدّ وهو في أثناء ذلك يجعل اللغة يرتطم بعضها ببعض، بحيث لا يهدأ للقارئ بال إلا بعد أن يصل إلى المعنى الذي يرتضيه ليستقرّ عنده».[1]

وبما أن النص ليس حكرا على صاحبه فإن المتلقي يجتهد في الحصول على المعاني التي قد لا يجدها مباشرة، مما يتطلّب مشاركة ذهنية ونفسية منه حتى يجدها، فكيف الأمر لو كان المبدع هو الخالق عز وجلّ؟ ذلك أنّ المفارقة يمكن أن تدلّ على شيء دون أن تذكره بلفظه، ومن المعروف أن التلميح كثيرا ما يكون أقوى وأعمق تأثيرا من التصريح، وفي كلّ هذا يجب على القارئ أن يلتقط المعنى المراد، لذلك لا بدّ أن يكون قارئا متوقّدا متمكّنا من آليات الكشف عن جماليات النص ونقاطه المشرقة،[2] فمن جماليات المفارقة قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٢٩﴾.[3]

فظاهر الآية غير باطنها، ومظهرها يبدي نوعا من الحرية المتروكة للإنسان بشأن عقيدته، ورغم التضاد اللفظي بين معنيي "يؤمن ويكفر" إلا أن المفارقة الحقيقية تكمن في أنّ الله تعالى في الحقيقة يريد لعباده الإيمان لا الكفر لكنه لمّح لذلك بل قيّد إرادة الإنسان في خيار الإيمان لأنه خير له من الكفر، من خلال ذكر عقوبته المتمثلة في النار التي لا مخرج ولا مفر ولا مغيث منها يوم يصل وعد الله وينال كلٌّ جزاءَه.

وفي قول الله عز وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذٗا أَبَدٗا ٢٠﴾.[4]

---

[1] نبيلة إبراهيم، المفارقة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، المجلد 7، العددان: 3، 4، 1987، ص 132.

[2] ينظر: عاشور توامة، جمالية المفارقة اللفظية في القصص القرآني، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد 7، ع 2، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2023، ص 699.

[3] سورة الكهف، الآية: 29.

[4] سورة الكهف، الآيتان: 19، 20.

نجد المفارقة الأولى في عدم علم أو إحساس الفتية بمدّة نومهم رغم طولها، بل العجيب هو جواب أحدهم بأنهم لبثوا يوما أو بعض يوم، بينما تجاوز مكوثهم في الكهف ثلاثمائة سنة، والمفارقة الثانية تمثلت في الحالة التي صارت عليها المدينة بعد بعثهم، فهي مناقضة لما كانت عليه قبل فرارهم بدينهم إلى الكهف.

2- عناصر المفارقة:

للمفارقة ثلاثة عناصر أو أقطاب أساسية يجب توفرها في السرد أو القصة موضوع الدراسة، تتمثل في المبدع وإبداعه والمتلقي الذي يتفاعل معه، وبمعنى أدقّ «**صانع المفارقة** وغالبا ما يكون كاتب النص أو أحد أبطاله، و**النص** الذي يكمن فيه التعارض أو التضاد الظاهري، وفيه يتم بث الرسالة، و**ضحية المفارقة** إما أن يكون أحد شخصيات العمل الأدبي أو القارئ لهذا النص».[1]

هذه العناصر المدروسة حديثا كلها تتوفر في قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح وغيرها من القصص القرآنية منذ قرون بعيدة، غير أن تحديد عناصر المفارقة يتطلب دقّة أكثر، ونجد لها مثالا قويا في قصة سيدنا موسى والعبد الصالح حيث يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا

[1] رنا أحمد عبد الحليم، جماليات المفارقة في القصص القرآني، ص 29.

زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤ * قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٥ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءم
بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا
فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ
بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم
مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن
يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا
وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ
ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٨٢﴾.[1]

وفيما يلي جدول يحدّد عناصر المفارقة في قصة سيدنا والعبد الصالح:

صانع المفارقة	**الفعلي:** الله تعالى.	**في القصة:** العبد الصالح.
النص	**الفعلي:** قصة قرآنية	**في القصة:** ما جرى بين موسى عليه السلام والعبد الصالح.
ضحية المفارقة	**الفعلية:** محمد صلى الله عليه وسلم ثم بقية المتلقين عبر العصور	**في القصة:** موسى عليه السلام.

جدول رقم (12) يوضح عناصر المفارقة في قصة موسى والعبد الصالح.

والأمثلة على المفارقة كثيرة في القصص القرآنية وتعدّ من النقاط الخفية التي تبرز جمال النص القصصي القرآني، مما يجعل له طابعا سرديا متميزا لم ولن يوجد مثله.

ولا يمكن إنكار دور آخر للمفارقة إلى جانب الدور الجمالي، وهو الدّرس النفسي حيث تعمل على «إبقاء القارئ نشطا متجاوبا ومتفاعلا مع النص، مما يجعلنا ننبهر لحصول التناقض والتضاد في بنية

[1] سورة الكهف، الآيات: 60-82.

القول، فتبعدنا علن الرتابة وتلفت نظرنا إلى الأحداث المتناقضة والمواقف المتضادة والشخصيات المتصارعة بمفاجأتها للمتلقي وكسرها لأفق توقعاته ومداهمتها بمعان جديدة وأساليب غير منتظرة».[1]

وإجمالا فإن الحديث عن الخصائص الأسلوبية بكثير من التفصيل قد يطول بنا، سواء أ كان من الناحية السردية أم البلاغية، من الناحية الإبداعية الفنية أم النفسية الانفعالية، ليبقى البحث دائما محتاجا إلى المزيد من العمق، والباحث إلى المزيد من الأدوات البحثية التي تساعده أكثر على استيفاء معظم الجوانب ولكن في مجال أوسع ودراسة أضيق ليتم التحكم والتعمق فيها أكثر، وتكون النتائج أدق.

لكن لا يمكن ادعاء الكمال بأيّة حال من الأحوال، إلا أنّ ما كان منا هو محاولة لتحقيق شيء من التكامل في بحث مختلف العناصر للإلمام بمتطلبات الدراسة الأسلوبية بمختلف مستوياتها وأبنيتها.

[1] عاشور توامة، جمالية المفارقة اللفظية في القصص القرآني، ص 702.

خاتمة

يمكن القول –وقد وصلنا إلى آخر محطة في هذا البحث– إنه من الصعب حصر النتائج التي توصلنا إليها، وذلك لكثرتها وتدافعها في سيل من الأفكار، ولم تكن كذلك لو أننا تناولنا مدوّنة أخرى غير القرآن الكريم، لذا لا نملك إلا أن نعبّر عن زيادة شغفنا وشوقنا إلى معرفة وتحصيل المزيد في هذا النوع المتميز من الدراسات القرآنية، لذا نقف على أهم النتائج ونجملها في النقاط العريضة الآتية:

- إعجاز القرآن الكريم وحجيّته وبلاغته وسحر بيانه.
- تنوع وثراء النص القرآني بمضامين مختلفة ومتعدّدة منها القصة القرآنية.
- إعجاز القصص القرآني وتكامله واكتمال عناصره الفنية.
- الحوار القرآني القصصي محرّك حقيقي للقصة القرآنية ومصوّر لشخصياتها بمختلف الهيئات.
- وظيفية الحوار القصصي القرآني وتماشيه وسياقَ القصة وطبيعة الحدث.
- مستويات التحليل الأسلوبي لحوار سورة الكهف تثبت إعجاز القصة القرآنية وارتقاء النص القرآني على أي منهج.
- أصوات النصوص الحوارية متناسقة ومتناغمة وإيقاعاتها متفرّدة.
- ألفاظ القرآن عامة والحوار القرآني خاصة منتقاة ومدروسة بعناية في إطار التكامل والكمال الذي ينفرد به الله سبحانه وتعالى، فالكمال له والإعجاز والتكامل متجلٍّ وواضح في كلامه.
- تميّز الوظيفة الحوارية في القصة القرآنية عن غيرها من أشكال المحاورات الأدبية والفلسفية بقدرتها الفنية والإقناعية، كونها جزء من إعجاز القرآن نفسه.
- بالإضافة إلى القدرة التصويرية الهائلة والدقيقة، التي تساعد على استحضار المشهد كما هو، وبالتالي تستثير متخيّل المتلقي وتؤثر فيه، بل وتجعله يجتهد في رسم ملامح شخصية هنا، أو وصف مكان الحدث هناك.
- اعتماد الله تعالى في حوارات سورة الكهف على أسلوبي الترغيب والترهيب بين مختلف أطراف الحوار.
- من بين الظواهر الأسلوبية المتجلية في سورة الكهف: ظاهرتا الالتفات والانزياح اللتان تتداخلان في بعض الجوانب لكننا فصلنا بينهما بأن جعلنا الالتفات لغويا لفظيا، والانزياح معنويا بيانيا.
- تنوع الالتفات في حوارات سورة الكهف من التفات الضمير وصيغ الأفعال إلى التفات العدد.
- عجز المتلقي عن فصل النص القصصي القرآني عن مبدعه الخالق سبحانه وتعالى، لأن سحر كلامه يلقي بأثره على الأسماع والبصائر بلا حدود ولا قيود.

- يعدّ النص القرآني بذاته انزياحا في أصواته وكلماته وتراكيبه، بالإضافة إلى انزياح المعاني الذي تجسّد في المجازات والاستعارات والكنايات.
- تجسّدت المفارقة في القصص القرآني عموما وفي قصص سورة الكهف خصوصا، وبشكل بارز في قصة سيدنا موسى والعبد الصالح من خلال توفر كل عناصرها فيها.

وفي ختام هذا البحث ندعو الله عز وجلّ أن نكون قد وفقنا إلى بلوغ قدر كاف من الإفادة، ونرجو أن تكون هذه الدراسة بداية لدراسات أخرى تجعل القرآن الكريم ميدانا للبحث ومدونة للتطبيق، وذلك لثرائه ولا محدودية الموضوعات التي تقبل الدراسة وتنتظر الإقبال عليها، ذلك أن هناك جزئيات يمكن أن تكون عناوين لبحوث أخرى تجذب الباحثين وتحفّزهم على خوض تجارب بحثية مثمرة في أي جانب من الجوانب.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم.**

أولا: التفاسير

1-الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيحا، ط 3، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1430 هـ/ 2009 م.

2-الطبري، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه: بشار عواد معروف، عصام فارس الحرستاني، ط 1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1415 هـ/ 1994 م.

3-سيد قطب، في ظلال القرآن، ط 32، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2003م /1423هـ، المجلد 1، ج 1.

4-عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، اعتنى به وخرّج أحاديثه: محمود بن الجميل أبو عبد الله، ط 2، دار الإمام مالك، باب الوادي، الجزائر، 1430 هـ/ 2009 م.

5-محمد الرازي فخر الدين ابن العلاّمة ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط 1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1401 هـ/ 1981 م.

6-محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.

7-محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

8-يوسف الحاج أحمد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنّة المطهرة، ط 2، مكتبة ابن حجر، دمشق، سوريا، 1424هـ/ 2003 م.

ثانيا: المعاجم

1- السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الكريم العزباوى، راجعه: عبد الستار أحمد فراح، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1392هـ/ 1972 م، ج11.

2- جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان.

3- علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر.

4- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط 8، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1426هـ/ 2005م.

ثالثا: الموسوعات

1- يوسف الحاج أحمد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنّة المطهرة، ط 2، مكتبة ابن حجر، دمشق، سوريا، 1424هـ/ 2003 م.

رابعا: المصادر والمراجع

أ-الكتب:

1- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ط 5، مكتبة الأنجلو المصرية، 1975.

2-ابن القيم الجوزية، الأمثال في القرآن الكريم، تحقيق: سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981 م.

3-ابن هشام الأنصاري، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، لبنان.

4-أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ط 1، الدار البيضاء،2006.

5-أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

6-أحمد الشايب، الأسلوب، دراسة بلاغية تعليلية لأصول الأساليب الأدبية، ط8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1411هـ/1991م.

7-أحمد بن إبراهيم بن زبير الثقفي الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

8-أحمد ديدات، القرآن معجزة المعجزات، ترجمة: علي عثمان، مراجعة: محمود غنيم، مكتبة ديدات.

9-أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ط 5، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1998.

10- الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق أحمد صقر، ط 3، دار المعارف، مصر، القاهرة.

11- التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، 1971، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1974.

12- الحسين جرنو محمود جلو، أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم، رسالة جامعية نال بها درجة الماجستير في التربية بدرجة امتياز، ط 1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دار العلوم الإنسانية، دمشق، سوريا، 1414 هـ/ 1994 م.

13- المبرّد، الكامل، تحقيق: محمد أحمد الدالي، ط 3، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1997، ج 2.

14- بشرى موسى صالح، نظرية التلقي أصول وتطبيقات، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2001.

15- بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ط 4، دار الشروق، بيروت، 1980.

16- بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمذاني، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ومعه كتاب: منتخب ما قيل في شرح ابن عقيل، تأليف: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2009 م.

17- تمام حسان، البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، ط 1، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1413 هـ/ 1993.

18- توفيق الزيدي، أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث من خلال بعض نماذجه، الدار العربية للكتاب، 1984.

19- جلال الدين السيوطى، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، من إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.

20- جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه وصححه وكتب فهارسه: أحمد شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1988 م/ 1408هـ، المجلد 1.

21- حازم القرطاجني أبو الحسن، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986، ج 2.

22- حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، الحجاج حدود وتعاريف، ط1، عالم الكتب الحديث، اريد الاردن، ج 1، 1431هـ/ 2010م.

23- حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة العربية، دار الفكر، القاهرة، مصر، 1418 هـ/1998م.

24- حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا اللغة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1970.

25- خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، منهجها وأسس بنائها، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر.

26- خميس كمال الجزرة، محمد وليد حرز الله، نفحات في إعجاز القرآن الكريم البياني، ط1، دار غيدا للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1431 هـ / 2011 م.

27- رنا أحمد عبد الحليم، جماليات المفارقة في القصص القرآني، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، 2015م.

28- سامح على ناصر الناخبي، إتحاف الخلان بفوائد من علوم القرآن، التدقيق اللغوي: شروق محمد سلمان، ط1، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي، الإمارات العربية المتحدة، 2009م.

29- سعيد عطية علي مطاوع، الإعجاز القصصي في القرآن، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 2006 م.

30- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ط16، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1423 هـ/2002م.

31- شكري محمد عياد، مدخل إلى علم الأسلوب، ط2، مكتبة الجيزة العامة، 1413 هـ/1992م.

32- صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ط1، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2000 م.

33- صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ط 1، دار الشروق، القاهرة، 1419 هـ/ 1998 م.

34- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط 2، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مصر.

35- طالب محمد إسماعيل الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، دراسة لغوية أسلوبية في ظل النص القرآني، ط 1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1996.

36- طه وادي، دراسة في نقد الرواية، ط3، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1994 م.

37- طول محمد، البنية السردية في القصص القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر.

38- طيب تيزيني، النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1997م.

39- عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تأويل مشكل القرآن، علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه: إبراهيم شمس الدين، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007.

40- علي الحسني الندوي أبو الحسن، الصراع بين الإيمان والمادية، تأمّلات في سورة الكهف، ط 1، دار القلم، الكويت، 1390هـ/ 1981م.

41- عادل مناع، نحو النص، اتجاه جديد في دراسة النصوص اللغوية، ط 1، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2011.

42- عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، القاهرة، مصر.

43- عباس أمير، الإعجاز القرآني، التبيان التكوّن القراءة، مدخل لنظرية معرفية في نشوء الكون ونظام الكائنات، الكتاب الأول، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

44- عبد الحليم حفني، أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، ط 3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995.

45- عبد الحميد محمد الهاشمي، لمحات نفسية في القرآن الكريم، مكتبة رحاب، الجزائر.

46- عبد الرحمان النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، ط 25، دار الفكر، 1428 هـ/ 2007 م.

47- عبد الرحمان النحلاوي، من أساليب التربية الإسلامية: التربية بالحوار، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، 2000م/ 1421 هـ.

48- عبد الرزاق حسين أحمد، المكي والمدني في القرآن الكريم، دراسة تأصيلية نقدية للسور والآيات من أول القرآن الكريم إلى نهاية سورة الإسراء، ط 1، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1999م /1420هـ، المجلد الأول.

49- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ط 3، الدار العربية للكتاب.

50- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، ط 5، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 2004 م.

51- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم ويوسف، ط 2، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،1395 هـ/ 1975 م.

52- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط 2، دار المعرفة للنشر، الجمهورية التونسية، 2007.

53- عبد المقصود عسكر، القصص القرآني إقناع وإبداع، ط 1، دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا، جمهورية مصر العربية، 2000.

54- عبده زايد، من أسرار النظم في القصص النبوي، دار الصابوني، دار الهداية، 1992/3/4.

55- عثمان فوزي علي، مباحث في الإعجاز القرآني، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2014 م/ 1435هـ.

56- عدنان الرفاعي، الحق المطلق، نظرية قرآنية في الروح القرآني، مركز الذكر للدراسات الإسلامية..www. adnan@thekr. net

57- عدنان الرفاعي، المعجزة الكبرى، معجزة إحدى الكبر، ط1، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2006م.

58- عدنان محمد زرزور، علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه، ط1، دار الأعلام، عمان، الأردن، 1426 هـ/ 2005م.

59- عطية سليمان أحمد، الاستعارة القرآنية في ضوء النظرية العرفانية، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، 2014.

60- عمر محمد عمر حاذق، الجانب الفني في قصص القرآن الكريم، ط 1، دار المأمون للتراث، بيروت، لبنان، 1413هـ/1993 م.

61- فاتح عبد السلام، الحوار القصصي، تقنياته وعلاقاته السردية، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1999.

62- فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني، ط4، دار عمار، عمان، الأردن، 1427هـ/ 2006م.

63- فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: نصر الله حاجي، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1424هـ /2004م.

64- فضل حسن عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ط1، دار الفرقان، عمان، الأردن، 1997 م.

65- فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، ط 1، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1420 هـ/ 2000 م.

66- محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ط 1، بيروت، 1950-1951 م.

67- محمد أحمد خلف الله، مفاهيم قرآنية، عالم المعرفة، إشراف: أحمد مشاري العدواني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يولو 1984 م.

68- محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دراسة تحليلية مقارنة وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد، ط 7، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1971.

69- محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من آي الفرقان، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط 1، مؤسسة الرسالة، 1427 هـ/ 2006م.

70- محمد بن عبد العزيز العواجي، إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية، ط 1، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1427 هـ.

71- محمد جمال الدين بن عبد الله ابن مالك الأندلسي، ألفية ابن مالك في النحو والتصريف، المسماة: الخلاصة في النحو، تحقيق: سليمان بن عبد العزيز العيوني، مكتلة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية.

72- محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، قواعده أساليبه معطياته، ط 5، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1417 هـ/ 1996 م.

73- محمد خير رمضان يوسف، ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح، دراسة تحليلية مقارنة على ضوء القرآن والسنة والتاريخ، ط 2، سلسلة أعلام القصص القرآني (3)، دار القلم، دمشق، سوريا، الدار الشامية، بيروت لبنان، 1451 هـ/ 1994 م.

74- محمد رواس قلعه جي، لغة القرآن، لغة العرب المختارة، دار النفائس.

75- محمد سعيد رمضان البوطي، أدب الحوار في كتاب الله عز وجل، سلسلة البناء و الترشيد، نحو القمة للطباعة والنشر.

76- محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبد الحميد الدخاخني، ط 1، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1417 هـ/ 1997م.

77- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ط 1، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، 1994.

78- محمد عبد المنعم خفاجي، محمد السعدي فرهود، عبد العزيز شرف، الأسلوبية والبيان العربي، ط 1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، 1412، 1992.

79- محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

80- محمد متولي الشعراوي، سورة الكهف، دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة، جمهورية مصر العربية.

81- مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، عناية: مازن علي الشيخ محمد، ط 1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2006.

82- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، راجعه واعتنى به: درويش الجودي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت لبنان، 1424 هـ/ 2003 م.

83- مفرح بن سليمان بن عبد الله القوسي، ضوابط الحوار في الفكر الإسلامي، مركز الملك بن عبد العزيز للحوار الوظيفي، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1429هـ/ 2008.

84- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.

85- يوسف الحاج أحمد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنّة المطهرة، ط 2، مكتبة ابن حجر، دمشق، سوريا، 1424هـ/ 2003 م.

86- يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السّكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987.

87- يوسف عبد العزيز الشبل، أسلوب الالتفات في القرآن الكريم، مجلة الدراسات القرآنية، مجلة علمية دورية محكمة تصدر عن الجمعية العلمية "تبيان" السعودية للقرآن الكريم، العدد: 2، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1429 هـ/ 2008 م.

88- يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ط 1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2008.

ب-الكتب المترجمة:

1- بيير جيرو، الأسلوبية، ترجمة: منذر عياشي، ط 2، دار الحاسوب للطباعة، حلب، سوريا، 1994م.

2- تزفيتان تودوروف، باختين: المبدأ الحواري، ترجمة: فخري صالح، ط 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، الأردن، 1996.

3- تشارلس مورغان، الكاتب وعالمه، ترجمة: محمد شكري عياد، مراجعة: مصطفى حبيب، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2012 م.

4- جون كوين، اللغة العليا النظرية الشعرية، ترجمة وتقديم وتعليق: أحمد درويش، ط 2، المجلس الأعلى للثقافة، 2000.

5- روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، ط 1، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1418 هـ/ 1998 م.

6- ميخائيل باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة: محمد البكري ويمنى العيد، ط 1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1986.

7- ميشال ريفاتير، معايير تحليل الأسلوب، ترجمة وتعليق: حميد لحمداني، ط 1، منشورات دراسات سال، 1993.

8- هاليداي، وظائف اللغة، ترجمة: محمود أحمد نحلة، مجلة اللسان العربي، العدد: 54، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الرباط، شوال 1423 هـ/ ديسمبر 2002م.

ت-المجلات والدوريات:

1-أحمد سليمان البشايرة، مظاهر الإعجاز في الحوار القرآني، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد: 2، العدد: 3، 1427 هـ/ 2006 م.

2-رضا بن صفية، عباس بن يحيى، تلقي الصولي والآمدي للاستعارة عند أبي تمام من خلال أفق التوقع، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد: 06، العدد: 02، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 329.

3-عاشور توامة، جمالية المفارقة اللفظية في القصص القرآني، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد 7، ع 2، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2023.

4-عبد القادر لكحل، عباس بن يحيى، القصة القصيرة المغاربية ومشكلة النص الأول، مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، المجلد: 08، العدد: 02، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2023.

5-عبد الله الجويسي، أسلوب الحوار القرآن الكريم، خصائصه الإعجازية وأسراره النفسية، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، العدد 02،1427هـ/ 2006 م.

6-عز الدين عماري، مقاربة تأصيلية لقضايا أسلوبية في البلاغة العربية، مجلة المقري للدراسات اللغوية النظرية والتطبيقية، المجلد: 03، العدد: 05، جامعة المسيلة، الجزائر، ديسمبر 2019.

7-فراس طركي الأحمد، التصوير البياني في حوار آيات العذاب في القرآن الكريم، مجلة الآداب واللغات، مجلة علمية دولية محكمة، العدد 6، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج، الجزائر، جوان 2017.

8-قدور رحماني، نظام التوازي في شعر ابن عربي (أنموذج الفتوحات المكية)، دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، المجلد: 03، العدد: 08، جامعة المسيلة، الجزائر، ديسمبر 2018.

9-لعويجي أحمد، بلاغة جمهور الخطاب الديني على وسائل التواصل الاجتماعي، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، العدد: 06، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2019.

10- محمد زهار، البعد التعليمي في المصنفات النحوية الأندلسية إصلاح الخلل أنموذجا، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، العدد: 05، جامعة المسيلة، الجزائر، 2018، ص 125.

11- معتصم بابكر مصطفى، من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، ط 1، كتاب الأمة، سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ع 95، قطر، 1424 هـ/ 2003م.

12- نبيلة إبراهيم، المفارقة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، المجلد 7، العددان: 3، 4، 1987.

13- يوسف عبد العزيز الشبل، أسلوب الالتفات في القرآن الكريم، مجلة الدراسات القرآنية، مجلة علمية دورية محكمة تصدر عن الجمعية العلمية "تبيان" السعودية للقرآن الكريم، العدد: 2، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1429 هـ/ 2008 م.

ث-المطبوعات الجامعية:

1- بن عبد الله واسيني، محاضرات في علوم القرآن، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، السنة الجامعية: 2019/ 2020، ص 13.

2- شتوح خضرة، محاضرات في المدارس اللسانية، مطبوعة موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، السنة الجامعية: 2021/2020.

3- عبد الصمد لميش، دروس في مقياس الصوتيات، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر.

ج-الرسائل الجامعية:

1- محمد عبد الله عبده دبور، أسس بناء القصة من القرآن الكريم، دراسة أدبية ونقدية، رسالة مقدمة لنيل درجة العالمية (الدكتوراه) في الأدب والنقد، إشراف: فتحي محمد أبو عيسي، كلية اللغة العربية، قسم الأدب والنقد، جامعة الأزهر، 1417 هـ، 1996.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

شكر وعرفان

مقدمة 5

مدخل: الحوار القرآني: منطلقه وعلاقته بالجدل في القرآن الكريم 5

الفصل الأول: النص القرآني والمدخل الأسلوب

أولا: النص القرآني إعجازه ومضمونه وخصائص أسلوبه 15

1-القرآن الكريم نص معجز 15

2-مضمون النص القرآني 23

3-نظم وأسلوب النص القرآني 32

4-خصائص الأسلوب القرآني 43

أ-سيد قطب 44

ب-محمد عبد الله دراز 46

ت-عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ 48

ثانيا: أسلوبية القصة القرآنية 50

1-القصة القرآنية مفهومها وموقعها في القرآن الكريم 50

2-القصة القرآنية عند القدماء 51

3-القصة القرآنية عند المحدثين 56

4-أغراض القصة القرآنية وتأثيرها على المتلقي 59

الفصل الثاني: الوظيفة الحوارية في سورة الكهف

أولا: مواضع الحوار القصصي القرآني وأطرافه في سورة الكهف 63

1-قصص سورة الكهف وموقع الحوار فيها 63

2- مشاهد سورة الكهف وتجليات الحوار بين أطرافه فيها 65

أ–في قصة أصحاب الكهف 66
ب–في قصة صاحب الجنتين 69
ت– في قصة سيدنا موسى والعبد الصالح 73
ث– في قصة ذي القرنين 76
ثانيا: الحوار القرآني القصصي في سورة الكهف عناصره وأشكاله ووظائفه..... 80
1–عناصر الحوار القصصي في قصص سورة الكهف 80
2–أشكاله 87
3–وظائف الحوار القصصي القرآني في سورة الكهف 93
ثالثا: نصية وعلاقات الحوار القصصي في قصص سورة الكهف 100
1–نصيته 100
أ–السبك (الربط النحوي) 100
ب– الحبك (التماسك الدلالي)..... 104
2–علاقاته 112
الفصل الثالث: البنى الأسلوبية للوظيفة الحوارية في سورة الكهف.
أولا: مفهوم الوظيفة الأسلوبية للحوار 117
1– وظائف اللغة عند رومان جاكوبسون 117
أ–مفهوم الوظيفة/ وظائف اللغة..... 117
ب–وظائف اللغة عند رومان جاكوبسون 118
2–الوظيفة الأسلوبية عند ميشال ريفاتير 120
3– الحوار عند ميخائيل باختين 122
ثانيا: وظيفة المستويات اللغوية 125
1–البنية الصوتية..... 125
أ–جمالية الصوت في النص القرآني إجمالا 125

ب–إيقاع الحروف وتلاؤم الأصوات..... 126
ت–إيقاع الفواصل..... 130
ث–تنوع الفواصل..... 131
2–البنية الصرفية..... 134
أ–انتقاء الألفاظ 134
ب–دور السياق في تحديد معاني الألفاظ 135
ت–منتخبات لفظية..... 135
ث–الصيغ الاسمية والفعلية..... 138
ج–خصائص الكلمة القرآنية 140
3–البنية النحوية..... 142
أ–الجمل الفعلية والجمل الاسمية..... 143
ب–التقديم والتأخير 145
ت–منتخبات إعرابية 147
4–البنية الدلالية 152
أ–الحقول الدلالية 152
ب–الحقول الدلالية في قصص سورة الكهف 153
ت–تحليل الجداول 156
ث–الحقول الفرعية 157
ج–العلاقات الدلالية 162
ثالثا: الوظيفة البلاغية:..... 165
1–بلاغة الحذف (الفراغات النصية) 165
ث–الفجوات 169
2–الأساليب البلاغية (الخبر والإنشاء)..... 172

الفصل الرابع: الخصائص الأسلوبية للحوار القصصي في سورة الكهف

أولا: خصائص السرد القرآني 180

1-آليات التصوير في النص الحواري القرآني 180

2-الترغيب والترهيب 186

3-الحجاج والإقناع 190

أ-مفهوم الحجاج 191

ب-آليات وأساليب الحوار الحجاجي في سورة الكهف 192

ثانيا: بلاغة الحوار في السورة 200

1-الالتفات 200

أ-مفهومه 200

ب-أنواعه 201

ت-فائدة الالتفات 203

2-الأمثال 205

3-الانزياح والمفارقة 207

أ-الانزياح 207

ب-المفارقة 218

خاتمة 223

قائمة المصادر والمراجع 226

ملخص الدراسة:

الحوار هو كل ما يدور بين الشخصيات في القصة أو المسرحية أو في الحياة اليومية من محادثات ومساءلات ومجاوبات، وهو من العناصر الفنية للقصة خصوصا، فهي تعالج في قالب سردي قضية أو توجّه رسالة على المتحاورين فهمها والمساهمة في تبليغها، ولأنّ القصة القرآنية من المضامين الحاضرة بقوة في القرآن الكريم وجب الالتفات إليها ودراستها وبيان عناصرها ومركّباتها الفنية.

وقد عمدت هذه الدراسة إلى معالجة وتحليل الحوار القرآني الوارد في القِصص القرآنية التي تتشكّل فنيا وسرديا ودينيا في سورة الكهف التي تحتوي على أربع قصص كاملة، بهدف حصر البحث بكلّ جوانبه الفنية والأسلوبية والبلاغية واللغوية مختلفة المستويات في النص القرآني بالتحديد الذي يراعي الموقف والسياق في استعمال الكلمة المناسبة في المكان المناسب.

وإذا شئنا اختصار محتوى هذه الدراسة فهي محاولة جادة تسعى إلى إبراز نقاط التميّز والتفرّد في الأسلوب القرآني من خلال بحث وتحديد الخصائص الأسلوبية للحوار في قصص سورة الكهف التي تجلّت فيها انزياحات المعنى وإيقاعات الأصوات وتناغم المفردات وإحكام النّظم والأساليب، وتنوع الصيغ وبلاغة الحجج وعدول الكلام من ضمير إلى ضمير ومن صيغة نحو أخرى، وانتقال من عدد إلى عدد آخر، كل هذا بشيء من التفصيل والتحليل والاستشهاد مع إلقاء ومضات من الأبعاد الروحية والآثار النفسية للنص القرآني على المتلقّي.

Summary of the study:

Dialogue is everything that takes place between the characters in a story or play, or in daily life of conversation, questions and responses which is one of the artistic elements in particular, when it addresses in a narrative form an issue that conveys a message to the interlocutors for understanding and assistance in conveying it, and because the Quranic story is one of the present contents in the Holy Quran, it is necessary to pay attention to it. Study it and explain its artistic elements and components. This study sought to study and analyze the Quranic dialogue contained in the Quranic stories that constitute artistic, narrative and religious aspects for example, Surat Al-Kahf, which contains four complete stories, with the aim of limiting the research to all the artistic, rhetorical, stylistic, and linguistic aspects of the various levels in the Quranic text specifically taking into account the situation and context in using the appropriate word in the appropriate place. Briefing of the content of this study: it is a serious comprehensive attempt that seeks to highlight the points of distinction and uniqueness in the Quranic style through research and identification of the stylistic characteristics of the dialogue in the stories of surat Al-Kahf. From which are the shifts in meaning, the rhythms of sound, the harmony of vocabulary of the precision of systems and methods , the diversity of formulas,

the eloquence of arguments , and the absence of speech From pronoun to small , from one form to another and moving from one number to another , all of this with some detail , analysis , and investment with flashes of spiritual dimensions and the psychological effects of the Quranic text on the recipient .